الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 118 - November 2008

مجلة شهرية . العدد المائة وثمانية عشر . السنة العاشرة . نوفمبر ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات

أسمهان... إذا حكت!

▪ الانهيار الاقتصادى محاولة للفهم !



السنة العاشرة
العدد ١١٨
نوفمبر ٢٠٠٨

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

محتويات العدد :

كتاب العدد :

- الان جرينسبان.. رئيس بنك الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي السابق.
- أمجد محمد سعيد.. شاعر عراقي.
- جون كاسيدى.. صحفي بريطاني متخصص في شئون الاقتصاد.
- جيل أبرامسون.. مديرة تحرير جريدة «ذا تايمز للأخبار».
- خالد عزب.. مدير إدارة الإعلام بمكتبة الإسكندرية.
- ديديه جاليني.. مصور وناقد فرنسي.
- السيد أمين شلبي.. الرئيس التنفيذى للمجلس المصرى للشئون الخارجية.
- فضل مصطفى النقيب.. أستاذ في جامعة واترلو ـ كندا.
- محمد بيلي العليمي.. كاتب مصري
- محمد التابعي.. صحفي مصري (راحل).
- محمد راتب النابلسي.. داعية سوري
- منار الشوربجي.. أستاذة جامعية وخبيرة في الشئون الأمريكية.
- نذير جزماتي.. كاتب سوري.

رسوم العدد للفنانين

محمد حجي ـ Dario Castillejos - Kerry Waghorn

RJ Matson (The St. Louis Post Disbatch)

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٢ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٣ / ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@elkotob.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولاراً أمريكياً ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكياً ـ باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري ـ ص ـ ب ـ ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة :

في مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عمان ١.٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٢٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

فضل مصطفى النقيب

فى فهم ما جرى ؟؟

الأزمة الراهنة نشأت واستفحلت
فى الولايات المتحدة نفسها. ثم انتقلت إلى الأسواق العالمية الأخرى.
أى أنها كانت أزمة أمريكية المنشأ

هل ستنجح خطة إدارة الرئيس بوش فى معالجة الأزمة الراهنة فى أسواق المال الأمريكية؟ أم أنها ستعمل على التهدئة لفترة محدودة، يعود بعدها عدم الاستقرار لتلك الأسواق؟

لا أحد يستطيع الإجابة عن هذا السؤال بشكل قاطع. ولكن من الممكن تحديد أهم العوامل التى يساعد تواجدها على ارتفاع احتمالات النجاح. كما أن غياب بعضها يرفع من احتمالات الفشل. وفى هذا المجال، يبدو أن أهم العوامل التى تؤثر فى الأزمة تتوزع على ثلاثة أبعاد رئيسة.

يخص البعد الأول واقع الاختلاف الجوهرى بين الأزمة الحالية والأزمات التى عصفت بأسواق المال فى العقدين الأخيرين من القرن الماضى. فالأزمات السابقة كأزمة قروض أمريكا اللاتينية فى الثمانينيات، ثم الأزمة النقدية التى اجتاحت بريطانيا فى العامين ١٩٩٢ و١٩٩٣، ثم الأزمة النقدية لأمريكا اللاتينية خلال العامين ١٩٩٤ و١٩٩٥، وأخيراً الأزمة النقدية فى شرق آسيا خلال الفترة (١٩٩٧-١٩٩٩). كانت كلها أزمات تنشأ بعيداً عن الاقتصاد الأمريكي، وكانت الإدارة الأمريكية تنجح فى القيام بالجهد الرئيس لاحتواء الأزمة ومنعها من أن تصبح أزمة عالمية تهدد استقرار الاقتصاد العالمى.

فى المقابل، فإن الأزمة الراهنة نشأت واستفحلت فى الولايات المتحدة نفسها، ثم انتقلت إلى الأسواق العالمية الأخرى. أى أنها كانت أزمة أمريكية المنشأ، وبالتالى فهى تطرح على الفور، وبشكل طبيعي، سؤالاً حول الأسباب الخاصة والمتعلقة بالاقتصاد الأمريكى التى قادت لحدوث وتفاقم هذه الأزمة. كما أنها تطرح سؤالاً حول علاقة هذه الأزمة بالأزمات السابقة التى مر بها الاقتصاد الأمريكى فى تاريخه الحديث. وهذا يعنى أن البعد الأول للأزمة يخص دورها فى سياق التطور الخاص بالاقتصاد الأمريكي.

وتظهر أهمية البعد الثانى للأزمة مباشرة عندما نلاحظ أن أهم صفات الاقتصاد الأمريكى هو أنه أقوى وأكبر وأغنى اقتصاد فى العالم، بحيث يشكل هذا الاقتصاد فى وقتنا الحاضر القاعدة التى ترتكز عليها السياسة الأمريكية والتى تهدف، فيما تهدف إليه، إلى بقاء الولايات المتحدة القوة الأعظم فى عالم القطب الواحد وعدم السماح بظهور قوى أخرى تسعى لاسترجاع وصياغة عالم متعدد الأقطاب. وبالتالي، فإن الأزمة الحالية تطرح مجموعة من الأسئلة حول علاقتها بالسياسة الخارجية الأمريكية. فهل كانت هذه السياسة أحد أسباب الأزمة؟ وهل تقتضى المعالجة الناجحة للأزمة تغييراً جذرياً فى هذه السياسة؟

وتبرز أهمية البعد الثالث للأزمة عندما نلاحظ أن الأزمة الراهنة، هى أولاً وأخيراً، أزمة فى النظام الرأسمالي، وبشكل محدد فإنها أزمة فى النظام الرأسمالى الملتزم بالأيديولوجية المعروفة باسم «الليبرالية الجديدة». وهنا تبرز أهمية فهم معنى الأزمة بالنسبة لواقع ومستقبل نظام الليبرالية الجديدة فى النظام الرأسمالى فى الولايات المتحدة بشكل خاص وفى العالم بشكل عام.

يهدف هذا المقال إلى مناقشة الأزمة الحالية التى تعصف بأسواق المال العالمية، فى سياق هذه الأبعاد الثلاثة.

[١]

كان كاتب أمريكا الأشهر فى القرن التاسع عشر رالف والدو إميرسون (١٨٠٣-١٨٨٢) يقول إن التوجه العام للسياسة فى أمريكا يتبع حركة نصف دائرية. إذ إنه ينتقل بشكل دورى بين سياسة «الذاكرة» وسياسة «الأمل». أى بين التركيز على العمل من أجل الاحتفاظ بتراث الماضى دون تغيير أو تبديل، وبين التركيز على العمل من أجل خلق مستقبل أفضل جديد. وقد أخذت تلك المقولة بعداً سياسياً عندما طورها هنرى آدمز (١٨٨٣-١٩١٨) الذى رأى أنه منذ حصول الولايات المتحدة على الاستقلال وهى تمر بمرحلة تكون الأولوية السياسية فيها للتماسك والمحافظة على الوضع الراهن، ثم تتبعها مرحلة أخرى تكون الأولوية فيها للإصلاح والتغيير. وفى مطلع القرن العشرين التقط هذه المقولة المؤرخ المشهور لجامعة هارفارد آرثر شلسنجر الأب (١٨٨٨-١٩٦٥). وكان من أوائل المؤرخين الأمريكيين الذين حاولوا فهم تطور التاريخ الأمريكى من خلال فهم تطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وليس فقط من خلال التركيز على التطورات السياسية وحياة الزعماء السياسيين. وقد قادته تلك المحاولة إلى الاقتناع بمقولة أمرسون وآدمز إذ رأى أن توجه السياسة



أزمة ١٨٩٥ الكبرى By C.T. Dazey

في أمريكا يتغير بشكل جذري في فترات «دورية». وبغض النظر عن الحزب الحاكم، حيث تمر الولايات المتحدة في فترة زمنية يسود فيها الاهتمام بالصالح العام ويبرز فيها الدور النشيط للدولة في الاقتصاد، وبعد سنوات تنتهي تلك الفترة وتحل محلها فترة مغايرة يسود فيها الاتجاه المعاكس المتمثل في التركيز على المصالح الفئوية والشخصية وتضاؤل دور الدولة في الاقتصاد. وبعد سنوات تعود الدورة مرةً أخرى.

أصبحت تلك القراءة للتاريخ الأمريكي تعرف باسم مقولة «دورات التاريخ الأمريكي»، وقد قام آرثر شلسنجر الابن (١٩١٧-٢٠٠٧)، والذي أصبح أيضاً أستاذاً في جامعة هارفارد، بتطوير مقولة والده إذ رأى فيها تناوباً مستمراً بين مرحلة يسود فيها توجه السياسة «الليبرالية» ومرحلة يطغى عليها توجه السياسة «المحافظة». كما رأى أن متوسط عمر المرحلة الواحدة يتراوح ما بين ثلاثين وأربعين سنة. وقد حدد ثلاث مراحل مرت بها السياسة الأمريكية خلال القرن العشرين: مرحلة للسياسة المحافظة عرفت باسم «نظام ١٨٩٦» وقد امتدت هذه المرحلة من العام ١٨٩٦ وحتى العام ١٩٣٢. وتبعتها مرحلة من السياسة الليبرالية والتي عرفت باسم «العهد الجديد» وامتدت من العام ١٩٣٢ إلى العام ١٩٦٨. وأخيراً، مرحلة ابتدأت كمرحلة تتبع السياسات المحافظة التقليدية ثم تطورت وأخذت تتبع سياسات محافظة متطرفة حتى أصبحت تعرف باسم مرحلة «الليبرالية الجديدة»[1] وقد اعتقد شلسنجر الابن أن تلك المرحلة بدأت عام ١٩٦٨ وانتهت عام ١٩٩٢، ثم عاد وأقر أنها عادت للحياة في انتخابات عام ٢٠٠٠.

أخذت مرحلة «نظام ١٨٩٦» اسمها من الانتخابات الرئاسية التي جرت عام ١٨٩٦. إذ كانت انتخابات حاسمة انقسم فيها المجتمع الأمريكي على نفسه بشكل لم يحصل بعد ذلك أبداً.

في جانب، كان هناك تحالف عريض من المزارعين والعمال وفقراء الطبقة الوسطى يطالب بسن قوانين تحد من قوة البنوك والشركات الرأسمالية ويعادي توجه الولايات المتحدة الإمبريالي الذي رأى فيه مغامرات لا تعود على الشعب الأمريكي إلا بالضرر. وفي الجانب الآخر، كان هناك تحالف الرأسمالية الصناعية والرأسمالية المالية. ويضم أغنياء المزارعين والمهنيين وعمال الخبرة العالية. وكانت مصالح ذلك التحالف مرتبطة بمصالح شبكة الشركات الصناعية - المالية الكبرى التي كانت تعمل على صياغة مشروع إمبريالي يمكنها من بسط سيطرتها على الأسواق العالمية وخصوصاً في شرق آسيا وأمريكا الجنوبية.

ولقد تمحور الصراع بين هذين المعسكرين في انتخابات ١٨٩٦ حول وضع النقد الأمريكي وهل يرتبط الدولار بالذهب فقط أم بالذهب والفضة.

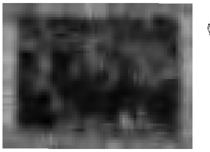
كان التحالف الأول يضم الحزب الديمقراطي والحزب الشعبوي (Populist) ويؤيد ربط الدولار بالفضة لأن ذلك سيعمل على زيادة حجم النقد وتخفيض قيمة الدولار وبالتالي تخفيض العبء على المدينين الذين يشكلون غالبية جماهيره، ويتواجد هؤلاء بكثرة في ولايات غنية بالفضة. في المقابل، كان التحالف الثاني الذي يمثل الحزب الجمهوري ومصالح الشبكة الصناعية-المالية، وهم الدائنون الذين يريدون أن يستردوا قروضهم بنقد له قيمة عالية لا تتحقق إلا إذا ارتبط الدولار بالذهب فقط.

قاد التحالف الأول ويليم جينغز برايين (١٨٦٠-١٩٢٥) الذي كان رجلاً يتمتع بكل صفات القائد التاريخي. فقد كان قادراً على التعبير عن آراء الملايين وصياغة رؤية تجسد رغباتهم وآمالهم وطموحاتهم. وكان سياسياً من النوع النادر في تلك الأيام (وفي هذه الأيام) إذ كان صادقاً مع نفسه ومع الآخرين.

وقد ألقى برايين مرشح الحزب الديمقراطي والحزب الشعبوي في انتخابات ١٨٩٦ وفي مؤتمر الحزب الديمقراطي خطاباً اشتهر فيما بعد باسم «خطاب الذهب» الذي أنهاه مخاطباً الرأسمالية المالية:

«لن تضعوا على رأس الطبقة العاملة تاجا من الشوك، لن تصلبوا الإنسانية على صليب من ذهب».

ولكن ذلك هو ما حصل بالفعل. فلقد سقط برايين في انتخابات عام ١٨٩٦ أمام مرشح الحزب الجمهوري وليم ماكنلي (١٨٤٣-١٩٠١) الذي شهدت إدارته دخول الولايات المتحدة القرن العشرين على أساس الأيديولوجية التي أصبحت تعرف باسم «نظام ١٨٩٦» والمبنية على أساس الحرية الكاملة للرأسمالية في الداخل وانتهاج سياسة إمبريالية في الخارج. ففي



خلال المرحلة خاضت الولايات المتحدة الحرب الإسبانية-الأمريكية كما احتلت هاواى والفيليبين وبورتيريكو وجزر جوام وساموا كما وضعت كوبا وباناما وجمهورية الدومينيك كمحميات وتدخلت عسكرياً فى الصين والمكسيك وهاييتى ونيكاراغوا وقد استمر العمل وفق نظام ١٨٩٦ طوال العقدين الأول والثانى من القرن العشرين. فبعد اغتيال ماكنلى عام ١٩٠١ سقط وليم جينغز براين مرة ثانية فى انتخابات الرئاسة أمام المرشح الجمهورى تيودور روزفلت (١٨٥٨-١٩١٧) الذى أعيد انتخابه فى عام ١٩٠٤. وفى انتخابات ١٩٠٨ سقط وليم جينغز براين مرة ثالثة أمام المرشح الجمهورى وليم تافت (١٨٥٧-١٩٣٠)، وحتى عندما استعاد الحزب الديمقراطى البيت الأبيض فى انتخابات عام ١٩١٢ وأصبح ودرو ولسون رئيساً للجمهورية ووليم جينغز براين وزيراً للخارجية، فإن الأخير قدم استقالته عام ١٩١٥ احتجاجا على سياسة الرئيس ولسون التى رأى انها ستؤدى إلى دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية، على أساس انه رأى فى تلك الحرب نزاعاً بين الإمبراطوريات الأوروبية وعلى الولايات المتحدة أن تبقى بعيدة عنه. وبعد إدارة ولسون الديمقراطية توالت على البيت الأبيض ثلاث إدارات جمهورية، هى إدارة وارن هاردنغ (١٩٢١-١٩٢٣) وإدارة كالفن كوليدج (١٩٢٣-١٩٢٩) وأخيراً إدارة هربرت هوفر (١٩٢٩-١٩٣٣) وكلها كانت ملتزمة بأسس نظام ١٨٩٦.

عند النظر إلى مجمل المرحلة (١٨٩٦-١٩٣٣) فإننا نلاحظ أنها المرحلة التى أصبح فيها الاقتصاد الأمريكى قوياً وغنياً وينمو بمعدلات تفوق معدلات نمو أى اقتصاد آخر فى العالم، ولكنه بنفس الوقت كان نمواً غير مستقر بحكم أنه كان يقود إلى توسيع الفجوة بين الأغنياء والفقراء، ففى عام ١٩٢٩ كان واحد بالمائة من الأمريكيين يحصلون على ٤٢٪ من الدخل القومى ويسيطرون على ٣٤٪ من مجمل الادخار القومي، بينما كان ٨٠٪ من المواطنين لا يملكون أى ادخار. وقاد تجمع الثروات الهائلة فى أياد قليلة إلى انتشار ظاهرة المضاربات فى أسواق المال، والتى كانت تتم عادة بدون قواعد ضابطة. ومع أن المرحلة بمجملها كانت مرحلة نمو كبير، إلا أنها كانت أيضاً مرحلة عدم استقرار، ففى مجمل المرحلة حدثت ١١ أزمة من أزمات الركود الاقتصادي بمتوسط أزمة واحدة كل ١٩ شهراً. وكان آخرها فترة الركود الكبير الذى بدأ بانهيار سوق الأوراق المالية فى نيويورك يوم الثلاثاء الأسود فى ٢٩ أكتوبر عام ١٩٢٩ وعند ذلك انتهت مرحلة «نظام ١٨٩٦» وابتدأت مرحلة «العهد الجديد».

[٢]

كان انهيار سوق المال فى نيويورك مذهلاً ففى خلال أسبوع واحد وجد الملايين من الناس أنهم فقدوا معظم مدخراتهم. ولمعرفة حجم الكارثة يكفى أن نلاحظ أن السوق لم يعد إلى المستوى الذى كان عليه قبل الانهيار إلا بعد ربع قرن (١٩٥٤).

بعد انهيار السوق فى أكتوبر ١٩٢٩ توالت عمليات إفلاس الشركات وإغلاق أبواب المصانع وتسريح العمال. وما أن جاء عام ١٩٣٣ إلا وكان ربع الطبقة العاملة الأمريكية قد أصبحوا بدون مصدر للدخل. ومن الطبيعى أن الكساد لم يتوقف عند حدود الولايات المتحدة بل انتقل إلى جميع بلدان العالم. وكانت حدة الكارثة فى أى بلد تتناسب طردا مع درجة اندماج ذلك البلد فى الأسواق العالمية. وقد استمرت تلك الضائقة الاقتصادية الكبرى، التى لم يشهد لها العالم مثيلاً منذ بداية الثورة الصناعية، طوال عقد الثلاثينيات، ولم تنته إلا باندلاع الحرب العالمية الثانية.

شكلت الضائقة الاقتصادية الكبرى تحدياً هائلاً للنظام الرأسمالى فى كل العالم. وكان التحدى فى الولايات المتحدة على المستوى السياسى موجهاً بالدرجة الأولى لإدارة الرئيس فرانكلين روزفلت الديمقراطية التى تسلمت الحكم بعد انتخابات عام ١٩٣٢. وكان التحدى على المستوى الفكرى موجهاً بالدرجة الأولى للمراكز الأكاديمية التى لم تتنبأ بالكارثة قبل حدوثها وعجزت عن تقديم حل مناسب لها بعد بضع سنوات من استفحالها.

لم يكن لدى إدارة روزفلت خطة أو سياسة متكاملة للتعامل مع الأزمة. وكان هناك شعور عام بضرورة استعادة ثقة المواطن الأمريكى فى النظام الرأسمالي، (شعار روزفلت المشهور: ليس هناك ما نخاف منه إلا الخوف نفسه) وكان هناك تصور عام بأن حل الأزمة يأتى عن طريق التخلص من بعض الممارسات الاقتصادية التى كانت تتم فى الماضى ويعتقد أنها كانت مسئولة عن تدهور الأوضاع. وفى هذا المجال أصدرت إدارة روزفلت عدة تشريعات وقامت بتنفيذ عدة مشاريع بين الأعوام ١٩٣٣ و١٩٣٨ عرفت باسم تشريعات «العهد الجديد». وقد كان لتلك الحزمة من السياسات فى البداية ثلاثة أبعاد: الأول هو برنامج إغاثة للعاطلين عن العمل وبرنامج إغاثة طوارئ للمحتاجين، والثانى قوانين جديدة لتنظيم أسواق المال وقوانين لإصلاح البنوك، والثالث خطة اقتصادية لتنشيط عجلة الاقتصاد حتى يستعيد عافيته، خصوصاً فى المجالين الزراعى والصناعي. وبعد ذلك تم إصدار قوانين وتشريعات تمنح نقابات العمال الحق القانونى فى الإضراب عن العمل والحق القانونى فى التفاوض مع الشركات فيما يخص الأجور والتأمينات والتقاعد. كما قامت الإدارة بإصدار تشريع لتأسيس نظام قومى للضمان الاجتماعي يشمل كل مواطن. وفى نفس الوقت بدأت الإدارة باستعمال الإنفاق الحكومى كأداة لتحريك عجلة الاقتصاد.

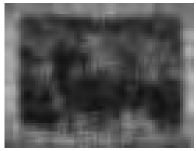
خطة الرئيس بوش فى اقتراض ٧٠٠ مليار دولار من أجل شراء أصول المؤسسات المالية لمنعها من الانهيار هو علاج مؤقت قد ينجح، ولكنها ليست الخطة التى تعالج أسباب الأزمة الحقيقية

لم تأخذ سياسات «العهد الجديد» تبريرها الفكرى أو الأيديولوجى إلا بعد سنوات من ظهور كتاب النظرية العامة للعمالة والفائدة والنقد (١٩٣٦) لأستاذ جامعة كيمبردج فى بريطانيا جون ميرند كينز (١٨٥٢-١٩٤٩)، حيث قدم كينز تفسيراً مقنعاً لأسباب الأزمة الاقتصادية وطرق معالجتها.

قبل النظرية الكينزية، كانت كليات الاقتصاد فى أهم الجامعات الأمريكية والبريطانية تلتزم بمنهج النظرية الكلاسيكية فى الاقتصاد. ولم يكن فى مقدور تلك النظرية تحديد أسباب الأزمة الاقتصادية الخانقة التى اجتاحت العالم. فلقد كانت تلك النظرية فى جوهرها نظرية لتحديد الأسعار وفق قوى العرض والطلب. ووفقاً لهذه النظرية فإن من الممكن حدوث مشكلة بطالة عن العمل فى فترة زمنية قصيرة، ولكن ليس من الممكن استمرار المشكلة لمدة سنوات كما حدث، وذلك لأن البطالة تقود إلى تخفيض الأجور الذى يقود بدوره إلى تخفيض كلفة الإنتاج وزيادة الأرباح وعندها تقوم الشركات بالتوسع فى الإنتاج وتوظيف العمال مما يقضى على البطالة.

رأى كينز أن الذى يحدد حجم الطلب العام على السلع والخدمات ليس الأسعار بقدر ما هو دخل المستهلكين، وإذا كان المستهلك عاطلاً عن العمل وبلا دخل فإن انخفاض الأسعار لا يعنى أى شيء بالنسبة له. وكذلك فإن الذى يدفع أصحاب المنشآت الاقتصادية لزيادة حجم التوظيف ليس مستوى الأجور بقدر ما هو التوقعات الخاصة بالطلب العام على منتجات هذه المنشآت، وعندما يكون مستوى ذلك الطلب منخفضا فإن انخفاض الأجور يعمل على تخفيض الدخل العام وبالتالى تخفيض الطلب العام مما يزيد فى تأزم مشكلة البطالة عن العمل وليس حلها.

رأى كينز أن الذى يحدد مستوى النشاط الاقتصادي بشكل عام ليس هو الأجور أو الأسعار بل هو حجم الطلب العام (حجم الطلب على السلع الاستهلاكية والطلب على السلع الاستثمارية). وفى أى وقت يكون فيه ذلك الحجم أقل من المستوى المطلوب لضمان التوظيف الكامل لليد العاملة فليس هناك من طريقة لزيادة حجم الطلب العام إلا بزيادة الإنفاق الحكومي. ومن جهة أخرى ففى أى وقت يكون فيه حجم الطلب العام أكبر من المستوى



المطلوب لضمان التوظيف الكامل لليد العاملة فإن الاقتصاد سيعاني من مشكلة الارتفاع المستمر للأسعار والتضخم، وليس هناك من طريقة لتخفيض حجم الطلب العام إلا بتخفيض حجم الإنفاق الحكومي»[1].

من الواضح أن مفهوم تدخل الدولة في الاقتصاد لحل مشكلة البطالة عن العمل لم يكن من اختراع كينز، فلقد تم استعمال ذلك الأسلوب من قبل حكومات عديدة في التاريخ القديم والحديث. وبشكل خاص فقد استعملته حكومة الحزب النازي في ألمانيا بنجاح منذ استلامها الحكم عام ١٩٣٣، وهذا ما قاد أستاذة جامعة كيمبردج جون روبنسون إلى القول: «لقد تمكن أدولف هتلر من حل مشكلة البطالة عن العمل في ألمانيا قبل أن يتمكن كينز من إقناع زملائه في كيمبردج بطريقة الحل».

ومع ذلك فقد شكلت نظرية كينز ثورة حقيقية في الفكر الاقتصادي الغربي وذلك لأنها لم تكن مبنية على أساس مفاهيم راديكالية أو اشتراكية، بل كانت مصاغة من نفس مفاهيم المدرسة الفكرية في الاقتصاد التي تعتمدها معظم الجامعات الأمريكية والبريطانية (المدرسة النيوكلاسيكية). وأهم من ذلك كله، فلقد كان هدف النظرية هو إنقاذ النظام الرأسمالي وليس تحطيمه.

انتشرت نظرية كينز في مدة بسيطة نسبياً في المراكز الأكاديمية الأمريكية ثم أصبح لها أنصار في المؤسسات الإعلامية. وهكذا أصبحت الفلسفة الليبرالية في السياسة تعني تأييد تدخل الدولة في الاقتصاد وفق منطق نظرية كينز.

حصلت سياسات «العهد الجديد» على تأييد شعبي كاسح فأعيد انتخاب روزفلت مرة ثانية في انتخابات العام ١٩٣٦، ومرة ثالثة في انتخابات العام ١٩٤٠، ومرة رابعة في انتخابات عام ١٩٤٤[2]. ومما لا شك فيه أن كثيراً من إصلاحات «العهد الجديد» كانت قريبة إلى الأفكار والمبادئ التي حملها التحالف الذي قاده برايان في مطلع القرن وخصوصاً أن من تلك الإصلاحات كان فك ارتباط الدولار بالذهب. كما أنها اشتملت على وضع ضوابط وقيود تنظم نشاط الأسواق المالية حتى لا يتكرر الانهيار المالي الذي حدث في عام ١٩٢٩ وفي هذا الصدد قال كينز: «إن وجود أسواق المال بدون ضوابط وقوانين تنظم عملها كفيل بتحويل النظام الرأسمالي إلى كازينو للقمار»[3].

لم يتوقف تأثير فلسفة «العهد الجديد» ونظرية كينز على الولايات المتحدة فقط. ففي عام ١٩٤٤ تم عقد مؤتمر اقتصادي في مدينة «برتون وود» في مقاطعة نيوهامشير حضره ممثلو ٤٤ دولة من الحلفاء وفيه اتفقوا على تأسيس نظام نقدي جديد يتبناه العالم بعد انتهاء الحرب العالمية. وبشكل يتناغم مع أساسيات «العهد الجديد» ونظرية كينز. فمن أجل محاربة مشكلة الكساد وتسريع التنمية بعد الحرب تم تأسيس البنك الدولي لإعادة الإعمار والتنمية (وأصبح يعرف باسم البنك الدولي) وأنيط به تقديم قروض طويلة الأجل لمساعدة الحكومات على تمويل مشاريع إعادة تأهيل البنى التحتية وخلق بيئة ملائمة للاستثمار. ومن أجل تشجيع التجارة الدولية وتقليص عوامل عدم الاستقرار تقرر أن تلتزم كل دولة بسعر ثابت لنقدها بالنسبة للدولار. وفي نفس الوقت التزمت الولايات المتحدة بسعر ثابت للدولار بالنسبة للذهب (٣٥ دولاراً للأوقية الواحدة من الذهب) وتم تأسيس صندوق النقد الدولي لمساعدة أي بلد تمر بأزمة لا تستطيع معها الاحتفاظ بالسعر الثابت لنقدها الوطني.

استمرت الإدارات الأمريكية المتعاقبة باتباع سياسات «العهد الجديد» بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. وقد تباطأ العمل بتلك السياسات بعد أن عاد الجمهوريون للحكم في عهد الرئيس دوايت أيزنهاور (١٩٥٢-١٩٦٠). ثم عاد العمل بتلك السياسات بشكل قوي ومتطور في ظل إدارة الرئيس جون كينيدي (١٩٦١-١٩٦٣). ففي عهد تلك الإدارة استعان الرئيس بنخبة من طليعة الأساتذة الجامعيين الذين تبنوا نظرية كينز وعملوا على تطويرها، فقاموا باتباع سياسة مالية (ضرائب وإنفاق) من وحي تلك النظرية. وقد تضاعف العمل وفق أسس «العهد الجديد» ومفاهيم نظرية كينز بعد اغتيال الرئيس كينيدي وتسلم إدارة الرئيس ليندن جونسون للحكم (١٩٦٣-١٩٦٩). فقد تبنت تلك الإدارة برنامجاً للسياسات الاقتصادية والاجتماعية أطلقت عليه اسم «المجتمع العظيم». وتكون هذا البرنامج من ثلاثة محاور: الأول «الحرب على الفقر» ويهدف إلى مساعدة العائلات الفقيرة للخروج من دائرة الفقر عن طريق المساعدات المالية والتعليمية وإيجاد فرص العمل. وعملت إدارة جونسون من خلال المحور الثاني على سن مجموعة من القوانين التي تؤيد حركة الحقوق المدنية وإنهاء التمييز العنصري ضد المواطنين السود. أما المحور الثالث فاختص باتباع السياسات المالية والنقدية التي تكفل بقاء النشاط الاقتصادي في مستوى التوظيف الكامل لليد العاملة وتمنع حدوث الكساد والبطالة عن العمل.

في السنوات الأولى من عمر برنامج «المجتمع العظيم» بدت الأمور وكأن أدوات النظرية الكينزية قادرة بالفعل، إذا استعملت بشكل ذكي وخلاق، على تخليص النظام الرأسمالي من عوامل عدم الاستقرار التي كان يعاني منها قبل الحرب. فقد كان الاقتصاد الأمريكي آنذاك يعيش فترة ذهبية. إذ كان ينمو بمعدلات عالية. في نفس الوقت الذي كان ذلك النمو يعمل على تضييق الفجوة بين الأغنياء والفقراء، ويتزامن مع تعزيز شعور الملايين من المواطنين السود بأنهم في الطريق لأن يصبحوا مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات مع

الإمبراطورية الأمريكية،
كما شرح محمد حسنين هيكل
تدار بعقلية الشركة التي لا تخطو
أي خطوة دون اعتبار مقياس
الربح والخسارة

المواطنين البيض وليسوا مواطنين من الدرجة الثانية.

ولكن ذلك كان مجرد وهم وسراب. فما أن انتهت الستينيات حتى عادت عوامل عدم الاستقرار للاقتصاد الأمريكي.

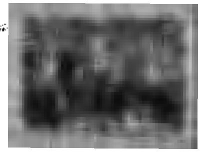
يعود السبب الرئيسي لعودة أوضاع عدم الاستقرار في الاقتصاد الأمريكي إلى البعدين الآخرين اللذين ذكرناهما في بداية المقال وهما: الدور الإمبريالي للولايات المتحدة في العالم، والتطور الداخلي للرأسمالية الأمريكية. وسنخصص الجزء اللاحق لمناقشة هذين البعدين على أساس أنهما كانا من الأسباب الرئيسية لانتهاء مرحلة «العهد الجديد» وبداية مرحلة «الليبرالية الجديدة» المسئولة عن الأزمة المالية الراهنة.

[٣]

في مطلع الستينيات كان الاقتصاد الأمريكي داخل الولايات المتحدة ينمو مع توظيف كامل لليد العاملة ومع ثبات مستقر في الأسعار. وكان هناك جهد حثيث من الحكومة الاتحادية لمعالجة المشاكل الخطيرة التي عانى منها المجتمع الأمريكي كمشكلة الفقر ومشكلة التمييز العنصري ضد المواطنين من أصل أفريقي..

ولكن ذلك «العصر الذهبي» لم يستمر طويلاً، ففي عام ١٩٦٤ اتخذ الرئيس ليندن جونسون قرارين خطيرين كان لهما أثر كبير في عودة أوضاع عدم الاستقرار إلى الاقتصاد الأمريكي. تمثل القرار الأول في خوض حرب فيتنام. وتمثل القرار الثاني في تمويل الحرب بأسلوب الاقتراض (أي تمويل الحرب بأسلوب عجز ميزانية الحكومة الاتحادية).

كان القرار الأول منسجماً مع توجهات السياسة الأمريكية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية التي كانت تعمل على محاربة الشيوعية العالمية من جهة ووراثة النفوذ والهيمنة على مستعمرات الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية من جهة أخرى. أما القرار الثاني فكان خاصاً بطبيعة الإمبراطورية الأمريكية واختلافها عن الإمبراطوريات الأوروبية القديمة. فالإمبراطورية الأمريكية، كما شرح محمد حسنين هيكل[4] تدار بعقلية الشركة التي



لا تخطو أي خطوة دون اعتبار مقياس الربح والخسارة. وقد أدرك الرئيس جونسون أن الكونغرس سيعارض الحرب في الفيتنام إن هو قام بتمويلها من الموارد الضريبية لأن ذلك كان يعني إما تقليص حجم الإنفاق الحكومي في مجالات أخرى، أو فرض ضرائب جديدة. وفي كلتا الحالتين فإن ذلك سيتعارض مع مصالح شرائح واسعة من الشعب الأمريكي لها ممثلون أقوياء في الكونغرس.

عارض المستشارون الاقتصاديون للرئيس جونسون أسلوبه في تمويل الحرب عن طريق الاقتراض. وبرر هؤلاء معارضتهم بتأثير الاقتراض ودوره في تعاظم حجم العجز في ميزانية الحكومة الاتحادية. فجميعهم كانوا من أنصار النظرية الكينزية. وبالتالي كانوا قادرين على التنبؤ بأن الإنفاق على الحرب، بأسلوب عجز الميزانية، في وضع توظيف كامل لليد العاملة سيقود للارتفاع المستمر للأسعار ومشكلة التضخم، وهذا ما حصل بالفعل. ففي نهاية الستينيات ومطلع السبعينيات تعاظم حجم العجز في ميزان المدفوعات الأمريكي حتى تغير الوضع كلياً بالنسبة للدولار الأمريكي، فبينما كان هناك طلب متزايد على الدولار في الخمسينيات وحتى منتصف الستينيات انقلبت الصورة في أواخر الستينيات ومطلع السبعينيات وأصبح هناك فائض منه في الأسواق العالمية. فبدأ حاملو الدولار من الأجانب يعملون على استبداله بالذهب، فأخذ الاحتياطي الأمريكي من الذهب بالتناقص حتى اضطر الرئيس نكسون في آب ١٩٧١ إلى الإعلان عن فك ارتباط الدولار بالذهب. وبذلك تحطمت أهم ركيزة من ركائز النظام النقدي الذي تكرس في «بروتن وودز». فانتهى عهد سعر الصرف الثابت للعملات وبدأ عهد سعر الصرف المتغير. وفي نفس الوقت انتهى أيضاً عهد ثبات الأسعار وبدأ عهد التضخم الذي تجلى في ارتفاع مستمر للأسعار ينجم عنه ارتفاع مستمر في الأجور. وفي منتصف السبعينيات أخذ الاقتصاد الأمريكي يعاني أيضاً من مشكلة الكساد وارتفاع معدلات البطالة، وذلك بفعل الارتفاع الهائل في أسعار الطاقة الذي قاد إلى زيادة كلفة الإنتاج وتخفيض مستوى الأرباح وبالتالي تقليص حجم الإنتاج وتسريح العمال. وهكذا أصبح الاقتصاد الأمريكي يعاني من أزمة لم يعهدها في السابق إذ إنها جمعت بين التضخم والكساد، وقد أطلق عليها يومها اسم «الركود التضخمي» (Stagflation).

مرة أخرى شكل وضع الاقتصاد الأمريكي تحدياً في المجال السياسي وفي المجال الفكري والأكاديمي. فعلى الصعيد السياسي، وجدت حكومة الولايات المتحدة نفسها، ولأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية، وكل المجتمع متضرر من الوضع الاقتصادي، فالتضخم كان يعمل على تخفيض أرباح الطبقة الرأسمالية والركود كان يعمل على تقليص حجم توظيف الطبقة العاملة.

أما على الصعيد الفكري والأكاديمي، فقد كان التحدي كبيراً. إذ وجد المفكرون الاقتصاديون أنفسهم يعيشون في وضع مماثل لما كان عليه الوضع في مطلع الثلاثينيات: بدون نظرية قادرة على تفسير ما يحدث في واقع الاقتصاد. فالنظرية الكينزية، كما رأينا في السابق، قادرة على تفسير أسباب حدوث مشكلة البطالة أو أسباب حدوث مشكلة التضخم، ولكنها لا تملك تفسيراً لحدوث المشكلتين في وقت واحد، كما هو عليه الوضع في مشكلة الركود التضخمي.

كان أول من تقدم بنظرية تفسر ظاهرة الكساد التضخمي هو أستاذ جامعة شيكاغو ملتون فريدمان (١٩١٢-٢٠٠٦) وهو من المفكرين الاقتصاديين الأمريكيين القلائل الذين لم يقتنعوا بالنظرية الكينزية وقد تمكن في مدة قصيرة نسبياً، ومع بعض الأساتذة الآخرين في جامعة شيكاغو، وبعض الجامعات الأخرى، من الترويج لنظرية جديدة أصبحت تعرف باسم «مدرسة شيكاغو» أو «المدرسة النقدية» (Monetarism). وهي تتعارض بشكل كلي مع النظرية الكينزية، وإذا كانت الأخيرة قد شكلت ثورة حقيقية في الفكر الاقتصادي في أواخر الثلاثينيات ومطلع الأربعينيات فإن الثانية شكلت «الثورة المضادة» في مطلع السبعينيات. وفق الوصف الذي أطلقه عليها أستاذ مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية هاري جونسون.

ترتكز نظرية الثورة المضادة على مقولتين. الأولى هي مقولة «البطالة الطبيعية» والتي تعني أن الأسعار تكون ثابتة عندما تكون نسبة البطالة هي النسبة الطبيعية التي تحددها الأوضاع العامة للاقتصاد، والتي تشمل بشكل رئيسي مستوى تقنية الإنتاج والوضع المؤسسي للمنشآت الاقتصادية ونقابات العمال، وبدون أي تدخل من الدولة. أما المقولة الثانية فتؤكد أن أي تدخل من الدولة، عبر أدواتها المالية أو النقدية، لتخفيض نسبة البطالة الطبيعية فإنه ينجح في الأمد القصير في تخفيض مستوى البطالة ويكون ثمن ذلك بعض التضخم، ولكنه على الأمد البعيد يقود إلى التضخم المتسرع دون أي تخفيض في نسبة البطالة. وهكذا وجدت مدرسة شيكاغو أن سبب الركود التضخمي هو تدخل الدولة في الاقتصاد.

وبعد ذلك راجت في الأوساط الأكاديمية الأمريكية نظريات أخرى تتفق مع مدرسة شيكاغو في إظهار ضرر تدخل الدولة في الاقتصاد وضرورة ترك النشاط الاقتصادي بصورة كلية لقوى العرض والطلب في السوق الحر.

أشاعت تلك النظريات جواً فكرياً عاماً يضع مسئولية مشكلة الركود التضخمي على عاتق الدولة، ويرى أن التخلص من المشكلة لا يكون إلا إذا رفعت الدولة يدها وتوقفت نهائياً عن التدخل في النشاط الاقتصادي. وأن السوق الحرة إذا أعطيت الفرصة فإنها قادرة على تحقيق النمو والتشغيل الكامل لليد العاملة مع ثبات دائم للأسعار. وفي هذا الجو نشأ تحالف يميني كبير بقيادة الحزب الجمهوري أوصل رونالد ريغان إلى البيت الأبيض عام ١٩٨٠، وأبقى الجمهوريين بالحكم ١٢ سنة توطدت فيها أيديولوجية «الليبرالية الجديدة».

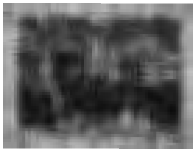
تتلخص فلسفة الليبرالية الجديدة في أن نظام السوق الحرة هو أفضل نظام اقتصادي يحقق الكفاءة في الإنتاج، والعدالة في توزيع الدخل، وأنه عندما لا يكون الحل الذي تقدمه السوق لمعالجة بعض المشاكل هو الحل الأمثل، فإن من الأفضل الأخذ بذلك الحل لأن أي حل آخر خارج السوق سيكون أسوأ.

يجب التأكيد هنا أنه من الخطأ الاعتقاد بأن ظهور فلسفة «الليبرالية الجديدة» كان فقط تعبيراً أيديولوجياً عن مصالح التحالف اليميني الجديد، ولم يكن له أساس موضوعي في تطور الاقتصاد الأمريكي. وهذا يقودنا مباشرة إلى البعد الثالث في أزمة أسواق المال، وهو البعد المتعلق بعلاقة الأزمة بالتطور الحاصل في بنية الرأسمالية الأمريكية.

في واقع الأمر كان ظهور فلسفة «الليبرالية الجديدة» في منتصف السبعينيات من القرن الماضي، تعبيراً موضوعياً عن تطور في قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج في الرأسمالية الأمريكية. قاد إلى وقف اتجاه «تقليص أهمية السوق» الذي كان سائداً منذ أواخر القرن التاسع عشر. وعلى تكريس اتجاه معاكس يعمل على تعزيز دور «السوق» في النشاط الاقتصادي.

من المعروف أن تقنيات الإنتاج الرأسمالي منذ أواخر القرن التاسع عشر كانت تتطور على طريق تكريس اقتصاد «وفورات الحجم»، أي تقليص كلفة الإنتاج كلما ازداد حجم الإنتاج. وكان ذلك يقود، بشكل طبيعي، إلى نشوء الشركات الكبيرة التي تلتهم الشركات الصغيرة مما يقود إلى تقليص فعالية آلية السوق في تحديد الأسعار والأرباح والأجور. ولكن الذي حصل منذ أواخر الستينيات في القرن الماضي، أن التطور التكنولوجي بدأ يأخذ منحى جديداً مخالفاً لمنحى «وفورات الحجم»، فالتقنيات الجديدة

كان ظهور فلسفة «الليبرالية الجديدة» في منتصف السبعينيات من القرن الماضي، تعبيراً موضوعياً عن تطور في قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج في الرأسمالية الأمريكية



التي أدت إلى تخفيض كبير في تكلفة المواصلات والاتصالات عززت بشكل تدريجي من مكانة الشركات ذات الحجوم الصغيرة، وبالتالي عززت العملية التنافسية ودور السوق. كما أن الشركات الكبيرة أخذت في تقليص حجمها عن طريق التخلص من بعض أقسامها والقيام بشراء المنتجات أو الخدمات التي تقدمها تلك الأقسام من شركات أخرى متخصصة. وأصبحت هذه العملية تعرف باسم «Outsourcing». كل ذلك أدى إلى تقليص حصة الشركات الكبرى من الإنتاج ومن العمالة. وفي هذا المجال يجب التأكيد على أنه ليس صحيحاً أن الشركات العملاقة هي فقط التي تقود حركة العولمة، إذ إن هناك شركات متوسطة الحجم وأخرى صغيرة الحجم ولها دور كبير في تزايد حجم التجارة العالمية وخصوصاً بعد أن فتحت التكنولوجيا الحديثة (الإنترنت) الباب أمام تجارة الخدمات القانونية والصحية والمالية والمحاسبية عبر الحدود. ولهذا، فإننا نجد أن معدل نمو أكبر خمسين شركة من الشركات متعددة الجنسية في عقدي الثمانينيات والتسعينيات كان أقل من معدل نمو الاقتصاد العالمي.

تمثل أيديولوجية «الليبرالية الجديدة» في أحد جوانبها تعبيراً موضوعياً عن هذا التطور الذي حصل في بنية الرأسمالية الأمريكية.

ولكن أيديولوجية «الليبرالية الجديدة» كان لها جوانب أخرى. فلقد تطور التحالف السياسي الذي حمل لواءها ليشمل ثلاثة تيارات. ففي مجال الاقتصاد كان هناك تيار اليمين المحافظ الذي كان يريد أن يحطم كل قوانين وتشريعات وأنظمة فترة «العهد الجديد» ويطمح بإعادة الرأسمالية الأمريكية إلى «وضعها النقي» الذي كانت عليه قبل أن تعكر صفاءها مشاريع الأجهزة البيروقراطية. وبكلمة مختصرة كان ذلك التيار يطمح أن يعود إلى «نظام ١٨٩٦». وفي السياسة الخارجية كان هناك تيار «المحافظين الجدد» الذين كانوا يعملون على إعادة صياغة العالم وفق نظام جديد يكرس الهيمنة الأمريكية على العالم بحيث تبقى الولايات المتحدة قادرة على الدفاع عن ذلك النظام إلى الأبد. وفي القضايا الاجتماعية كان هناك تيار اليمين المسيحي الذي كان يطمح إلى سن قوانين وتشريعات جديدة تضمن بقاء المجتمع الأمريكي كمجتمع مسيحي لا يسمح بالممارسات الفردية التي تهدد تماسك الأسرة وتضعف من سيطرة الكنيسة. وكان التياران الأخيران على حلف متين مع الحركة الصهيونية وإسرائيل. وقد تمكن هذا التحالف بمدة بسيطة من بسط سيطرته على المؤسسات الدولية، فأصبح البنك الدولي يتصرف كذراع اقتصادية للبيت الأبيض. كما أصبح صندوق النقد الدولي يعمل كذراع مالية لوزارة الخزانة الأمريكية. وفي نفس الوقت أشاعت أيديولوجية هذا التحالف جواً فكرياً ديماغوجياً على امتداد العالم كان له ممثلون وأبواق إعلامية في العالم الثالث ذكر بالجو الفكري الذي كرسه النهج الستاليني في أيديولوجية الماركسية-اللينينية.

وقد تمكن تحالف هذه التيارات الثلاثة من إحداث تغيير شامل في الوضع الداخلي للولايات المتحدة وفي مجمل الأوضاع العالمية ومن أهم هذه التغييرات:

● إلغاء الضوابط التي تنظم نشاط سوق المال

قامت إدارة الرئيس ريغان بسن قوانين ألغت فيها كثيراً من الضوابط التي كانت تنظم عمل الأسواق وكان بعض تلك القوانين مفيدا ويعمل على تشجيع التنافس والكفاءة. ولكن أخطر ما جاء في تلك القوانين هو تلك التي رفعت كل القيود التي كانت تنظم نشاط المؤسسات المالية (Deregulation)، وعلى الفور أخذت تلك المؤسسات في إصدار أدوات مالية جديدة تم وصفها بأنها مبتكرة وتعمل على رفع كفاءة الأسواق المالية. ومع الأيام اتضح أنها قادت تلك الأسواق إلى القيام بدور هو تماماً عكس الدور المفروض أن تقوم به.. فبدل أن تكون تلك الأسواق المكان الذي تنتقل فيها الأموال من الدائنين إلى المقترضين بشكل يخفض من حجم المخاطر ودرجة عدم اليقين، أصبحت في ظل نظام الليبرالية الجديدة المكان الذي يعمل على رفع درجة مخاطر الادخار والاستثمار. وعلى سبيل المثال، كانت الأسواق المالية في الماضي تقوم بمهمة تحويل الادخار إلى استثمار عن طريق بيع سندات وأسهم الشركات، وكانت هناك قيود تضعها الدولة حتى يشعر حامل السند بشيء من الطمأنينة بالنسبة لمستقبل السند. أما بعد «تحرير» أسواق المال فقد أخذ الكثير من الشركات تصدر ما أصبح يعرف باسم سندات الرمة (Junk bonds) وهي سندات تدفع لحاملها سعر فائدة يكون عادة ثلاث أو أربع نقاط مئوية أعلى من سعر الفائدة التي تدفعها السندات العادية، وتحمل في ذلك درجة عالية من مخاطر الإفلاس. ومن ناحية أخرى، كانت أسواق المال في الماضي تقوم بعملية تمويل شراء بيوت السكن عن طريق إصدار ما يعرف بالرهن العقاري (Mortgage) أي أن يقوم البنك بإقراض المشتري ثمن البيت ويتم تسديد ذلك القرض، مع الفائدة، على أقساط شهرية خلال مدة محددة. وكان هنالك ضوابط تنظم تلك العملية بشكل يقلص من مخاطر تعثر سداد القرض. أما بعد «تحرير» الأسواق فقد بدأ عدد كبير من المؤسسات المالية بإصدار ما أصبح يعرف باسم «الرهن العقاري تحت المستوى» (Sub-prime mortgage) وهي عقود رهن عقارية تباع بدون أي تدقيق في حالة المشتري المالية وقدرته على الالتزام بما يفرضه العقد الذي وقعه. وهذا يقود بالضرورة إلى تزايد الطلب على شراء البيوت ورفع أسعارها لحدود عالية لا تتناسب مع قيمتها الحقيقية وبعد ذلك تقوم الشركة التي أصدرت الرهن ببيعه لمؤسسة ثانية تقوم بدورها ببيعه لمؤسسة ثالثة وهكذا. وكل ذلك يعمل على رفع أسعار البيوت ودخول السوق العقارية في الظاهرة التي تعرف باسم «الفقاعة» وذلك يعني زيادة درجة المخاطر إلى حدود خطيرة.

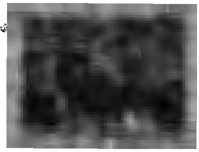
● خصخصة المرافق العامة وتحويل السلع العامة إلى سلع خاصة منذ بداية الثمانينيات في القرن الماضي والإدارات الأمريكية المتتابعة تقوم بتحويل كثير من المرافق التي يشرف عليها القطاع العام إلى القطاع الخاص. وقد طالت عملية الخصخصة تلك مرافق حيوية تخص الأمن في المرافئ والمطارات وبعض الأمور الأخرى ذات الطابع العسكري. ومن ناحية أخرى فإن أقوى وأغنى دولة في العالم ما زالت بدون نظام للتأمين الصحي على المستوى القومي. فهنالك عشرات الملايين من الأمريكيين بدون أي تأمين صحي، والجزء الأعظم منهم يعيش تحت خط الفقر. كما عملت الحكومة الأمريكية آنذاك على خصخصة الاكتشافات العلمية الجديدة، فمنذ توالت اكتشافات تكنولوجيا المعرفة الحديثة والحكومة الأمريكية تبذل جهوداً هائلة داخل الولايات المتحدة وخارجها من أجل تكريس قوانين وإبرام معاهدات تكرس فيها الحق الفردي للملكية الفكرية. في المقابل عارضت الإدارة الأمريكية في حينه توقيع معاهدات دولية لمقاومة الأخطار التي تهدد البيئة كالاحتباس الحراري والتصحر وتغير المناخ.

إن تصرف الولايات المتحدة الرسمي تجاه الاكتشافات الحديثة في تكنولوجيا المعرفة، والمعارك المستمرة التي تخوضها سواء في المحاكم الأمريكية أو في المحافل الدولية من أجل خصخصة تلك الاكتشافات وعدم السماح لها أن تكون سلعاً عامة يذكر بقول كارل ماركس «بأن اختراع طواحين الهواء قاد إلى نشوب نزاع بين الإمبراطور والنبلاء والقساوسة حول من له منهم حق ملكية الرياح».

● تبني العقيدة العسكرية لحروب الصدمة والرعب الاستباقية

عكست سياسة تقليص القطاع العام نفسها على الجيش الأمريكي فتم تخفيض عدد قوات الجيش على أساس أن التقدم

تمثل أيديولوجية «الليبرالية الجديدة» في أحد جوانبها تعبيراً موضوعياً عن هذا التطور الذي حصل في بنية الرأسمالية الأمريكية



التكنولوجي الهائل الذي تتمتع به القوات الأمريكية يجعلها قادرة على خوض الحروب والانتصار فيها بدون الحاجة إلى أعداد كبيرة من الجنود. وتماشياً مع هذا المنطلق تبنت جامعة الدفاع الوطنية عام ١٩٩٦ العقيدة العسكرية لحروب «الصدمة والرعب» التي تقضي ببدء الحرب بعنف هائل يؤدي إلى تحطيم إرادة القتال عند العدو بعد يومين أو ثلاثة من بدء الحرب[٣].

وقد تبنت إدارة الرئيس بوش الابن هذه العقيدة في حرب أفغانستان والعراق ولكن بدون أن يكون عند تلك الإدارة أي فكرة عن الذي سيحدث بعد أن يتم تحطيم إرادة جيش العدو، وهل يعني ذلك أيضا تحطيم إرادة الشعب الذي فقد جيشه؟ أم أن ذلك سيحرك مقاومة شعبية لا يجدي معها أسلوب «الصدمة والرعب»؟. والأهم من ذلك أن إدارة الرئيس بوش تقوم بتمويل تلك الحروب عن طريق الاقتراض من أسواق المال العالمية، تماماً كما قامت إدارة الرئيس جونسون في الستينيات بتمويل حرب الفيتنام.

تضافرت هذه العوامل الثلاثة (رفع القيود عن أسواق المال، خصخصة المرافق العامة، ومغامرات حروب الصدمة والرعب) في إحداث تغيير شامل في بنية الاقتصاد السياسي للمجتمع الأمريكي. وقد نتج عن هذا التغيير اتساع كبير في الفجوة بين الفقراء والأغنياء بشكل هدد مكانة الطبقة الوسطى، فقد زادت الحصة من الدخل لأغنى ٥٪ من السكان ما بين سنة ١٩٨٠ و٢٠٠٠ من ١٥.٨٪ إلى ٢١.٥٪. كما نتج عنه انتشار واسع في عمليات المغامرات المالية في الداخل والمغامرات العسكرية في الخارج. وإذا راجعنا بشكل سريع تطور الأوضاع الاقتصادية طوال مرحلة «الليبرالية الجديدة» فإننا نلاحظ أن المرحلة برمتها كانت فترة أزمات متتالية تماماً كما كانت عليه مرحلة «نظام ١٨٩٦».

في نهاية الثمانينيات شهد الاقتصاد الأمريكي أزمة بيوت الادخار والإقراض (Savings and loans crisis) حيث أعلن ٧٤٧ بيتاً من تلك البيوت إفلاسها ونتج عن ذلك خسارة المدخرين مائة وستين مليار دولار وتكلفت الحكومة الأمريكية مبلغ ١٢٤ مليارا لتعويض تلك الخسارة. وكان سبب تلك الأزمة الرئيسي هو رفع القيود عن الأسواق المالية الذي أعطى صناديق الادخار والإقراض حرية العمل وكأنها بنوك تجارية دون أن تكون موضوعة تحت نظام الرقابة والإشراف التي تخضع لها البنوك. ونتج عن ذلك قيام تلك الصناديق باستثمارات خطرة جداً وذلك في أجواء حمى الاستثمارات العقارية التي كانت منتشرة تلك الأيام.

بدأ عقد التسعينيات بركود اقتصادي انتهى مع حرب عاصفة الصحراء التي كانت من الحروب المفيدة للاقتصاد الأمريكي، حيث قامت دول الخليج العربية بدفع كامل تكاليفها وفق التقدير الأمريكي. ثم استعاد الديمقراطيون البيت الأبيض في فترة إدارة الرئيس كلينتون التي حاولت أن تعيد نوعاً من الاستقرار للوضع المالي الأمريكي فقامت بتخفيض الميزانية العسكرية حتى تمكنت من القضاء على العجز في ميزانية الحكومة الاتحادية، وبالتالي تقلص حجم الاقتراض الأمريكي من الخارج وبسبب ذلك تمكنت الإدارة الأمريكية من القيام بدور قيادي في معالجة الأزمات النقدية التي اجتاحت أوروبا (١٩٩٢-١٩٩٣) وأمريكا اللاتينية في (١٩٩٤-١٩٩٥)، وشرق آسيا في (١٩٩٧-١٩٩٩). بل وعملت الإدارة الأمريكية على تجيير تلك الأزمات لمصلحة الرأسمالية الأمريكية. وانتهى القرن بأزمة صناعة التقنية العالية فيما عرف بأزمة «دوت كوم» (Dot com crisis). حيث انهارت أسهم شركات التقنية العالية التي كانت قد ارتفعت لحدود ليس لها علاقة بالواقع الاقتصادي للشركات التي أصدرتها. وبسبب ذلك بدأ القرن الجديد بعام من الركود الاقتصادي. تبعه تولي إدارة الرئيس جورج بوش الابن الحكم، ثم الهجوم الانتحاري على نيويورك وواشنطن في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وإعلان الولايات المتحدة حربها على «الإرهاب».

بكل بساطة، وبدون أي مبالغة، خاضت حكومة الولايات المتحدة الحرب على

بدأ عقد التسعينيات بركود اقتصادي انتهى مع حرب عاصفة الصحراء التي كانت من الحروب المفيدة للاقتصاد الأمريكي

الإرهاب في السنوات السبع الماضية بنفس الأسلوب الذي اتبعته صناديق المال الأمريكية بعد أن «تحررت» من القيود التي كانت تنظم نشاطها قبل مجيء إدارة ريجان إلى الحكم. فقد تصرف تلك الصناديق على أساس أنها هي المرجع المالي الوحيد في العالم ويكفي أن تضع توقيعها على أي ورقة حتى تتحول تلك الورقة إلى ثروة. وكذلك تصرفت إدارة الرئيس بوش الابن على أساس أن الولايات المتحدة هي القوة الوحيدة في العالم المسئولة عن قضايا الحرب والسلام وهي القوة الوحيدة التي لها الحق في تصنيف القوى الأخرى في العالم بين ديمقراطية وديكتاتورية، وبين قوى الخير وقوى الشر. وكما أن صناديق المال أخذت في إصدار «سندات الرمة» و«رهون تحت المستوى» التي تعتمد على أموال الآخرين وليس أموالها كذلك أخذت إدارة الرئيس بوش خوض الحروب (أفغانستان والعراق) بتمويل يعتمد على الاقتراض من الخارج وليس من دافع الضرائب الأمريكي. فبينما انتهت إدارة الرئيس كلينتون عام ٢٠٠٠ وفي الخزينة الأمريكية فائض يقدر بمبلغ ٢٤٦ مليار دولار عانت الخزينة بعد سنة واحدة من غزو العراق من عجز بلغ ٦٥٦ مليار دولار.

في السنوات السبع الماضية. تصرفت الرأسمالية المالية الأمريكية والإدارة السياسية الأمريكية على أساس أنهما يعيشان في عالم ليس فيه يوم للحساب.

ولقد جاء يوم الحساب للرأسمالية الأمريكية عندما بلغ عدد بيوت السكن التي يزيد قيمة رهنها العقاري عن قيمتها الحقيقية في السوق خمسين مليون بيت وهذا يعني أن أصحاب تلك البيوت يملكون ثروة سالبة (Negative equity) ويترتب على هذا الوضع أمران. الأول هو أنه عندما يعجز صاحب البيت عن سداد الأقساط الشهرية فإنه يخسر البيت ويظل مديناً للبنك، والثاني أنه عندما يقوم البنك ببيع البيت من جديد فإنه يبيعه بخسارة، وتراكم هذه الخسائر قاد لعمليات الإفلاس. ومن الطبيعي أن إفلاس أي مؤسسة مالية يؤثر سلباً على المؤسسات المالية الأخرى بحكم ارتباطات المؤسسات ببعضها. ومن الطبيعي أيضاً ألا يتوقف الضرر عند المؤسسات المالية بل يتعداه لكل المؤسسات الاقتصادية، فعندما يتضرر أحد البنوك فإن أول ما يفعله هو استدعاء ديونه من المؤسسات المدينة له وهذا يقود على الفور لتقليص حجم الاستثمار والإنتاج والتوظيف في تلك المؤسسات مما يقود إلى مشكلة الركود الاقتصادي. وفي هذا السياق نفهم معنى الخطة التي تبنتها إدارة الرئيس بوش في اعتماد مبلغ ٧٠٠ مليار دولار لشراء الأسهم الفاسدة في المؤسسات المالية. فالخطة تهدف إلى وقف إفلاس المؤسسات المالية حتى لا يقود ذلك إلى إفلاس المؤسسات الإنتاجية. ومن الممكن أن تنجح الخطة، وعلى الأغلب أنها ستنجح في إيقاف مسلسل الإفلاس، ولكن إلى متى؟

لنتذكر أولاً أن الحكومة الاتحادية تعاني من العجز في الميزانية وهي غير قادرة على الاقتراض من المال الأمريكي وذلك لأن المواطن الأمريكي هو أيضا يعاني من عجز في ميزانيته (ففي المتوسط ينفق المواطن الأمريكي أكثر من دخله) وهذا يعني أنها ستقوم باستدانة ٧٠٠ مليار دولار من العالم الخارجي.

لنفترض أن الخطة نجحت في وقف التدهور بضعة شهور ثم عادت الأزمة من جديد وظهرت الحاجة إلى ٧٠٠ مليار دولار أخرى، فهل سيقوم العالم بإقراض ذلك المبلغ أيضا؟

لنفترض كذلك أن الإدارة الأمريكية رأت أن اكتمال الديمقراطية في الشرق الأوسط الجديد تتطلب شن حرب على إيران. فهل سيقوم العالم بإقراض الولايات المتحدة تكلفة الحرب الجديدة؟

لوضع هذه الأسئلة في السياق الواقعي يجب ملاحظة النقاط الثلاث التالية:

- اقتراض الولايات المتحدة من العالم هو في معظمه اقتراض من العالم الثالث. وفي معظمه من الصين وبلدان الخليج.
- تقوم دول العالم الثالث بإقراض

الولايات المتحدة عن طريق شراء سندات الخزانة الأمريكية لأنها تملك فائضاً مالياً حيث إن مجمل ما تدخره هذه الدول في السنة يزيد على مجمل استثماراتها. وقد زاد معدل الادخار السنوي في العالم الثالث من ٢٤٪ من الدخل القومي في عام ١٩٩٩ إلى ٣٣٪ في عام ٢٠٠٦. وبالتالي زادت نسبة الفائض المالي لأن معدلات الاستثمار لم تتزايد بنفس نسبة الزيادة في معدلات الادخار.

● سيأتي الوقت الذي ينضب فيه الفائض المالي في العالم الثالث وذلك من جراء تراكم الخسائر التي تصيب مدخراته في الأسواق مع تكرار الأزمات المالية.

وهكذا يتضح لنا أن خطة الرئيس بوش في اقتراض ٧٠٠ مليار دولار من أجل شراء أصول المؤسسات المالية لمنعها من الانهيار هو علاج مؤقت قد ينجح لفترة مؤقتة في وقف الانهيار كما نجحت خطة إنقاذ بيوت الادخار والقروض في التسعينيات، ولكنها ليست الخطة التي تعالج أسباب الأزمة الحقيقية التي هي المغامرات المالية في الداخل والمغامرات الحربية في الخارج.

[٤]

لقد رأينا أن التوجه السياسي للحكومة الاتحادية في الولايات المتحدة الأمريكية قد مر بثلاث مراحل في القرن العشرين. مرحلة «نظام ١٨٦٩» ومرحلة «العهد الجديد» ومرحلة «الليبرالية الجديدة» وأن كل مرحلة من المراحل الثلاث قد انتهى بأزمة اقتصادية، كانت في جوهرها أزمة في النظام المالي.

● انتهت مرحلة «نظام ١٨٩٦» بالركود الاقتصادي الكبير الذي ابتدأ بانهيار السوق المالي عام ١٩٢٩ بسبب عدم وجود قواعد وضوابط تنظم عمل السوق.

● انتهت مرحلة «العهد الجديد» بمشكلة الركود التضخمي التي ابتدأت بإقدام الولايات المتحدة على شن الحروب الإمبريالية وتمويلها من أموال العالم الخارجي وليس من أموال دافع الضريبة الأمريكي.

● انتهت مرحلة «الليبرالية الجديدة» بمشكلة انهيار النظام المصرفي الأمريكي التي هي في واقع الأمر مشكلة جمعت بين مشاكل المرحلتين السابقتين أي عدم وجود ضوابط تنظم عمل سوق المال وبنفس الوقت القيام بشن حروب إمبريالية يتم تمويلها من الخارج.

وهنا تبرز الأسئلة المحورية حول طبيعة المرحلة القادمة التي ستبدأ مع الانتخابات الرئاسية في ٤ نوفمبر ٢٠٠٨.

● هل سيفوز الحزب الديمقراطي في الانتخابات، وإذا فاز فهل سيتمكن باراك أوباما من قيادة تغيير جذري في توجه الحكومة الاتحادية ينهي عهد المغامرات المالية والإمبريالية وتتخلى الولايات المتحدة عن التشبث بعالم وحيد القطب الذي لم يعد ممكناً؟

● هل سيكون أوباما قادراً على صياغة رؤية جديدة تجمع شجاعة وليم جينكز براين وبعد نظر فرانكلين روزفلت؟ أم أنه سيكون مجرد وليم كلينتون آخر يقوم بإصلاحات جزئية محدودة تؤجل يوم الحساب إلى يوم آخر؟

الأزمة كبيرة وصعبة وعلى اتساع العالم، ومن الممكن أن تجر العالم لكارثة كبرى قبل أن يعثر الشعب الأمريكي على قائد قادر على الارتقاء إلى مستوى المسئولية. ❊

هـــــــوامـــــــش

(١) هناك إشكالية في تعبير «الليبرالية الجديدة» إذ إنها تعني تحديثاً في «الليبرالية القديمة» وهذا غير صحيح فهي لا تمت بأي صلة لمفهوم الليبرالية القديمة أو الليبرالية الكلاسيكية التي كان سائدة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وسنرى ذلك بوضوح فيما بعد.

(٢) هنالك طبعاً طريقة أخرى وهي إقدام البنك المركزي على تخفيض حجم النقد على أساس أن ذلك يقود إلى ارتفاع سعر الفائدة الذي يقود إلى تخفيض الطلب الاستثماري، وبالتالي حجم الطلب العام. ولكن كينز لم يضع ثقة كبيرة في هذه الطريقة لأنها غير مباشرة.

(٣) بعد روزفلت تم تعديل الدستور الأمريكي وأصبح لا يسمح للرئيس بدخول الانتخابات أكثر من مرتين متتاليتين.

(٤) لم تكن هذه الملاحظة نظرية، فكينز كان له تجربة كبيرة مع أسواق المال، ومن المعروف عنه أنه كان يخصص وقتاً معيناً كل صباح لدراسة السوق وتقرير ما يشتريه ويبيعه من الأسهم والسندات ذلك اليوم ويقال أنه ربح خلال حياته من ذلك النشاط الاستثماري في السوق ما يقدر بمليوني جنيه إسترليني.

(٥) أنظر كتاب هيكل «الإمبراطورية الأمريكية: الإغارة على العراق» دار الشروق (٢٠٠٣).

(٦) من أشهر تلك النظريات النظرية المعروفة باسم «التوقعات العقلانية» (Rational expectation) ونظرية «جانب العرض» (Supply side) ونظرية «دورة التجارة الحقيقية» (Real business cycle)

(٧) تعود مقولة الصدمة والرعب، التي تعرف من ناحية تقنية بأنها السيطرة أو الهيمنة السريعة على قوى العدو، إلى هارلان أولمان وجيمس ويد وكانا يعملان في جامعة الدفاع الوطنية في منتصف التسعينيات.

كتاب الزاوية

قصائد من المغرب العربي

(١)

يقولون: «صوت المستذلين خافت»

يقولون: أصوت المستذلين خافت
وسمع طغاة الأرض «أطرش» أضخم
وفي صيحة الشعب المسخر زعزع
تخر لها شم العروش، وتهدم
ولعلة الحق الغضوب لها صدى
ودمدمة الحرب الضروس لها فم
إذا التف حول الحق قوم فإنه
يصرم أحداث الزمان ويبرم
لك الويل يا صرح المظالم من غد
إذا نهض المستضعفون، وصمموا!!
إذا حطم المستعبدون قيودهم
وصبوا حميم السخط أيان تعلم..!
أغرك أن الشعب مغض على قذى
وأن الفضاء الرحب وسنان مظلم؟
ألا إن أحلام البلاد دفينة
تجمجم في أعماقها ما تجمجم
ولكن سيأتي بعد لأي نشورها
وينبثق اليوم الذي يترنم
هو الحق يغفى.. ثم ينهض ساخطاً
فيهدم ما شاد الظلام، ويحطم
غداً الروع، إن هب الضعيف
بيأسه، ستعلم من منا سيجرفه الدم
إلى حيث تجني كفه بذر أمسه
ومزدرع الأوجاع لا بد يندم
ستجرع أوصاب الحياة، وتنثني
فتصغي إلى الحق الذي يتكلم
إذا ما سقاك الدهر من كأسه التي
قرارتها صاب مرير، وعلقم
إذا صعق الجبار تحت قيوده
يصيخ لأوجاع الحياة ويفهم!!

أبو القاسم الشابي
تونس

جورج سوروس

جون كاسيدى

ظل جورج سوروس مستثمراً نشطاً لأكثر من نصف قرن. وفى منتصف الثمانينيات، عندما بدأت الكتابة حول وول ستريت، كان سوروس بالفعل من كبار مديرى المحافظ الوقائية. وفى تلك الأثناء، لم يكن هناك كثيرون يفهمون معنى المحافظ الوقائية. لكن بالنسبة للمستثمرين الحاليين فى صندوق سوروس الاستثماري، الذى أنشأه فى ١٩٧٣، كان هذا الصندوق هو النموذج الأمثل للمحافظ الوقائية: فخلال عام بعد عام، حقق عوائد زائدة عن تلك المحققة فى السوق الأوسع. وبعد النجاح فى مقاومة الانهيار فى سوق الأوراق المالية عام ١٩٨٧، استطاع صندوق سوروس الاستثماري، الذى يديره ستانلى دروكنميللر بشكل يومى منذ عام ١٩٨٩، تحقيق مزيد من الأرباح الكبيرة، والتى بلغت ذروتها فى المضاربات الضخمة ضد الاسترلينى فى ١٩٩٢، والتى حققت أكثر من مليار دولار. (لم يعلن أبداً سوروس المكسب، لكن الصحف البريطانية ذكرت أنه ١.١ مليار دولار).

ومنذ ذلك الحين، قضى سوروس المزيد من وقته فى أنشطة إنسانية فى مناطق مختلفة من العالم، بما فى ذلك عديد من الجهود المخلصة لتعزيز انتشار الديمقراطية فى منطقة شرق أوروبا التى ينتمى إليها (فقد ولد فى بودابست عام ١٩٣٠). وبعد عام ٢٠٠١، انخرط سوروس فى السياسات الداخلية الأمريكية، وكان ناقداً صريحاً لإدارة بوش. وفى الإعداد لانتخابات ٢٠٠٤، منح مبالغ ضخمة لمنظمة MoveOn.org ، وهى منظمة إنترنت ليبرالية. ومؤخراً، ساهم وعائلته فى تمويل الحملة الانتخابية لمرشح الرئاسة باراك أوباما.

غير أن سوروس يظل مضاربا فى المقام الأول. ففى عام ٢٠٠٧، بعد ظهور أزمة الرهون العقارية، عاد لإدارة صندوق سوروس الاستثمارى وهو فى السابعة والسبعين من عمره. وأشارت نتائج هذه الدراسة إلى أنه لم يفقد لمسته الخاصة فى إدارة الأموال. وتقدر مجلة ألفا Alpha التى تغطى المحافظ الوقائية، أنه حقق ٢.٩ مليار دولار فى ٢٠٠٧، وهو ما وضعه فى المرتبة الثانية فى قائمة كبار المضاربين، حيث لم يسبقه سوى جون بولسون صاحب جون بولسون Paulson & Co وشركاه، والذى حقق بدوره أرباحاً مدهشة بلغت ٣.٧ مليار دولار.

وفى بداية العام الحالي، كان سوروس يعتقد عن حق أن الأزمة المالية مازالت أبعد ما تكون عن النهاية. ومن ثم تبنى استراتيجية استثمارية فظة يمكن وصفها كالتالي: «أسهم أمريكية وأوروبية قصيرة المدى، سندات حكومية أمريكية مدتها عشر سنوات، بالدولار الأمريكي، وأسهم طويلة الأمد صينية وهندية وخليجية، وعملات غير الدولار». وفى البداية، لم تعط بعض من هذه الاستثمارات مردوداً. وبين يناير ومارس، انخفضت قيمة السندات الأمريكية وسقطت الأسهم الهندية، مما محا العوائد الأخرى التى حققتها الأجزاء الأخرى من المحافظة الاستثمارية لسوروس. ولا يعلم سوى المستثمرين فى صندوق سوروس الاستثمارى المبالغ التى تكبدها سوروس فى الأشهر الأولى من الاضطراب المالي، لكنه سيكون من البلاهة الرهان ضده.

قدرت مجلة فوربس مؤخراً صافى ما حققه سوروس بـ ٩ مليارات دولار. وبالرغم من النجاح العالمى الذى حققه سوروس، إلا أنه مازال لديه طموح غير مشبع: فهو يريد أن يأخذه الآخرون مأخذ الجد، ليس فقط كممارس مالى ولكن أيضاً كمنظر. فى عام ١٩٨٧، نشر سيمون وشوشتر Simon and Schuster كتابه الأول، سيمياء التمويل Alchemy of Finance والذى عرض خلاله نظريته عن الانعكاسية والتى تزعم أن حركات السوق الأساسية، مثل الارتفاع الأخير فى أسعار



السلع، يمكن أن تأخذ حياة مستقلة بذاتها، وتحاصر المستثمرين بالأوهام، وتحدث اضطراباً كبيراً فى النظام الاقتصادي.

وقد تمتع الكتاب بشعبية بين المستثمرين الآخرين. فيكتب بول تيودر جونز: «عندما أدخل حلبة الخسارة الحتمية التى تهوى بكل المستثمرين، التقط سيمياء التمويل وأعود إلى حملات سوروس». لكن عديداً من الاقتصاديين المحترفين، الذين يميلون إلى رسم صورة أكثر تفاؤلاً للأسواق المالية، يرفضون نظرية سوروس باعتبارها غير صالحة. وفى النيو ريبابليك New Republic ، شكك روبرت سولو، أحد كبار المتخصصين فى الاقتصاد الكلى فى القرن العشرين، فى أن سوروس عرف المعادلات الآنية : أى نظم المعادلات التى تتضمن أكثر من متغير تابع. (وبالنسبة لأولئك غير العالمين بعلم الاقتصاد، فإن هذا الاتهام يشبه اتهام نجار بعدم معرفة كيفية استخدام الإزميل).

وكما هى عادته، يملك سولو منطقاً. إن طريقة عرض سوروس لأفكاره كانت مشوشة نوعاً ما. لكن الأمر المريب يبقى أن تهمته الأساسية هى تحدى الاقتصاديين المحترفين فى مجال تخصصهم. واليوم هو يعيد الكرة، فى كتابه الأبسط والأقصر بعنوان المنهج الجديد للأسواق المالية The New Paradigm for Financial Markets ، غير أن نظريته الأثيرة ليس من السهل رفضها. ومنذ نشر كتابه سيمياء التمويل، شهد الاقتصاد العالمى سلاسل متفرقة من دورات الازدهار والإفلاس الطويلة والمتفرقة جغرافياً، كانت آخرها الأزمة التى تضرب الاقتصاد الأمريكى حالياً. غير أن مثل هذه الحلقات كان معترفاً بها من قبل اقتصاديى العصر الفيكتورى مثل جون ستيوارت ميل وألفريد مارشال، الذين يطلقون على هذه الدورات «دورات تداول»، فإن هذه الحلقات تتحدى المعتقدات الاقتصادية الحديثة، التى تصف الاقتصاد فى العموم، والأسواق المالية بشكل خاص، باعتبارها تتسم بالكفاءة والاستقرار ووجود الآليات التى تمكنها من تصحيح نفسها بنفسها.

فى منتصف سبتمبر، لم تظهر أزمة الائتمان أى علامة على التراجع، فقد كانت تصبح أكثر فأكثر قسوة. فقد أفلس أحد البنوك الكبرى فى وول ستريت هو ليمان براذرز Lehman Brothers. وتمكن بنك مشابه هو ميريل لينش Merrill Lynch من تجنب نفس المصير عبر الاندماج مع بنك تجارى كبير هو بنك أوف أمريكا Bank of America. ودخلت إيه آى جى AIG أكبر شركة تأمين فى أمريكا، فى مرحلة خطيرة إلى الحد الذى جعل دفع بنك الاحتياط الفيدرالى إلى إقراض الشركة ٨٥ مليار دولار، والاستحواذ على ٨٠٪ من ملكية الشركة، خوفاً من أن يؤدى انهيارها إلى انهيار عدد من المؤسسات المالية الأخرى. وأخيراً، ففى الوقت الذى كان يجرى فيه إنقاذ إيه آى جى AIG ، وكان الاقتصاد الأمريكى على حافة الانهيار التام، كشف وزير الخزانة هانك بولسون Hank Paulson عن خطة للحكومة الفيدرالية لشراء ما قيمته ٧٠٠ مليار دولار من أوراق الرهون المتعثرة.

وغنى عن القول أن هذه الأحداث لم يسبق لها مثيل فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، رغم أن دارسى الكساد العظيم، مثل بن بيرنانك رئيس فيد

قدرت مجلة فوربس مؤخرا صافى ما حققه سوروس بـ ٩ مليارات دولار

The New Paradigm for Financial Markets: The Credit Crisis of 2008 and What It Means
المنهج الجديد للأسواق المالية. أزمة الائتمان فى ٢٠٠٨ وما تعنيه
George Soros
Public Affairs, 162 pp.,$22.95

بترتيب خاص مع:
New York Review of Books

ترجمة: غادة طنطاوى

.. نهاية عصر

Fed زاوا أموراً متشابهة بشكل مخيف بين أحداث اليوم والكساد العظيم. ولكن بالرغم من كل ذلك، ظل الاقتصاديون الذين أصروا على التمسك بالمعتقدات الاقتصادية الحديثة حول الأسواق المالية، وأجبروا أجيالاً من طلبة الاقتصاد على تجرعها، صامتين بشكل لافت للنظر، فيما يتعلق بما هو موطن الخطأ في نظرياتهم.

وعلى أية حال، لا يملك سوروس كافة الإجابات، ولكنه لديه شيء ليقوله، وذلك على عكس بعض أساتذة الاقتصاد الذين رفضوه باعتباره شخصاً مثيراً للضيق. (يجب ملاحظة أنه في الأعوام الأخيرة، خلق بعض المنظرين المنضوين تحت راية "التمويل السلوكي" نماذج أكثر واقعية، يمكن أن تجعل الأسواق المالية تتخلى عن الأساسيات الاقتصادية، والمتعلقة بإمكانية أن تؤدي المضاربة إلى عدم الاستقرار وفترة دورات الازدهار والإفلاس على الاستمرار، غير أنه حتى وقت قريب جداً، مازالت هذه النظريات الجديدة لها تأثير محدود، أو ليس لها تأثير على وجه الإطلاق، على صناع القرار في المجال الاقتصادي)[٣].

تلعب الأسواق المالية دورين أساسيين في الاقتصاد: (١) تأخذ الأموال من أولئك الذين ليسوا في حاجة فورية إليها، مثل الأشخاص الذين يدخرون من أجل التقاعد أو الأغنياء بالوراثة، وتضع هذه الأموال في أيدي الشركات ومؤسسات الأعمال التي لديها أفكار استثمارية منتجة لكن ليست لديها سيولة نقدية كافية لتمويل هذه الأفكار (٢) تسمح للأفراد والمؤسسات بإشراك الذين يرغبون في تحمل الأخطار. إذا لم تكن توجد وول ستريت، كان لابد من إيجاد طريقة أخرى لتوزيع المدخرات والأخطار. إن أحد البدائل هي القسر، لكن تاريخ الاتحاد السوفيتي والدول الشيوعية الأخرى تشير إلى الصعوبات التي تكتنف القرارات المتعلقة بتبني نمط الاقتصاد المركزي.

إن الميزة الأساسية في نظام السوق هي أنه يأخذ المعلومات عبر الاقتصاد ككل، ويترجمها إلى إشارات عامة (أسعار) يمكن أن يتفاعل معها المستثمرون. وفي بداية هذا العام، يستيقظ المستثمرون على واقع أن ديترويت Detroit قد تجاهلت التهديد الخاص بتراجع أسهم النفط، وراهنت في مستقبلها على

لا يملك سوروس جميع الإجابات، ولكنه لديه شيء ليقوله



© Kerry Waghorn
www.Kerrywaghorn.com

سيارات الدفع الرباعي التي تستهلك الغاز بكثافة، انخفضت أسعار أسهم شركات السيارات الأمريكية، وهو ما جعل قدرتها على بيع حصص في مؤسساتها أكثر تكلفة، غير أن تويوتا وهوندا، اللتين استثمرتا بكثافة في أصغر السيارات وأقلها استهلاكاً للوقود، رأت أسهمها قادرة على الصمود بشكل أفضل، وهو ما مكنها من الحصول على تمويل رخيص. لم يخطط أحد لذلك، لكن في هذا المثال، قام السوق بمكافأة بعيدي النظر وذوي القدرة على الابتكار.

ولكي تستطيع الأسواق المالية أن توزع الموارد على أكثر الاستخدامات إنتاجية، وعلى أساس من قاعدة متينة، يجب أن تكون إشارات الأسعار التي ترسلها هي الإشارات الصحيحة يوماً بعد يوم. هل هذا هدف واقعي؟ إن مستثمراً طبيعياً قد يتبع تقاطعات داو Dow's gyrations عن طريق سي إن بي سي CNBC أو ياهو المالي Yahoo Finance أو يمكن إشواؤه بعدم الاستجابة لذلك، لكن هذا المستثمر لا يتمتع بالميزة التي يتمتع بها الحاصل على دكتوراة من جامعة شيكاغو.

تدين وجهة النظر الجديدة إزاء الأسواق بالكثير لثلاثة من اقتصاديي مدرسة شيكاغو، هم ميلتون فريدمان، وأوجين فاما وروبرت لوكاس. وبالرغم من أنه معروف بكتابه حول النظرية النقدية، وبحماسه في الإيمان بالرأسمالية، إلا أن فريدمان قد لعب في بداية حياته العملية دوراً رئيسياً في تطوير ما يسمى بفرضيات السوق الكفء، والتي قدمت إلى جانب رؤيته بشأن فرضيات التوقع العقلاني، لنظر أدناه، أساساً فكرياً لأكثر من عقدين من انخفاض التنظيم المالي. وإذا قمنا بصياغة المسألة بطريقة مختصرة، فإن فرضيات السوق الكفء تعتبر أن أسعار الأسهم والسندات والأصول الأخرى القابلة للمضاربة، تعكس بالضرورة كل ما نعرفه عن أسس الاقتصاد مثل التضخم والصادرات وربحية الشركات. ويمكن إثبات ذلك عبر وضع فرضية ذات وجهين. فبافتراض أن أسعار الأسهم تزايدت أعلى من المستويات المتناسبة مع أسس الاقتصاد، فإن المضاربين الماهرين، أمثال سوروس، سوف يهرعون لبيع أسهمهم، ومن ثم يحافظون على أسعارها وفقاً للمستويات المناسبة. وإذا هبطت الأسهم إلى مستويات أدنى من تلك

المتناسبة مع أسس الاقتصاد، فسوف يهرع المضاربون لشراء تلك الأسهم.

وفى واقع الأمر، فقد صاغ فريدمان فرضية الأسواق الكفء فى سياق تحليل العملات. وكان فاما، وهو أحد تلاميذ فريدمان، هو الذى طبقها على سوق الأوراق المالية وأشار إلى تتابع طريف: فإذا ما كانت أسعار الأسهم تعكس بالفعل كل ما هو معروف لدينا، فإنه لا يمكن للمستثمرين أن يأملوا فى التفوق على السوق عبر استخدام استراتيجيات للمعاملات ترتكز على معلومات متاحة للعامة. فبدلاً من أن يضيعوا وقتهم فى محاولة التقاط الأسهم الفردية، فيجب أن تتم نصيحتهم بأن يضعوا مدخراتهم فى صندوق مشترك ومنوع إلى حد كبير ويقوم بتتبع الحركة اليومية للسوق. والشكر الجزيل لفاما وتابعيه، فقد أصبحت ما تسمى صناديق المؤشرات تلعب دورا مركزياً فى عديد من خطط التقاعد لدى الأمريكيين.

ويقال أن لوكاس، العضو الثالث فى ثالوث شيكاغو، كان أكثر تأثيراً حتى من فريدمان. ففى سلسلة من الأوراق الذكية التى نشرت فى الستينيات والسبعينيات، قام لوكاس وعديد من زملائه بتوسيع نطاق المنهج المفرط فى العقلانية الذى يمثل أساس فرضية الأسواق الكفء لتشمل أجزاء أخرى فى الاقتصاد، مثل سوق الوظائف، ونتاج قرارات الشركات، ورسم السياسة الاقتصادية. وحينما انتهى لوكاس وزملاؤه من ذلك، كانوا قد اخترعوا طريقة جديدة فى تحليل الاقتصاديات الكلية، عرفت بـ«مقترب التوقعات العقلانية»، والتى عبر استخدام رفيع المستوى للرياضيات، أكدت على خاصية النزوع إلى الاستقرار التى تتميز بها الأسواق غير المقيدة. ولا تحتاج إلى قضاء الكثير من الوقت كى تكتشف أن التوقعات هى القوة التى تحرك الأسواق. فإذا توقع المستثمرون أنباء جيدة، فإنهم يقومون بالشراء؛ وإذا توقعوا أنباء سيئة، فإنهم يقومون بالبيع.

ومن ثم، فمن أين تأتى هذه التوقعات الاقتصادية؟ وفقاً للوكاس، تعكس هذه التوقعات حقيقة محددة مسبقاً، وقائمة على أسس خارجية، ومتفقا عليها جماعياً. وفى النماذج الخاصة بلوكاس، فإن المعادلات الاقتصادية للحركة تكون محددة جيداً ومعروفة للجميع - بدءاً من الاقتصاديين الحاصلين على الدكتوراة فى الاقتصاد من جامعة شيكاغو إلى الممرضات وسائقى التاكسى. وباستخدام هذه المعرفة العامة، يُكَوِّن الأفراد توقعات عقلانية حول أمور مثل معدلات التضخم والفائدة، لكنهم لا يصلون إلى النتيجة الصحيحة دائماً. حيث أنه يسمح بقدر من العشوائية. لكنهم يكونون محصنين من ارتكاب أخطاء منهجية. فإذا حدث خروج عن المسار فى فترة ما، فإنه فى الفترة التالية يتم العودة إلى التوازن، وفقاً لما هو محدد فى النموذج.

وحيث إن لوكاس لم يرض بمجرد خلق نماذج جديدة، فإنه أيضاً انتقد النظريات الأقدم التى رأت فى الرأسمالية المالية مسألة تتنوبها درجة أكبر من عدم التأكد. فقد أعلن فى وقت ما أن الكنزية لم تكن مجرد خطأ، بل إنها لم تعد تستحق الاحترام على المستوى الفكرى.

ولم يكن لسوروس لا الميل ولا القدرة الفنية لانتقاد الأطروحات الرسمية لمدرسة شيكاغو. (ففى فقرة تتعمم بالبلاغة، كشف سوروس أنه لم يكن بارعاً فى الرياضيات، وأنه حصل على درجات منخفضة فى كلية لندن للاقتصاد London School of Economics (حينما كان يدرس فى نهاية الأربعينيات). غير أن ما يملكه سوروس بالفعل هو القدر الهائل من المعرفة المباشرة التى حصل عليها فى أسواق المال، وذلك جنباً إلى جنب مع الحرص على صياغة نظرية بناء على ملاحظاته. ولم يؤد الانتقاد الأكاديمى الذى لاقاه كتابه سيمياء التمويل إلى تراجعه عن بذل هذا الجهد. فقد كتب يقول «ظل الإطار المفهومى الخاص بى أمراً شخصياً مهماً جداً بالنسبة لى. فقد أرشدنى فى جلب المكاسب عند إدارتى للمحافظ الوقائية، وفى إنفاقها باعتبارى شخصاً غيرياً؛ وقد أصبح هذا الإطار جزءاً لا يتجزأ من هويتى».

لكن فى خارج العالم المثالى الذى تفترضه نظرية لوكاس، تكون المعرفة غير تامة، ويتبنى الناس أفكارا خاطئة، ولا توجد رؤية متفق عليها بشأن كيف يعمل الاقتصاد. وفى هذه الظروف، يبين سوروس عن حق أن توقعات اقتصادية ما، حتى لو كانت منحازة، يمكن أن تساعد فى تحديد الأسس الاقتصادية. وإحدى طرق الوقوف على الطرح الذى يقدمه سوروس هى النظر إلى الشكل الموجود فى هذه الصفحة، والذى تشير فيه الأسهم إلى اتجاهات السببية، والذى رسمته بنفسى لكنه يعبر بجلاء عن العلاقات التى يفسرها.

يمكن تأويل الانعكاسية باعتبارها حالة دورية أو حلقة ذات جانبين لتبادل الآراء بين المشاركين والأحداث الفعلية على الأرض. لا يتخذ الأفراد قراراتهم بناء على الوضع الفعلى الذى يواجهونه، ولكن بناء على تصوراتهم، أو تأويلهم لهذا



لم يكن لسوروس لا الميل ولا القدرة الفنية لانتقاد الأطروحات الرسمية لمدرسة شيكاغو

الوضع. ويكون لقراراتهم أثر على الوضع الفعلى (وظيفة التلاعب)، وتؤدى التغيرات فى الأوضاع إلى تغيرات فى تصوراتهم، (وظيفة التعلم).

يمكن أن يساعد مثال افتراضى بسيط. والذى أتحمل المسئولية عنه أيضاً - على شرح ما يحدث فى مثل هذا النظام الانعكاسى.

تخيل أن شركة أيه بى سى ABC تحقق أرباحاً قدرها «W» دولار للسهم، وتوزع أرباحاً قدرها «X» دولار سنوياً. إذا افترضت أن معدل النمو هذا سوف يستمر إلى ما لا نهاية، يصبح عليك أن تطبق قواعد الرياضيات التى تدرس فى الجامعة كى تعرف ما يستحقه السهم فى شركة أيه بى سى ABC، وهو ما سوف أسميه Z دولار. وفقاً لاقتصاديى مدرسة شيكاغو، يزايد المستثمرون العالمون ببواطن الأمور حتى مستوى Z ثم يتوقفون. إذا ما زادت الأسعار أعلى من ذلك، فإنهم يهرعون للبيع؛ وإذا انخفضت عن ذلك، يهرعون للشراء. إذاً كل الأمور عقلانية؛ كل الأمور كفء.

تخيل الآن أن مجموعة من المستثمرين المتهورين غير العقلانيين تصوروا أن معدل نمو شركة أيه بى سى ABC سوف يتضاعف بنسبة ٢Y دولار، ونتيجة ذلك، رفعوا المزايدة إلى ٢Z دولار، واستمروا عند ذلك المستوى لفترة. ماذا يحدث بعد ذلك؟ قد تقوم شركة أيه بى سى ABC بإصدار مزيد من الأسهم مرتفعة المعدل واستخدامها فى شراء شركة منافسة دى إى إف DEF، والتى كان سعر أسهمها منخفضاً - مما يمثل مساومة نسبية. شكراً لسحر محاسبة الاستحواذ، حيث إن الإجراء الوحيد المتبع من جانب شركة ABC أيه بى سى وهو شراء شركة دى إى إف DEF، سيجعل الأمر يبدو وكأن أرباح السهم لديها تنمو بسرعة. وهكذا فإن توقعات الأرباح المتضخمة التى رفعت سعر أسهم أيه بى سى ABC، سوف تبدو مبررة. وغالباً، فإن السهم سوف يرتفع إلى مستويات أعلى - لوقت ما على أية حال.

وإذا كانت المناقشة أعلاه تبدو مجردة إلى حد ما، فلا يجب أن تفقد اهتمامك بها. ففى النصف الثانى من كتابه، يطبق سوروس إطاره النظرى على الأحداث التى عايشها، بداية من الرواج الذى شهدته الشركات فى الستينيات، وحتى أزمة الائتمان الراهنة. ورداً على الاستقبال

كانت الولايات المتحدة قادرة على تجنب هذا المصير بفعل وضع الدولار باعتباره عملة الاحتياط الدولية

القاسي الذي حظي به كتابه الأول، يقول:

زعم الكثيرون من منتقدي الانعكاسية أنني كنت أطرح أمراً بالغ الوضوح، وهو أن التصورات المنحازة للمشاركين تؤثر على أسعار السوق. غير أن جوهر الانعكاسية ليس بالغ الوضوح؛ فهو يؤكد أن أسعار السوق يمكن أن تؤثر على أساسيات الاقتصاد. إن الافتراض الوهمي بأن الأسواق دائما تستطيع السير في الطريق الصحيح يرجع إلى قدرتها على التأثير على الأساسيات التي يفترض أن تعكسها. إن التغير في الأساسيات قد يجبر التوقعات المنحازة على القيام بعملية تهدف في البداية إلى تأكيد الذات، لكنها في الواقع تؤدي إلى هزيمة الذات.

بالتأكيد، لا تحدث هذه الموجات المتتابعة من الازدهار والإفلاس طوال الوقت. ففي الأغلب، يصحح الانحياز الغالب نفسه قبل أن يؤثر على أساسيات الاقتصاد. لكن الواقع المتعلق بفاعلية هذه الموجات المتتابعة للحدوث تفند نظرية التوقعات العقلانية. فعندما تحدث موجات الازدهار والإفلاس المتتابعة تلك، يمكن أن تأخذ أهمية تاريخية. وهذا هو ما حدث بالفعل في الكساد العظيم، وهو نفسه ما يتكشف الآن، رغم أنه يأخذ شكلاً مختلفاً.

وكان أحد الانقلابات المهنية التي قام بها سوروس هي قيامه بالاستثمار في المجموعات الصناعية سريعة النمو، مثل تكسترون Textron وإل تي في LTV وتيليدين Teledyne. ففي الفترة الأولى لإدارة نيكسون، استخدمت هذه الشركات أسهمها المتضخمة في شراء سلسلة من الشركات. وكما هو الحال في مثال شركة أيه بي سي ABC فإن الجمع بين شركة مرتفعة العوائد وشركة منخفضة العوائد أدى إلى زيادة الإيرادات لسهم الشركة منخفضة العوائد. وبالرغم من أن مستثمرين مثل سوروس يعرفون جيداً أن معظم هذا النمو هو وهم محاسبي، فقد استمروا في المزايدة على أسهم الشركات ومن ثم أبقوا على استمرار اللعبة.

ولكن حتى تستمر اللعبة إلى ما لا نهاية، يجب أن تستهدف الاستحواذات شركات أكبر وأكبر. وفي واقع الأمر، فإن مجموعة الاعتماد Reliance Group التابعة لسول ستينبيرج Saul Steinberg، قد قامت بمزايدة للاستحواذ على بنك الكيميائية Chemical Bank ذي السمعة المحترمة أدت إلى رد فعل معاكس بالنسبة للحكومة. فقد فشلت مزايدة ستينبيرج، وبدأ المستثمرون يشككون في المكاسب المتزايدة التي سجلتها مجموعة الاعتماد Reliance Group والمجموعات الأخرى. وبإدراك أن التوجه آنذاك كان تقريباً لأعلى، قام سوروس بالبيع وتوجه نحو دورة الازدهار والإفلاس التالية. والتي في هذه الحالة كانت شركات الاستثمار العقاري.

ويقدم سوروس دليلاً مفيداً من ثماني مراحل، لدورة الازدهار والإفلاس، جنباً إلى جنب مع سلسلة من خرائط الأسهم حتى تساعد القراء على تحديد الأسهم في المستقبل. وبالعودة إلى الوضع الحالي، يقول سوروس إن فقاعة العقارات الأخيرة في الولايات المتحدة توافقت في جزء كبير منها مع النموذج التاريخي، باستثناء أنه في هذه الحالة، تمركزت الانعكاسية حول سوق العقارات بدلاً من سوق الأسهم. ومع الارتفاع الكبير لأسعار المنازل بين ٢٠٠١-٢٠٠٥، انخفضت مستويات الائتمان بشكل حاد. وبدلاً من أن يقوموا بتقييد الائتمان لديهم، فإن ممولي الرهون خدعوا أنفسهم واعتقدوا أن قيمة ضمان القرض سوف تستمر في الارتفاع، وأدى تقديم المزيد والمزيد من الائتمان في ظل شروط أسهل فأسهل، إلى الحفاظ على الطلب المرتفع على العقارات، وهو ما أكد بدوره أنه لعدة سنوات، كانت التوقعات المتفائلة للمقرضين في محلها. ولم تنفجر فقاعة العقارات إلا عندما عجزت أعداد كبيرة من المقترضين عن الوفاء بالدين.

ويقول سوروس إن ما يميز هذه العملية عن عمليات الانكماش الماضية، وما يجعلها شديدة الخطورة، هو السياق الاقتصادي والتاريخي الذي تحدث فيه. ويكتب سوروس: «وفوق فقاعة العقارات الأمريكية، يوجد تعاقب أوسع من الازدهار والإفلاس، والذي بلغ في النهاية نقطة الانعطاف أو التجاوز». ويقترح سوروس أن الركود في مجال الإسكان يتبع النموذج التاريخي الطبيعي.

لكن بالإضافة إلى ذلك، فقد أدى هذا الركود أيضا إلى التحول من الدولار إلى عملات أخرى، والتراخي في المجالات الأخرى التي جلبتها الابتكارات الحديثة إلى النظام المالي. ومن ثم، فهكذا ترتبط فقاعة العقارات بما يسميه «الفقاعة الفائقة».

وكما يصف سوروس، فإن الفقاعة الفائقة قد «تطورت عبر ربع القرن الأخير وهي تعد نتاجا لثلاثة توجهات: العولمة، والتوسع في الائتمان، وانعدام التنظيم». ويقصد بالعولمة ليس فقط التوسع في تجارة السلع والخدمات، وصعود الصين والهند، ولكن أيضاً انبثاق الولايات المتحدة كالدولة المدينة الأولى في العالم، ويذكرنا أنه خلال العامين الماضيين، كانت الولايات المتحدة تدير عجزاً قيمته أكثر من ٦٪ من الناتج المحلي الإجمالي -وهو مستوى عادة ما يخص الدول النامية التي عادة ما تعاني من أزمة سعر الصرف.

وكانت الولايات المتحدة قادرة على تجنب هذا المصير بفعل وضع الدولار باعتباره عملة الاحتياط الدولية. ولأن الحكومات الأخرى، خاصة تلك في بكين، أظهرت رغبة في شراء كميات كبيرة من سندات الخزانة. ويلاحظ سوروس أنه «كانت هناك علاقة رمزية بين الولايات المتحدة، التي كانت سعيدة باستهلاكها لأكثر مما تنتج، وبين الصين والمصدرين الآسيويين الآخرين، الذين كانوا سعداء بأنهم ينتجون أكثر عما يستهلكون. وراكمت الولايات المتحدة ديناً خارجياً؛ وراكمت الصين والدول الأخرى احتياطيات من العملات».

وتجاوز الرواج في الاقتراض سوق العقارات. ففي ظل الجيل الماضي، كان التوسع الكلي للاقتصاد الأمريكي قد أصبح أكثر فأكثر ظاهرة مدفوعة بفعل الأصول. في عام ١٩٨٠، كان المقدار الكلي لسوق ائتمان الديون غير المسددة يساوي تقريبا الناتج المحلي الإجمالي. في عام ٢٠٠٧، ارتفع ليمثل ٣٥٠٪ من مقدار هذا الناتج. إن تجميع رهون السكن في أوراق للتبادل -التوريق- لعب دوراً مهماً في هذا التحول، وهو ما نتج أيضاً عن القروض المتزايدة التي تقدمها الحكومة الفيدرالية بفعل عجز موازنات حكومات الولايات، وكذلك عن توريق كروت الائتمان والديون المدينة وقروض السيارات، والتوسع في ديون الشركات. ولم يكن سوروس أول من يشير إلى تلك التوجهات، غير أن وصفه للتغيرات التي لاحظها منذ أن بدأ تعاملاته في وول ستريت مفيد للغاية. ويوضح سوروس:

إن القدر الكلي للائتمان غير المسدد في علاقته بحجم الاقتصاد كان أقل بكثير عما هو عليه اليوم. والقدر الذي يمكن أن يتم اقتراضه في مقابل الأنواع المختلفة من الضمانات كان أيضاً أقل مما هو عليه اليوم. فقد تطلبت الرهون على الأقل ٢٠٪ دفعاً مقدماً، وكان الاقتراض في مقابل الأسهم يخضع إلى هامش من الشروط القانونية التي قيدت قيمة القروض إلى ٥٠٪ أو أقل من قيمة الضمان. وتم استبدال قروض السيارات التي تطلبت دفعاً مقدماً بالتأجير الذي لم يتطلب دفعاً مقدماً. ولم يكن هناك قروض ائتمان ولم



يشهد التاريخ أن المحاولات العشوائية للخروج من الأزمات البنكية نادرا ما تنجح

يكن هناك سوى قليل جداً من الائتمان غير المضمون. ومثلت المؤسسات المالية نسبة صغيرة فقط من رسملة الأسهم الأمريكية. وكان هناك عدد قليل جداً من الأسهم المالية المدرجة على بورصة نيويورك للأسواق المالية. وكانت معظم البنوك تتعامل من الشباك، وكان العديد منهم يتعامل فقط بناء على موعد مسبق.

وحتى الصيف الماضي، كان الاقتصاد الأمريكي غارقاً في الائتمان السهل. وبطريقة ما أو أخرى، لعب نظام البنوك دوراً مهماً في إصدار عديد من هذه القروض، وهو ما لم يكن أمراً مفاجئاً بالنظر إلى أن هذه هي الطريقة التي تصنع بها البنوك الأموال. وبدلاً من أن ينتقد سوروس أقرانه من المستثمرين في وول ستريت، الذين اخترعوا عديداً من أدوات الإقراض الجديدة - مثل الأوراق المدعومة بالرهون والتزامات ضمانات القروض- والتي انفجرت مؤخراً، فإنه يلقي باللوم على المنظمين والبنوك المركزية التي ساعدت ودعمت الأنشطة المتهورة للممولين. ففي ظل نظام التنظيم الذاتي الذي تبناه المنظمون الماليون الأمريكيون والأوروبيون، سمح لعديد من المؤسسات المالية مثل سيتي جروب Citigroup وباركليز Barclays وبنك الاتحاد في سويسرا Union Bank of Switzerland بالاعتماد على النظم الداخلية عند إدارة الأخطار. وكانت المراجعة الخارجية الوحيدة على أنشطتهم تأتي من وكالات التصنيف التجاري، مثل وكالات موديز Moody's وستاندرد وبورس Standard & Poor's والتي اعتمدت في عملها على رسوم البنوك.

كتب سوروس يقول: «أجد في ذلك تخلياً صادماً عن المسئولية من جانب المنظمين».

وإذا لم يكن باستطاعتهم حساب الخسارة، فكان عليهم ألا يسمحوا للمؤسسات الخاضعة لإشرافهم بالاضطلاع بهذه المهمة. كانت نماذج الأخطار في البنوك مرتكزة على فرضية استقرار النظام، لكن على عكس المعتقدات الأساسية التي تتبناها البنوك، فإن استقرار الأسواق المالية لا يعد مسألة مضمونة؛ فيجب أن تنشط السلطات للحفاظ على هذا الاستقرار. وحينما يعتمد المنظمون على حسابات المخاطر التي يضعها المشاركون في السوق، فإنهم بذلك يكونون قد سحبوا الدفة وأطلقوا العنان لفترة من التوسع الائتماني المنفلت.

وطالما ظل الائتمان يتدفق بحرية، فقد عزز كل عنصر من عناصر الفقاعة الفائقة العنصر الآخر. والآن حيث انفجرت فقاعة العقارات وتباطأ النمو الاقتصادي بدرجة حادة، تعمل الانعكاسية في الاتجاه المضاد: أساسيات السوق تؤثر على تصورات المستثمرين. وثبت أن سوق رأس المال العالمي الذي مكن الولايات المتحدة من تمويل العجز التجاري الكبير، قادرة بنفس الدرجة على نقل صدمة الرهون العقارية إلى أجزاء أخرى من العالم؛ فبعد أن تسارعت البنوك الأوروبية الكبرى في جني العوائد المرتفعة التي أتاحتها أوراق الرهن العقاري الأمريكية، وجدت نفسها مجبرة على إلغاء ديون بنفس مقدار الديون التي ألغاها الإخوة الأمريكيون. (وإذا أخذنا الولايات المتحدة وأوروبا معاً، قامت البنوك والمؤسسات المالية الأخرى حتى الآن بإلغاء نحو ٤٥٠ مليار دولار في صورة التزامات مرتبطة بالرهون العقارية، والعديد من المؤسسات تواجه الآن خسائر لم يتم الإعلان عنها بعد. وسوف تبلغ التقديرات بشأن الخسائر الكلية مدى ١ إلى ٢ تريليون دولار).

ومع تصاعد النزاعات العصبية وهبوط قيمة الضمانات، تحاول عديد من المؤسسات المالية الكبرى المأزومة إزاحة أرقام الديون من على قوائم الميزانيات. وعلى مستوى المؤسسات الفردية، قد يكون لذلك معنى. لكن عندما تقوم كافة البنوك بهذا الإجراء، فإن ذلك يحرم المشروعات الرأسمالية الدولية من المال ويهدد بتعميق الانهيار الاقتصادي، الذي بدوره يمكن أن يؤدي إلى مزيد من العجز عن سداد الديون. وكما يلاحظ لورانس سامرز الاقتصادي بجامعة هارفارد، في الفايناننشيال تايمز، إن ذلك ليس إلا واحداً من الحلقات المفرغة التي تعمل بشكل متزامن. يجبر الانخفاض في أسعار الأصول المستثمرين ذوي الاقتراضات العالية على بيع أصول محجوزة، وهو ما يؤدي بدوره إلى مزيد من الضغط على الأسعار للانخفاض. وفي ظل انخفاض معدل نمو الناتج المحلي الإجمالي، تتجه الشركات إلى تسريح العمال. ويؤدي ارتفاع معدلات البطالة إلى قيام الأسر بخفض نفقاتها، مما يؤدي إلى خفض معدل النمو. «دون القيام بجهود حثيثة للتدخل في هذه الآليات، لن تكون هناك قاعدة للثقة بأن الاقتصاد الأمريكي يمكنه أن يتعافى حتى على المدى المتوسط»، هكذا كتب سامرز في مقال نشر في ٦ أغسطس.



لم يكن سوروس مغرقاً في التشاؤم. فقد قال إن النمو السريع في العالم النامي، وخاصة الصين، سوف يستمر

وبالتأكيد فإن سوروس سوف يقبل هذا الطرح. فعندما أنهى مخطوطاته في بداية العام الحالي، تنبأ بأن الركود الاقتصادي سوف يطول، جزئياً لأن مشكلات النظام المالي سوف تؤدي إلى أن السياسات المضادة التي يجري اتخاذها للخروج من الأزمة - مثل تسهيل تدفق الأموال لتعزيز الاستثمار-اقل فاعلية مما هي عليه في الأوقات العادية. وخلال ٢٠٠٨، قام فيد Fed بخفض معدل الفائدة قصيرة الأجل إلى ٢٪، وأتاح للشركات المالية سبل اقتراض غير محدودة. وصوت الكونجرس على مشروع لإعادة التمويل بالنسبة لعديد من ملاك المنازل الذين فشلوا في تسديد مبالغ الرهون.

في بداية سبتمبر، وفي محاولة لخفض معدلات الرهون ووضع نهاية للانكماش في مجال الإسكان، اتخذت إدارة بوش خطوة دراماتيكية وهي التأميم الفعلي لفاني ماي Fannie Mae وفريدي ماك Freddie Mac، وهما من كبريات شركات الرهون التي تقدم قروضاً، واللتان كانتا قد أنشأتهما الحكومة منذ سنوات، لكنهما عملتا كشركتين خاصتين. وقد أدى استحواذ الحكومة الفيدرالية على الشركتين إلى إضافة ٥ تريليون دولار إلى العجز القومي. وقد مثل هذا الإجراء، خاصة أنه يأتي من الجمهوريين، تحولاً تاريخياً فيما يتعلق باتساع تدخل الحكومة الأمريكية في الاقتصاد. ومن ثم فإن وزارة الخزانة، دون أن تحصل على تأييد الكونجرس، منحت نفسها حق شراء ٨٠٪ من أسهم إيه أي جي AIG. (وقد أدان السيناتور الجمهوري لولاية كنتاكي جيم بانتنج هذه الخطوة باعتبارها إجراء اشتراكياً ودعا وزير الخزانة هانك بولسون إلى الاستقالة). غير أنه بالرغم من كل هذه الخطوات، ظلت معدلات قروض رهون جامبو. وهو نوع قروض الرهن الذي على مشتري المنازل اختياره إذا أرادوا أن يسكنوا في مناطق مثل نيويورك أو بوسطون أو واشنطن. عند مستوى ٨٪. ولم يكن مفاجئاً إذاً أن أسعار المساكن في معظم الأسواق الرئيسية مازالت تنخفض.

إلى أين سوف تنتهي الأزمة؟ ومن

منظور سوروس، فقد أوضحت الأحداث الدرامية في منتصف سبتمبر كيف تعمل الانعكاسية في حالات التراجع وتسبب تأثيراً تدميرياً: فقد الحق الركود في سوق العقارات الدمار بالبنوك والمؤسسات المالية الأخرى، والتي تفاعلت مع هذا الركود عبر تقييد مستويات الإقراض، وخفض مقدار الائتمان، خاصة في مجال تمويل الرهون، والذي كانت ترغب في توسيع نطاقه ليشمل المساكن الكبيرة وكذلك مباني الشركات. وأدى تقييد الائتمان بدوره إلى الإضرار بالاقتصاد ووضع ضغوط لأسعار الملكيات، ومن ثم انخفاضها، وهو ما أطاح بالأمل في أن تحقق أسواق الائتمان استقرار نفسها بنفسها، وأن تستطيع الشركات المتعثرة أن تعيد رسملة قوائم الميزانية.

وكان ريتشارد إس فولد، المدير التنفيذي السابق لليمان Lehman، وزملاؤه يأملون في تحقيق بعض الانتعاش. ومنذ خريف ٢٠٠٧ فصاعداً، كانت الشركة التي تأسست عام ١٨٥٠، تناضل من أجل البقاء. وبدلاً من أن يتم بيعها بالكامل إلى مؤسسة أكبر وأكثر نجاحاً، راهن المديرون على أن أسواق الائتمان سوف تتعافى. واستمر الانخفاض في قيمة عشرات المليارات من أصول العقارات ينخر في قائمة ميزانية الشركة. ولم يصعد المنحنى أبداً. وفي الوقت الذي قررت قيمة ليمان Lehman التخلي عن استقلالها، في منتصف سبتمبر، كانت تواجه أزمة تمويل. ولم يكن هناك من يهتم بالشراء. (ولم تعتبر وزارة الخزانة ولا بنك الاحتياط الفيدرالي ليمان مهمة استراتيجياً بما يكفي للتدخل لحمايتها. ومن ثم فقد أفلست. وعلى النقيض من ذلك، كانت أيه آى جي AIG أكبر من أن يسمح لها بالسقوط).

ويشهد التاريخ أن المحاولات العشوائية للخروج من الأزمات البنكية نادرا ما تنجح. إن الشيء الوحيد الذي يمكنه وضع حد للمنحنى الهابط هو التدخل الحكومي على نطاق واسع، وأن يتحمل المجتمع الخسائر التي تحققت، ويتم تحرير المؤسسات التي استطاعت الحفاظ على البقاء حتى تبدأ في الإقراض ثانية. ومع خطة بولسون للإنقاذ، فقد وصلنا اليوم إلى تلك المرحلة، حيث يُستدعى دافعو الضرائب لتصحيح أخطاء المصرفيين. وبالرغم من أن الخطة تتضمن ضخ ٧٠٠ مليار دولار، إلا أن التكلفة الحقيقية يمكن أن تكون أكبر من ذلك. قارن بعض المراقبين بين ما يحدث الآن، وبين أزمة المدخرات والقروض في نهاية الثمانينيات، حينما أسست الحكومة شركة تراست رزولوشن Resolution Trust Corporation من أجل التصرف في أصول أصحاب القروض المتعثرة. غير أن ذلك لا يعد تدريباً تافها مقارنة بالوضع الحالي. إن أحد الأمثلة الجيدة المشابهة للوضع الحالي هو أزمة البنوك اليابانية في التسعينيات، حينما رفضت الحكومة في البداية الاعتراف بالحجم الحقيقي للأزمة. لكن انتهى الأمر بها، بعد مرور نحو عقد من الزمن من الركود الاقتصادي، إلى إنفاق مبالغ كبيرة من الأموال العامة في إعادة رسملة القطاع المالي للبلاد. وحتى آنذاك، فشل الاقتصاد الياباني في استعادة معدلات النمو السابقة، بعد سنوات قليلة من النمو المتواضع، انزلق مرة أخرى في حالة أشبه بالكساد.

يحدونا الأمل في أن يكون لخطة بولسون أثر إيجابي على صعيد إنعاش الاقتصاد الأمريكي. غير أنه بالرغم من الاحتفالات الحالية في وول ستريت، إلا أن من الصعب للغاية أن نضمن أن تؤدي الخطة إلى نهاية سعيدة. فقد شكك منتقدو الخطة في مدى ملاءمة توقيت الخطة، ومدى أخلاقياتها وكفاءتها. ويرغب وزير الخزانة الأمريكي في التمتع بالحرية الكاملة من أجل تنفيذ الخطة بالطريقة التي يراها مناسبة. وينص تشريع الخطة التي قدمها على أن «قرارات الوزير طبقاً للسلطة التي يخولها هذا القانون غير قابلة للمراجعة ، ولا يمكن مراجعتها بواسطة أية محكمة أو أي قانون أو جهة إدارية». وقد رفض أعضاء لجنة البنوك التابعة لمجلس الشيوخ هذه الفقرة حينما كانت اللجنة تستجوب بولسون في ٢٣ سبتمبر. (اقترح سوروس في الفاينانشيال تايمز في ٢٥ سبتمبر خطة انقاذ بديلة، وهي نفس الخطة التي اقترحها السيناتور تشارلز شومير وآخرون بشأن ضخ أموال عامة مباشرة في البنوك، عبر شراء الحكومة لأسهم ممتازة).

ومن المنظور الاقتصادي، فإن الأمر المهم هو ما إذا كانت خطة بولسون، أو أية خطة متقاربة معها، سوف تحقق نجاحاً: هل مشتريات الأصول المخططة كبيرة بما يكفي لإحداث تغيير؟ وماذا عن الأصول الفاسدة الأخرى التي تحتفظ بها المؤسسات المالية في دفاترها، بما في ذلك نحو ٩٥٠ مليار دولار في صورة أوراق مالية مرتبطة برهن «بديل أيه» «alt-A» الخطير، ومليارات الدولارات في صورة أوراق رهون السيارات وديون بطاقات الائتمان، والديون المشكوك فيها التي لا تحصى والتي تم التوسع فيها خلال الرواج لتشمل شركات العقارات التجارية؟ هل سيكون من الأوفر والأكثر فعالية بالنسبة للحكومة أن تقوم بإعادة رسملة البنوك الكبرى بالاستحواذ على حصص بها.

لكن حتى إذا استطاعت خطة بولسون، أو بعض التنويعات على هذه الخطة، استعادة درجة من الاستقرار في أسواق المال، فإنه من غير المؤكد على الإطلاق أن يؤدي الهبوط المتواضع في معدلات الرهن ووجود استعداد أكبر من جانب المؤسسات المالية للإقراض، إلى كسر القوة الدافعة للاتجاه نحو الكساد، والتي تغذي نفسها بنفسها. ويتوقف الأمر إلى حد كبير على ما يحدث في سوق الإسكان والاقتصاد العالمي، الذي عندما يمد الصادرات الأمريكية بإحدى الأسواق، وعندما يقدم النقود عبر شراء سندات الحكومة الأمريكية، فإنه يساعد على منع حدوث هبوط حاد في الناتج والعمالة.

ان أحد الأطروحات التي قدمها سوروس هو أن سلوك الأسواق الذي يعرفه بالانعكاسية يضيف قدراً كبيراً من عدم التأكد فيما يتعلق بالأحداث الاقتصادية، وهو ما يجعل التنبؤ مسألة خادعة للغاية. لكن مع ذلك، وفي ضوء إعجاب سوروس بالمقولات الفلسفية الكبرى، فإنه لا يستطيع مقاومة تقديم بعض الرؤى عن المستقبل. فقد كتب يقول قبل التطورات الدرامية الأخيرة:

في النهاية، سوف يكون على الحكومة الأمريكية أن تستخدم أموال دافعي الضرائب كي توقف التراجع في أسعار المنازل. وحتى تقوم بذلك، سوف يغذي هذا التراجع نفسه بنفسه، حيث يتجه الناس بعيداً عن المنازل التي لهم بها حصص سلبية ومن ثم فسوف تتعثر المؤسسات المالية أكثر فأكثر، مما يؤدي إلى كل من الكساد وحجر الدولار. لا تستطيع الإدارة الأمريكية واقتصاديو التوقعات أن يفهموا أن الأسواق يمكن أن تغذي نفسها بنفسها فيما يتعلق بالتراجع أو الصعود على حد سواء، فهم ينتظرون من سوق العقارات أن يصل إلى نقطة القاع اعتماداً على نفسه، غير أن ذلك أمر بعيد المنال.

لم يكن سوروس مغرقاً في التشاؤم. فقد قال ان النمو السريع في العالم النامي، وخاصة الصين، سوف يستمر، ونحى جانباً المخاوف حول إمكانية انهيار النظام البنكي العالمي، كما حدث في الثلاثينيات. وبعدما راقب الأعراض التي خبرها النظام الحالي منذ صيف ٢٠٠٧، دعا سوروس إلى مزيد من التنظيم، بما في ذلك وضع قيود أكثر على القروض لأجل الاستثمار. غير أن النتيجة الأساسية التي استخلصها سوروس تجاوزت تقديم التكهنات المتعلقة بالتوصيات حول السياسة الاقتصادية. وقد كتب يقول: إن الحقبة التاريخية التي نتجت عن انتخاب مارجريت تاتشر ورونالد ريجان قد وصلت إلى نهايتها.

إذاً فماذا يعني حقيقة نهاية عصر؟ أرى أنه يعني نهاية الفترة الطويلة من الاستقرار النسبي المرتكز إلى الولايات المتحدة باعتبارها القوة المهيمنة، وإلى الدولار باعتباره عملة الاحتياط الدولية الأساسية. أتوقع فترة من الاضطراب السياسي والمالي، وآمل أن يتبعها انبثاق نظام عالمي جديد.

منذ ١٩٧١، عندما تخلت إدارة نيكسون عن الارتباط بين الدولار والذهب، توقع كثير من المعلقين أفول العملة الأمريكية ونهاية الهيمنة الاقتصادية الأمريكية، وهو ما ثبت خطؤه، أو على الأقل عدم نضوجه. ويمكن أن ينتهي الأمر بسوروس إلى الانضمام لتلك المجموعة، فهو يعترف بحرية بأنه كان مفرطاً في التشاؤم في مناسبات سابقة. (منذ عقد من الزمن، قلل من قدرة الاقتصاد العالمي على التعافي من الأزمة المالية الآسيوية.) إذا ما استطاعت خطة بولسون أن تخلص النظام المصرفي الأمريكي من أوراق الرهون المتعثرة التي سببت الكثير جداً من المشاكل، وإذا حدثت استعادة للثقة في وول ستريت، وإذا استقر سوق الإسكان، وإذا استمر الانخفاض الحالي في سعر النفط، فسوف يكشف الاقتصاد والعملة الأمريكيان عن قدراتهما السحرية مرة أخرى. وعلى النقيض من ذلك، إن قراءة سوروس للأحداث المالية قد جعلته أكثر ثراء في مرات عديدة سابقة، إذ فقد يكون منافياً لحسن الفطن أن نراهن ضده الآن. ■

مـــلاحـــظـــة

انظر: Andrei Shleifer, Inefficient Markets: An Introduction to Behavioral Finance (Oxford University Press, 2000), and Advances in Behavioral Finance, Vol. 2, edited by Richard H. Thaler (Russell Sage Foundation/Princeton University Press, 2005

الاثنين

في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ مباشرة، وفي عامه الرابع عشر كرئيس لبنك الاحتياط الفيدرالي، شارك جرينسپان في جهد جماعي شديد الهدوء لضمان ألا تتعرض أمريكا لانهيار اقتصادي وتأخذ بقية العالم معها، وكان هناك سبب وجيه للخوف من أسوأ الأمور، فقد كان انهيار البورصة الذي حدث في عام ١٩٨٧ بعد أسابيع فقط من توليه منصبه أقرب بكثير عما هو معروف بصورة عامة الآن إلى تجميد النظام المالي وإثارة الفزع المالي الحقيقي، ومع ذلك فإن أبرز ما حدث للاقتصاد بعد الحادي عشر من سبتمبر هو لا شيء، فما كان يمكن أن يعني صدمة تصيب النظام بالشلل قد جرى استيعابه بسرعة تبعث على الدهشة.

الجميع تذكر جرينسبان الآن. البعض تحسر على أيامه، والآخرون (منهم فريد زكريا) اعتبروا أن سياساته «المستهدفة للتفاؤل» هي أحد أسباب ماوصلنا اليه.

أياً ما كان الأمر، هنا يحكي جرينسبان سطوراً من يومياته.

المحـــرر

■ ■ محصت الاقتصاد في كل يوم عمل على امتداد عقود من الزمن وزرت بنك الاحتياط الفدرالي عشرات المرات. وبالرغم من ذلك فحين عُيِّنت رئيساً كنت أعلم أن عليَّ معرفة الكثير. وقد تعزز ذلك في الدقيقة التي عبرت فيها الباب. وكان أول من رحب بي دينيس بكلي، عميل الأمن الذي سيبقى معي طوال فترة عملي في البنك. وقد خاطبني بقوله: «سيدي الرئيس».

فقلت له: «لا تكن سخيفاً. فالكل ينادونني بآلان».

أوضح لي برفق أن مناداة رئيس مجلس الإدارة باسمه الأول ليست بالأمر المتبع في بنك الاحتياط الفدرالي.

وهكذا أصبح الآن السيد الرئيس.

علمت بعد ذلك أن عينة العاملين أعدت سلسلة من الدروس التعليمية المكثفة تسمى بشكل دبلوماسي «سيمنار الشخص الواحد» كنت أنا فيها الطالب. وكان معنى ذلك أنه خلال العشرة أيام التالية سوف يجتمع كبار العاملين المتخصصين في قاعة الاجتماعات بالطابق الرابع من البنك ويعلموني وظيفتي. تعلمت عن أقسام قانون بنك الاحتياط الفدرالي الذي لم أكن أعرف أنه موجود. وهو ما أصبحت مسئولاً عنه الآن. وعلمني العاملون المعارف المتخصصة المتعلقة بتنظيم الأعمال المصرفية، التي دهشت لأنني لم أصادفها قط عندما كنت عضو مجلس إدارة چيه پي مورجان، وباورى سيفينجز. وبالطبع كان بنك الاحتياط الفدرالي به خبراء في كل بُعد من أبعاد الاقتصاديات الداخلية والدولية وكذلك القدرة على استدعاء المعلومات من كل مكان. وهي القدرة المميزة على الوصول إلى الأشياء التي كنت شغوفاً باستكشافها.

مع أنني كنت عضواً بمجالس إدارات الشركات، فإن مجلس محافظي منظومة الاحتياط الفدرالي، وهو الاسم المعروف به البنك رسمياً، كان نظاماً يفوق في حجمه أي شيء آخر أدرته من قبل. اليوم يبلغ عدد العاملين ببنك الاحتياط الفدرالي حوالي ألفي موظف وتبلغ ميزانيته السنوية حوالي ٣٠٠ مليون دولار، ومن حسن الحظ أن إدارته لم تكن وظيفتي. فالممارسة المتبعة منذ زمن بعيد هي تعيين شخص آخر من بين أعضاء المجلس محافظاً إدارياً لمراقبة العمليات اليومية. وهناك كذلك مدير للعاملين يتولى الإدارة ويعمل رئيساً للموظفين. وبهذه الطريقة فإن القضايا غير العادية أو التي قد تثير اهتمام الجماهير أو الكونجرس هي فقط التي كان يؤتى بها إلى الرئيس، من قبيل التحدي الضخم لتعديل نظام المدفوعات الدولية الخاص بنهاية الألفية. وخلاف ذلك فهو حر كي يركز على الاقتصاد. وهو فحسب ما كنت شغوفاً للقيام به.

يتمتع رئيس بنك الاحتياط الفدرالي بسلطة أحادية أقل مما قد يوحي به اللقب. فأنا طبقاً للوائح كنت أتحكم فقط في جدول أعمال اجتماعات مجلس المحافظين. أما المجلس فهو الذي يقرر الأمور الأخرى بالأغلبية، وكان للرئيس صوت واحد فقط من بين سبعة أصوات. كما أنني لم أكن بتكل آلي رئيس لجنة الأسواق الفدرالية المفتوحة، وهي المجموعة القوية التي تتحكم في سعر الفائدة الأساسي الذي هو الأداة الأولية للسياسة النقدية الأمريكية. وتضم لجنة الأسواق الفدرالية المفتوحة سبعة من محافظي المجلس ورؤساء فروع بنك الاحتياط الفدرالي الإقليمية (يمكن لخمسة فقط أن يصوتوا في كل مرة)، وهي كذلك تتخذ القرارات بالأغلبية. وبينما جرى العرف على أن يكون رئيس لجنة الأسواق الفدرالية المفتوحة هو رئيس المجلس، فلابد مع ذلك من انتخابه كل عام بواسطة الأعضاء، وهم أحرار في اختيار شخص آخر. وقد توقعت أن تسود السابقة. ولكنني كنت أعي باستمرار أن تمرد المحافظين الستة الآخرين يمكنه إزالة كل سلطتي، ما عدا كتابة جدول أعمال المجلس.

أمسكت بسرعة بدون كون سكرتير لجنة الأسواق الفدرالية المفتوحة وجعلته يعرفني ببروتوكولات الاجتماع. (دون، الذي سوف يثبت أنه أكثر مستشاري السياسات فاعلية خلال سنواتي الثماني عشرة في بنك الاحتياط الفدرالي، هو الآن نائب رئيس مجلس الإدارة). وتعقد لجنة الأسواق الفدرالية المفتوحة اجتماعاتها سراً، ولذلك لم تكن لدي فكرة عن جدول الأعمال القياسي، ومن الذي يتحدث أولاً، ومن يفوض من، وكيفية عمل التصويت، وهلم جرا. وكان للجنة كذلك لغتها التي كان لابد لي أن آلفها. فعلى سبيل المثال، عندما ترغب لجنة الأسواق الفدرالية المفتوحة تخويل الرئيس تحديد سعر فائدة الصناديق الفدرالية، إذا دعت الحاجة إلى ذلك قبل الاجتماع المنتظم، فهي لم تكن تقول «يمكنك رفع أسعار الفائدة إذا قررت أنه لابد من ذلك»، بل كانت تصوت على إعطائي «توجيه لا متماثل نحو التقييد». وكان من المقرر أن أدير أحد تلك الاجتماعات في الأسبوع التالي: في ١٨ أغسطس (آب)، ولذلك كنت تلميذاً لديه دافع كبير للتعلم. ولا تزال أندريه تمزح بشأن مجيئي إلى منزلها في عطلة نهاية الأسبوع تلك كي



للاستزادة:

عصر الاضطراب

مغامرات في عالم جديد

آلان جرينسبان

ترجمة: أحمد محمود

مراجعة: سامر أبو هواش

كلمة: أبو ظبي

دار الشروق - القاهرة - ٢٠٠٨

الأسـود!

آلان جرينسبان

أنكب على كتاب Robert's Rules of Order.

كنت أشعر بحاجة حقيقية إلى أن أعمل على الفور بجد ونجاح، لعلمي أن بنك الاحتياط الفدرالي سوف يواجه قرارات كبيرة عما قريب. وكان توسع فترة رئاسة ريجان يسير سيرا حسناً في عامه الرابع، وبينما كان الاقتصاد يزدهر، كانت تبدو عليه كذلك علامات عدم الاستقرار. فمنذ بداية العام، عندما ارتفع مؤشر داو جونز للشركات الصناعية الكبرى إلى ٢٠٠٠ نقطة لأول مرة، ارتفع مؤشر سوق الأوراق المالية بما يزيد على ٤٠ بالمائة، وها هو يتوقف عند ما يزيد على ٢٧٠٠ نقطة وكانت وول ستريت تعيش فقاعة مضاربة. وكان ذلك أشبه بما يحدث في العقارات التجارية.

وفي الوقت نفسه كانت المؤشرات الاقتصادية غير مشجعة. فقد أدى العجز الحكومي الضخم في عهد ريجان إلى تضاعف الدين القومي للجمهور ثلاث مرات تقريبا، مما يزيد قليلاً على ٧٠٠ مليار دولار في بداية فترة رئاسته إلى أكثر من تريليوني دولار في العام المالي ١٩٨٨. وكان سعر الدولار ينخفض، وكان الناس قلقين بشأن فقدان أمريكا للميزة التنافسية. كان الإعلام زاخرا بالحديث المثير للقلق عن الخطر الياباني المتزايد. وكانت أسعار المستهلك، التي بلغت ١.٩ بالمائة فقط في عام ١٩٨٦، تتزايد بضعف المعدل تقريبا في الأيام الأولى من منصبي. ومع أن التضخم الذي بلغت نسبته ٣.٦ بالمائة أفضل بكثير من ذلك الكابوس ثنائي الخانات الذي كان الناس يتذكرونه من السبعينيات، فالعادة هي أنه ما إن يبدأ التضخم حتى يتزايد. وكنا معرضين لخطر فقدان ذلك النصر الذي تحقق مقابل ذلك البؤس وتلك التكلفة في عهد بول فولكر.

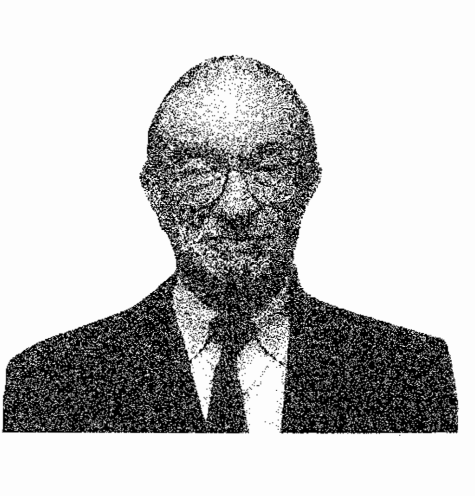
كانت تلك بطبيعة الحال قضايا اقتصادية عريضة تتجاوز قدرة بنك الاحتياط الفدرالي وحده على حلها. ومع ذلك فقد كان أسوأ مسار هو أن نجلس مكتوفي الأيدي. رأيت أنه سيكون من الحكمة رفع سعر الفائدة، ولكن بنك الاحتياط الفدرالي لم يكن قد رفع أسعار الفائدة منذ ثلاث سنوات، وسوف يكون رفعها الآن عملية كبيرة. ففي أية مرة يغير فيها بنك الاحتياط الفدرالي الاتجاه يحدث ذلك صخبا في الأسواق. والمخاطرة بفرض القيود أثناء صعود سوق الأسهم أمر شديد الحدة. ذلك أنه من الممكن أن يفجر فقاعة ثقة المستثمرين. وإذا ما أخاف هذا الناس بقدر كبير فمن الممكن أن يتسبب في حدوث انكماش اقتصادي شديد.

مع أنني كنت على علاقة ودية مع الكثير من أعضاء اللجنة، فقد كانت معرفتي أفضل من أن أظن أن بإمكان رئيس المجلس الذي لم يمض على توليه منصبه سوى أسبوع أن يدخل الاجتماع ويشكل الاتفاق على مثل هذا القرار الذي يتسم بالمخاطرة. ولذلك لم أقترح زيادة سعر الفائدة، بل استمعت فحسب إلى ما كان لابد للآخرين من قوله. فقد كان أعضاء اللجنة الثمانية عشر جميعاً رجال بنوك مركزية واقتصاديين محنكين، وعندما جلسنا حول الطاولة نقارن تقييمات الاقتصاد، كان من الواضح أنهم كذلك مهمومون. قال جيري كوريجان، رئيس فرع بنك الاحتياط الفدرالي في نيويورك الذي يتسم بجدية شديدة إن علينا رفع الأسعار. وذكر بوب باري رئيس فرع بنك الاحتياط الفدرالي في سان فرانسيسكو أن منطقته تشهد نموا جيدا، وتفاؤلاً كبيراً، وتوظيفاً كاملاً. وكنها أسباب تجعلنا نشك في حدوث تضخم. واتفق سي كين من شيكاغو مع هذا الرأي. وأبلغنا أن مصانع الغرب الأوسط تعمل بما يقارب طاقتها الكامنة، بل إن دلائل المستقبل الزراعية تحسنت. وأوضح توم ميلزر رئيس فرع سانت لويس كيف أنه حتى مصانع الأحذية في تلك المنطقة تعمل بنسبة ١٠٠ بالمائة من طاقتها. ووصف بوب فوريستال من أطلانطا كيف أن العاملين معه دهشوا من قوة أرقام التوظيف حتى في القطاعات التي تعاني من كساد مزمن في الجنوب. وأظن أن الكل خرج من الاجتماع مقتنعا بضرورة رفع أسعار الفائدة بسرعة.

كانت الفرصة الثانية لتحقيق ذلك بعد أسبوعين، في الرابع من سبتمبر (أيلول) في اجتماع مجلس المحافظين. وينظم المجلس وسيلة السياسة النقدية الرئيسية الأخرى، وهي «سعر الخصم» الذي يقرض به بنك الاحتياط الفدرالي مؤسسات الإيداع. ويتحرك هذا السعر بصورة عامة بتوافق مع سعر الفائدة الأساسي. وقبل اجتماع المجلس المقرر أمضيت بضعة أيام أقطع الممر جيئة وذهابا سعيا وراء المحافظين في مكاتبهم لتكوين الإجماع، وعندما عقد الاجتماع، انتقل بسرعة إلى التصويت. وقد وافق المحافظون بالإجماع على زيادة سعر الفائدة من ٥.٥ بالمائة إلى ٦ بالمائة.

لكي نكبح جماح الضغوط التضخمية، كنا نحاول فرملة الاقتصاد بجعل اقتراض المال أكثر تكلفة. ولم يكن هنالك من سبيل للتنبؤ بمدى الشدة التي سترد بها الأسواق على مثل هذا الإجراء، وخاصة عندما يجتذب حماس المضاربة المستثمرين. ولا يسعني إلا تذكر الروايات التي قرأتها عن علماء الفيزياء في ألاموجوردو في المرة الأولى التي فجروا فيها قنبلة ذرية: هل ستفشل القنبلة؟ هل ستعمل على النحو الذي يأملونه؟ أم أن رد الفعل التسلسلي سيخرج عن السيطرة بصورة ما ويشعل النار في الغلاف الجوي؟ وبعد انتهاء الاجتماع كان لابد لي من السفر إلى نيويورك؛ وكان مقررا أن أسافر من هناك في عطلة نهاية الأسبوع إلى سويسرا، حيث أحضر أول اجتماع لي لرؤساء البنوك المركزية بالدول الصناعية العشر الكبرى. وكان أمل بنك الاحتياط الفدرالي هو أن تتعامل الأسواق الرئيسية، الأسهم والتعاملات الآجلة والعملات والسندات، بهدوء مع التغيير، حيث كان من المحتمل أن تنخفض أسعار الأسهم على نحو طفيف ويقوى الدولار. وقد ظللت على اتصال بالمكتب لمراجعة كيفية رد فعل الأسواق.

لم تشتعل السماء في ذلك اليوم. فقد هبطت أسعار الأسهم، ورفعت البنوك سعر الفائدة الأساسي على القروض تماشيا مع الخطوة التي اتخذناها، ولاحظ العالم المالي، كما كنا نأمل، أن بنك الاحتياط الفدرالي قد بدأ العمل للقضاء على التضخم. وربما انعكس الأثر الأكثر دراماتيكية في العنوان الرئيسي لصحيفة «نيويورك تايمز» بعد بضعة أيام: «أحد زيادة في وول ستريت:



القلق». وأخيرا سمحت لنفسي بأن أتنفس الصعداء عندما وصلتني رسالة من بول فولكر. كان يعرف على وجه الدقة ما الذي أفعله. وكان نص الرسالة «مبروك، أنت الآن رجل بنوك مركزية».

لم أظن للحظة أننا وصلنا بر الأمان. فعلامات الاضطراب في الاقتصاد ظلت تواصل تصاعدها. وجعل النمو البطيء والمزيد من ضعف الدولار وول ستريت في حالة من القلق، حيث بدأ المستثمرون والمؤسسات يواجهون احتمال عدم تحقيق مليارات الدولارات في مراهنات المضاربة أية أرباح. وفي أوائل أكتوبر (تشرين الأول) تحول ذلك الخوف إلى ما يشبه الفزع. فقد هبطت سوق الأسهم هبوطا سريعا، بنسبة ٦ بالمائة في أول أسبوع، ثم ١٢ بالمائة أخرى في الأسبوع التالي. وكانت أكبر خسارة يوم الجمعة ١٦ أكتوبر، عندما هبط متوسط مؤشر داو جونز ١٠٨ نقطة. ومنذ نهاية سبتمبر (أيلول) تبخر حوالي نصف تريليون دولار من الثروة الورقية في سوق الأسهم وحدها، ناهيك عن الخسائر في العملات وغيرها من الأسواق. وكان الهبوط مذهلا لدرجة جعلت مجلة «تايم» تخصص صفحتين كاملتين لسوق الأسهم في ذلك الأسبوع تحت عنوان «مذبحة أكتوبر (تشرين الأول) في وول ستريت».

علمت من وجهة النظر التاريخية أن هذا التصحيح، لم يكن تقريبا الأشد قسوة. فقد كان تدهور السوق في عام ١٩٧٠ ضعف هذا الحجم تقريبا، وقضى الكساد العظيم على ٨٠ بالمائة من قيمة السوق. ولكن بناء على ما انتهى عليه الأسبوع من ضعف، كان الكل قلقا بشأن ما يمكن أن يحدث عندما تفتح السوق أبوابها مرة أخرى يوم الاثنين.

كان من المفترض أن أطير يوم الاثنين إلى دالاس حيث كنت سأتحدث يوم الثلاثاء في مؤتمر جمعية رجال البنوك الأمريكية، وكانت تلك أول كلمة مهمة لي باعتباري رئيس بنك الاحتياط الفدرالي. تشاورت صباح يوم الاثنين مع مجلس المحافظين، واتفقنا على أنه ينبغي أن أقوم بالرحلة كي لا يبدو أن بنك الاحتياط الفدرالي في حالة فزع. بدأت التعاملات في السوق ذلك الصباح ضعيفة. وفي الوقت الذي كان لابد أن أغادر فيه بدت مخيفة، إذ هبطت بأكثر من ٢٠٠ نقطة. لم يكن هناك تليفون على الطائرة. ولذلك كان أول شيء فعلته عندما وصلت هو سؤال أحد الأشخاص الذين رحبوا بي من فرع بنك الاحتياط الفدرالي في دالاس «كيف كانت آخر تعاملات سوق الأسهم؟».

قال: «لقد هبطت بمقدار خمسة نقطة ثمانية».

عادة عندما يقول شخص «خمسة صفر ثمانية» فهو يقصد ٥.٠٨، ومعنى ذلك أن السوق هبطت بمقدار ٥ نقاط فحسب. فقلت: «عظيم، يا له

من انتعاش رهيب». ولكن عندما قلت ذلك رأيت أن التعبير الذي على وجهه لا يشاركني الشعور بالارتياح. فالواقع أن السوق انهارت بمقدار ٥٠٨ نقطة. هبوط بنسبة ٦ ٢٢ بالمائة. وتلك أكبر خسارة في يوم واحد في التاريخ، بل إنها أكبر من تلك التي كانت في ذلك اليوم الذي بدأ فيه الكساد العظيم، ذلك الجمعة الأسود من عام ١٩٢٩.

ذهبت مباشرة إلى الفندق حيث بقيت على التليفون حتى الليل. وأنشأ مانلي جونسون نائب رئيس بنك الاحتياط الفدرالي مكتباً لإدارة الأزمة داخل مكتبي في واشنطن وأجرينا مجموعة من المكالمات والمؤتمرات التليفونية لتحديد الخطط. وزودني جيري كوريجان بالمعلومات اللازمة في المحادثات التي أجريناها في نيويورك مع مديري وول ستريت والمسئولين في البورصة. وتحدث سي كين مع رؤساء بورصات التعاملات الآجلة في السلع وشركات الأوراق المالية بشيكاغو. وأبلغني بوب پاري بما يسمعه من رؤساء صناعة الادخار والإقراض الذين كان يتخذون من الساحل الغربي مركزاً رئيسياً لهم.

إن وظيفة بنك الاحتياط الفدرالي أثناء ذعر سوق الأوراق المالية هو الحيلولة دون حدوث شلل مالي. وهو حالة من الفوضى تتوقف فيها الأعمال التجارية والبنوك عن دفع ما تدين به لبعضها ويتوقف الاقتصاد ببطء. وكان إلحاح الوضع وخطورته واضحين للأشخاص الكبار الذين كانوا معي على التليفون تلك الليلة. فحتى إذا لم تزدد الأسواق سوءاً، فإن النظام سوف يظل مترنحاً لأسابيع. وقد بدأنا في بحث الطرق التي يمكن أن نوفر بها السيولة للمؤسسات الكبيرة التي سينفد منها النقد. وبالرغم من ذلك، لم يفهم كل شبابنا خطورة الأزمة. فعندما ناقشنا البيان العام الذي سيصدره بنك الاحتياط الفدرالي قال أحدهم: «ربما نبالغ في رد فعلنا. لم لا ننتظر بضعة أيام ونرى ما يحدث؟».

بالرغم من كوني جديداً في تلك الوظيفة، فقد كنت دارساً للتاريخ المالي لفترة طويلة بالقدر الذي لا يجعلني أرى في هذا الكلام أي منطق. وكانت تلك هي اللحظة التي تحدثت فيها بحدة مع أي شخص في تلك الليلة. فقد قلت له: «لست بحاجة إلى الانتظار كي ترى ما يحدث. فنحن نعرف ما يجري». ثم عدت وقلت: «هل تعرف ما الذي يقوله الناس عن الإصابة بطلق ناري؟ إنك تشعر بأنك ثُقبت، ولكن الرض يكون من الشدة بحيث لا تشعر بالألم في الحال. سوف نشعر بالألم بعد أربع وعشرين أو ثمان وأربعين ساعة».

عندما انتهت المناقشة كان واضحاً أن اليوم التالي سيكون زاخراً بقرارات مهمة. حرص جيري كوريجان أن يقول لي بحزن: «أنت على حق يا آلان. فالأمر كله فوق أكتافك». وجيري شخصية جامدة ولم أستطع معرفة ما إذا كان يقصد بذلك التشجيع أو كان يقوله من باب التحدي للرئيس الجديد. وما كان مني إلا أن قلت له: «شكراً يا دكتور كوريجان».

لم أكن أميل إلى الذعر، لأنني كنت أفهم طبيعة المشاكل التي سوف نواجهها. ومع ذلك فعندما وضعت سماعة التليفون في منتصف الليل تساءلت إن كان سيمكنني النوم. سوف يكون ذلك الاختبار الحقيقي. قلت لنفسي: «سنرى الآن من أي معدن أنت». دخلت الفراش وأفخر بأنني نمت خمس ساعات كاملة.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وبينما كنا نصوغ البيان العام لبنك الاحتياط الفدرالي، قاطعتنا عاملة التليفون بالفندق بمكالمة من البيت الأبيض. كان هوارد بيكر كبير موظفي الرئيس ريجان. ولأني أعرف هوارد منذ مدة طويلة. فقد تصرفت وكأنه ليس هناك شيء غير عادي يجري. قلت: «صباح الخير يا سناتور. ما الذي يمكنني عمله لك؟» فقال متصنعاً التشكي «أنجدنا! أين أنت؟».

أجبته: «في دالاس. هل هناك ما يزعجك؟». والمعروف أن معالجة رد فعل الإدارة تجاه أي أزمة من أزمات وول ستريت هي في العادة وظيفة وزير الخزانة. ولكن جيم بيكر كان في أوروبا يحاول العودة، ولم يكن هوارد يرغب في التعامل مع تلك الأزمة بمفرده. وافقت على إلغاء إلقاء كلمتي والعودة إلى واشنطن. وكان هذا هو ما أميل إليه على أي الأحوال: لأنه في ضوء هبوط السوق بمقدار ٥٠٨ نقطة كانت العودة تبدو أفضل طريقة لطمأنة رجال البنوك أن بنك الاحتياط الفدرالي يأخذ الأمور مأخذ الجد. وأرسل بيكر طائرة تنفيذية خاصة كي تعود بي.

تقلبت الأسواق في ذلك اليوم تقلباً شديداً. جلس مانلي جونسون في مركز عملياتنا البديل حيث أبلغني أولا بأول بما يجري وأنا على الطائرة. وبعد أن ركبت السيارة في قاعدة آندروز الجوية قال لي إن بورصة نيويورك اتصلت لتبلغنا بأنها تعتزم الإغلاق بعد ساعة. وكان التعامل على الأسهم الرئيسية قد توقف لعدم وجود مشترين. قلت «سوف يفجر ذلك الأمر بالنسبة للكل. إذا أغلقوا ستقع الكارثة الفعلية». فإن إغلاق البورصة أثناء انهيار الأسعار يضاعف ألم المستثمرين فحسب. ومهما كانت خسائر المستثمرين مخيفة على الورق، فمادامت السوق مفتوحة فإنهم يعرفون باستمرار أن بإمكانهم الخروج. ولكن إذا أغلقت المخرج جعلت الخوف يتفاقم. كما أن إعادة التعامل بعد ذلك تكون على قدر كبير من الصعوبة. لأنه لا أحد يعلم ما ينبغي أن تكون عليه الأسعار، ولا يرغب أحد في أن يكون أول من يعرض الشراء. ويمكن أن تستغرق عملية الإحياء أياماً عديدة. والمخاطرة هي أنه أثناء ذلك سوف يتوقف النظام المالي كله: وسوف يعاني الاقتصاد من صدمة تصيبه بالشلل. ولم يكن هناك الكثير مما يمكننا عمله لمنع المسئولين في البورصة من إغلاقها. ولكن السوق أنقذتنا بنفسها. فخلال تلك الستين دقيقة تحقق من تعاملات الشراء ما يكفي لجعل بورصة نيويورك تعلق خطتها.

كانت «الست والثلاثون ساعة التالية كثيفة. وقد مزحت قائلاً إنني أشعر كأني عامل لصق ورق له سبع أذرع، أنتقل من تليفون الى آخر، متحدثاً إلى البورصة، وإلى تعاملات شيكاغو الآجلة، والعديد من فروع بنك الاحتياط الفدرالي. وكان أكثر محادثاتي عذاباً مع الممولين ورجال البنوك الذين أعرفهم منذ سنوات، واللاعبين الكبار من الشركات الكبيرة جداً في أنحاء البلاد، الذين كان الخوف يخنق أصواتهم. وكان هؤلاء هم الرجال الذين كونوا الثروة والمكانة الاجتماعية عبر حياتهم العملية الطويلة وها هم يجدون أنفسهم تحت رحمة المجهول. وعادة ما لا يكون حكمك صحيحاً وأنت خائف. ولذلك قلت لهم: «اهدأوا. فالأمر من الممكن احتواؤه». وكنت أذكرهم بأن يتطلعوا إلى ما وراء الظرف الطارئ الى حيث يمكن ان تكمن مصلحة أعمالهم طويلة المدى.

هاجم بنك الاحتياط الفدرالي الأزمة على جبهتين. كان التحدي الأول الذي واجهنا هو وول ستريت: فقد كان لابد لنا من إقناع شركات الأوراق المالية الضخمة والبنوك الاستثمارية، التي كان الكثير منها يترنح نتيجة للخسائر، بألا تنسحب من القيام بالأعمال التجارية. وقد بذل جهد كبير ذلك الصباح في صياغة بياننا العام على نحو يوحي بأن بنك الاحتياط الفدرالي سيوفر شبكة الأمان للبنوك، توقعاً لأن تساعد هي بدورها في دعم الشركات المالية الأخرى. وأظن أنه كان بياناً قصيراً وموجزاً مثل خطاب جتيسبرج، وإن لم يكن بالقدر الذي كان عليه من إثارة للمشاعر: «أكد بنك الاحتياط الفدرالي اليوم، تمشياً مع مسئولياته باعتباره بنك البلاد المركزي، استعداده لأن يكون مصدر سيولة لدعم النظام الاقتصادي والمالي». ولكن مادامت الأسواق مستمرة في العمل، فلم تكن لدينا الرغبة في دعم الشركات بالنقد.

كان جيري كوريجان البطل في ذلك الجهد. فقد كانت وظيفته كرئيس لفرع بنك الاحتياط الفدرالي في نيويورك هي إقناع اللاعبين في وول ستريت بالاستمرار في الإقراض والتعامل، أي بالبقاء في اللعبة. وباعتباره شخصاً تلقى تعليمه في المدارس اليسوعية ويحظى برعاية فولكر. فقد كان رجل بنوك مركزية طوال حياته العملية: لم يكن هناك من هو أكثر منه حنكة أو يصلح أكثر منه كبيراً لمنفذي سياسة البنك المركزي. فقد كانت لجيري شخصية مسيطرة لازمة لإقناع الممولين، ومع ذلك فقد كان يفهم أنه حتى في الأزمة لابد لبنك الاحتياط الفدرالي من ممارسة ضبط النفس. فعلى سبيل المثال فإن أمر بنك من البنوك بتقديم قرض يعد استغلالاً للسلطة الحكومية ويضر بطريقة عمل السوق. وبدلاً من ذلك كان لابد لفحوى رسالة جيري إلى رجال البنوك أن تكون «نحن لا نقول لك اقرض، بل إن كل ما نطلبه هو أن تفكر في مصالح عملك ككل. تذكر فحسب أن للناس ذاكرة ممتدة، وإذا حجبت القروض عن العميل لمجرد أنك قلق بشأنه، وليس لسبب ملموس، فلن ينسى لك هذا». وفي ذلك الأسبوع أجرى كوريجان عشرات المحادثات على هذا المنوال. ورغم عدم معرفتي بالتفاصيل، فلابد أن بعض المكالمات التليفونية كان شديدة القسوة. وأنا متأكد من أنه نهش البعض.

بينما كان هذا كله يجري، كنا حريصين على استمرار توفير السيولة للنظام. وقد أمرت لجنة الأسواق المفتوحة الفدرالية المضاربين في فرع بنك الاحتياط الفدرالي بنيويورك بشراء ما قيمته مليارات الدولارات من سندات الخزانة من السوق المفتوحة. وكان أثر ذلك دوران المزيد من المال وخفض أسعار الفائدة قصيرة الأجل. ومع أننا كنا نرفع أسعار الفائدة قبل الانهيار، فها نحن الآن نخفضها للمساعدة في استمرار حركة الاقتصاد.

مع أننا بذلنا أقصى ما في وسعنا. فقد كانت هناك بضعة أمور على حافة الكارثة، تشمل في الغالب نظام الدفع. فالكثير من التعاملات أثناء يوم العمل في وول ستريت لا يجري في وقت واحد: ذلك أن الشركات تقوم بأعمال تجارية مع عملاء بعضها البعض، على سبيل المثال: ثم تقوم بتسوية الحسابات في نهاية اليوم. وفي صباح يوم الأربعاء كان من المقرر أن تسدد شركة جولدمان ساكس مبلغ ٧٠٠ مليون دولار لبنك كونتيننتال إلينوي في شيكاغو، إلا أنها امتنعت في البداية عن الدفع انتظاراً لتسلم مبالغ متوقعة من مصادر أخرى. وبعد ذلك أعادت جولدمان النظر في الأمر وقامت بالدفع. ولو امتنعت جولدمان عن تسليم هذا المبلغ الكبير لأطلقت شلال الخسائر عبر السوق. وعقب ذلك أسر لي مسئول كبير في جولدمان بأنه لو توقعت الشركة مصاعب الأسابيع التالية لما دفعت. وكان يشك في أنه في مثل هذه الأزمات

إغلاق البورصة أثناء انهيار الأسعار يضاعف ألـم المستثمرين. ومهمـا كانت خسائر المستثمرين مخيفة على الورق، فمادامت الســوق مفتوحــة فإنهــم يعرفــون باستمرار أن بإمكانهـم الخـروج

مستقبلاً سوف تفكر جولدمان مرتين بشأن القيام بمثل هذه المدفوعات غير المتبادلة.

ذهبنا كذلك للعمل على الجبهة السياسية. فقد أمضيت ساعة يوم الثلاثاء في وزارة الخزانة بمجرد عودة جيم بيكر (فقد تمكن من أن يستقل طائرة كونكورد). كان جالساً في مكتبه مع هوارد بيكر وغيره من المسئولين. وكان رد الفعل المبدئي للرئيس ريجان تجاه عصيبة وول ستريت يوم الاثنين هي الحديث بتفاؤل عن الاقتصاد. فقد قال: «بما انه يسير باطراد. فلا أظن أنه ينبغي لأحد ان يصيبه الفزع، لأن كل المؤشرات الاقتصادية متينة». وكان المقصود بذلك أن يكون مطمئناً للناس. ولكنه بدا في ضوء الأحداث على نحو مثير للقلق مثل إعلان هربرت هوفر بعد الجمعة الأسود أن الاقتصاد «سليم ومزدهر». التقينا بعد ظهر يوم الثلاثاء بريجان في البيت الأبيض للإيحاء بأنه يجرب مساراً مختلفاً. قلت أنا وجيم بيكر إن أكثر الردود فائدة هو عرض التعاون مع الكونجرس في تقليل العجز. حيث ان ذلك أحد المخاطر الاقتصادية طويلة المدى التي تزعج وول ستريت. ومع أن ريجان كان على خلاف مع الأغلبية الديمقراطية، فقد وافق على أن هذا أمر منطقي. وعصر ذلك اليوم أبلغ الصحفيين أنه سوف يأخذ في اعتباره أي اقتراح للميزانية يقدمه الكونجرس، باستثناء تخفيض الضمان الاجتماعي. ومع ان تلك المبادرة لم تؤد إلى شيء، فقد ساعدت على تهدئة الأسواق.

كنا ندير مركز العمليات على مدار الساعة. وتتبعنا الأسواق في اليابان وأوروبا، وكنا في الصباح الباكر من كل يوم تجمع أسعار التعامل في أسهم الشركات الأمريكية في البورصات الأوروبية وتكون متوسط داو جونز للشركات الصناعية الكبرى للحصول على رؤية مسبقة لما يرجح أن تكون عليه أسواق نيويورك عند افتتاحها. واستغرق الأمر أسبوعاً كي تتلاشى الأزمات كلها، وإن توارى معظمها عن الرؤية العامة. فعلى سبيل المثال، كادت سوق الخيارات في شيكاغو أن تنهار بعد أيام من انهيار البورصة عندما نفد ما لدى أكبر شركات تداول الأوراق المالية بها من نقد. ساعد فرع بنك الاحتياط الفدرالي في شيكاغو في هندسة حل تلك الأزمة. وشيئاً فشيئاً استقرت الأسعار في الأسواق المختلفة، وبحلول بداية شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عاد أعضاء فريق إدارة الأزمة إلى عملهم المعتاد.

على عكس مخاوف الجميع، ظل الاقتصاد على ثباته، بل الواقع أنه كان ينمو بمعدل ٢ بالمائة سنوياً في الربع الأول من عام ١٩٨٨ ومعدل متسارع مقداره ٥ بالمائة في الربع الثاني. وفي بداية عام ١٩٨٨ كان مؤشر داو جونز قد استقر عند حوالي ٢٠٠٠ نقطة، ليعود بذلك إلى ما كان عليه في بداية ١٩٨٧، واستأنفت الأسهم الارتفاع الأكثر اعتدالاً بكثير، والأكثر استدامة. ودخل النمو الاقتصادي عامه الخامس على التوالي. ولم يكن في ذلك عزاء للمضاربين الذين أفلسوا، أو عشرات بيوت السمسرة الصغيرة التي فشلت، أما الأشخاص العاديون فلم يضرهم شيء.

ولو عدنا بالنظر إلى الوراء، لكان ذلك أحد التجليات المبكرة للمرونة الاقتصادية التي سوف تبرز في السنوات التالية.

ليس بنك الاحتياط الفدرالي والبيت الأبيض حليفين على نحو آلي. ذلك أنه مع التكليف الرسمي الحديث لبنك الاحتياط الفدرالي في عام ١٩٣٥، حرص الكونجرس حرصاً شديداً على حمايته من تأثير العملية السياسية. وبينما يعين رئيس الولايات المتحدة محافظي بنك الاحتياط المركزي، فإن مناصبهم شبه دائمة. ذلك أن أعضاء المجلس يخدمون فترات مدتها أربعة عشر عاماً. بما يزيد على أي معينين آخرين باستثناء قضاة المحكمة العليا. بل إن رئاسة المجلس نفسها تُعين لمدة أربع عشرة سنة. ولكن الرئيس لا يمكنه عمل الكثير بدون تصويت أعضاء المجلس. وبينما يجب على بنك الاحتياط الفدرالي أن يرفع تقريراً مرتين في السنة للكونجرس، فهو يتحكم في موارده المالية بتمويل نفسه من دخل الفوائد التي تحققها سندات الخزانة وغيرها من الأصول التي بحوزته. ويعطي هذا كله بنك الاحتياط المركزي الحرية في التركيز على مهمته القانونية، وهي إيجاد الظروف المالية اللازمة لأقصى قدر ممكن من النمو المستدام طويل المدى والتوظيف. ويرى بنك الاحتياط الفدرالي ومعظم الاقتصاديين أن الظرف الضروري لأقصى قدر ممكن من النمو الاقتصادي المستدام هو الأسعار المستقرة. ويعني هذا من الناحية العملية سياسات بنك الاحتياط الفدرالي التي تحتوي الضغوط التضخمية التي تتجاوز دورة الانتخابات الحالية.

ليس مستغرباً أن الساسة غالباً ما ينظرون إلى بنك الاحتياط الفدرالي على أنه عقبة. فقد ترغب أنفسهم في التركيز على ازدهار أمريكا طويل المدى، غير أنهم أكثر خضوعاً للمطالب الحالية. ومن المحتم أن هذا كان ينعكس على أفضليات السياسة الاقتصادية. فإذا كان الاقتصاد يتوسع فإنهم يريدون أن يكون توسعه أسرع، وإذا كانوا يرون سعر فائدة، فإنهم يريدونه أن يكون أدنى. وهنا يتدخل الضبط النقدي لبنك الاحتياط الفدرالي. وكما يزعمون فإن ويليام ماكتشنزي مارتن الابن، رئيس البنك الأسطوري في الخمسينيات والستينيات، قال إن دور بنك الاحتياط الفدرالي هو أن يأمر «برفع وعاء شراب البنش بمجرد سريان الدفء والحرارة في الحفل».

يمكنك سماع ذلك الإحباط في صوت نائب الرئيس جورج هربرت ووكر بوش في ربيع عام ١٩٨٨ بينما كان يقوم بحملة ترشيح الحزب الجمهوري لانتخابات الرئاسة. فقد قال للصحفيين إن لديه «كلمة تحذير» لبنك الاحتياط الفدرالي: «لا أريد أن أراهم يتعمدون (الخط) الذي يتبط بالنمو الاقتصادي ويقيده».

الواقع أن التقييد هو ما كنا نقوم به. فما إن اتضح أن انهيار سوق الأسهم لم يصب الاقتصاد بأضرار خطيرة حتى بدأت لجنة الأسواق الفدرالية المفتوحة رفع سعر الفائدة الأساسي في مارس (آذار). وقد فعلنا ذلك لأن الأدلة أخذت تتراكم من جديد مشيرة إلى أن ضغوط التضخم تتزايد وأن انتعاش عهد ريجان الطويل بلغ حده الأقصى: فالمصانع ممتلئة. وعدد العاطلين عن العمل في أدنى حد له خلال ثماني سنوات. واستمر ذلك التقييد حتى الصيف، وبحلول شهر أغسطس (آب) كان من الضروري رفع سعر الخصم كذلك.

وبما أن سعر الخصم يتم الإعلان عنه علانية، على عكس سعر الفائدة الأساسي، فإن رفعه يكون أكثر تفجيراً من الناحية السياسية. وأطلق مسئولو بنك الاحتياط الفدرالي على هذا الإجراء «دق الناقوس». وما كان لتوقيت حملة بوش أن يكون أسوأ مما كان عليه. فقد كان بوش يرغب في الصعود على نجاح ريجان، وكان متقدماً على مرشح الحزب الديمقراطي مايكل دوكاكيس بسبع عشرة نقطة في استطلاعات الرأي. وكان فريق حملة نائب الرئيس شديد الحساسية لأية أخبار قد تشير إلى تباطؤ الاقتصاد لئلا تطغى لمعان الإدارة. ولذلك فعندما صوتنا على رفع سعر الفائدة قبل بضعة أيام فقط من مؤتمر الحزب الجمهوري، كنا ندرك أن الناس ستغضب.

أنا مؤمن بإبلاغ الأخبار السيئة بشكل شخصي وفي السر وعلى نحو مسبق. وخاصة في واشنطن، حيث لا يحب المسئولون أن يفاجأوا بما لا يسرهم ويحتاجون إلى وقت كي يقرروا ما يجب قوله علانية. ولكنني لا أجد متعة في القيام بذلك، غير أنه ليس هناك بديل إذا كنت تريد استمرار العلاقة بعد ذلك. ولذلك فبمجرد انتهائنا من التصويت غادرت المكتب واتجهت إلى وزارة الخزانة لرؤية جيم بيكر. وكان قد أعلن للتو أنه سيترك منصبه كوزير للخزانة ليرأس موظفي حملة بوش. وكان جيم صديقنا قديماً، وكان لابد من إبلاغه باعتباره وزيراً للخزانة.

عندما جلسنا في مكتبه نظرت في عينيه وقلت: «أنا متأكد من أنه لن يسعدك هذا الأمر، ولكن بعد مناقشات طويلة لكل العوامل، وأوردت بعضها، توصلنا إلى قرار برفع سعر الخصم. وسوف يعلن بعد ساعة». وأضفت أن الزيادة لن تكون ربع النقطة بالمائة كما هو معتاد، بل ضعف ذلك: أي من ٦ بالمائة إلى ٥، ٦ بالمائة.

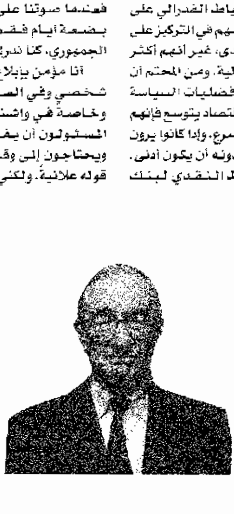
اعتدل بيكر في كرسيه وضرب بطنه بقبضته، وتمتم قائلاً: «لقد ضربتموني هنا».

قلت: «معذرة يا جيم».

بعد ذلك أطلق لنفسه العنان وهاجمني أنا وبنك الاحتياط الفدرالي لعدم استجابتنا لحاجات البلاد الحقيقية، وعبر عن أية أفكار غاضبة أخرى وردت على ذهنه. ولكوننا صديقين منذ فترة طويلة، كنت أعلم أن ذلك الانتقاد العنيف مجرد دور. ولذلك فإنه عندما توقف بعد دقيقة ليلتقط أنفاسه ابتسمت له. ثم ضحك هو وقال: «أعلم أنك كنت مضطراً لعمل ذلك». وبعد بضعة أيام أقر علانية بأن زيادة سعر الفائدة ضرورية من أجل استقرار النظام طويل المدى. وأضاف قائلاً: «على المدى المتوسط والطويل، سوف يكون ذلك شيئاً طيباً بالنسبة للاقتصاد».

عندما فاز جورج بوش في ذلك الخريف تمنيت أن يكون بنك الاحتياط الفدرالي وإدارته على وفاق. فقد كان الكل يعلم أن أي شخص يأتي بعد ريجان سوف يواجه تحديات اقتصادية: ليس هبوطاً محتملاً في دورة الأعمال التجارية، بل عجز غير عادي وزيادة سريعة في الدين القومي. وكنت أرى أن بوش بالغ بشكل كبير حين أعلن في خطاب قبوله للترشيح في مؤتمر الحزب الجمهوري بقوله: «اقرأوا شفتي: لا ضرائب جديدة». كان ذلك سطراً لا ينسى، ولكنه سوف يضطر في وقت ما إلى معالجة العجز. وكان قد ربط إحدى يديه وراء ظهره.

دهش الناس من الشمول الذي استبدلت به الإدارة الجديدة من عينهم ريجان. وقال صديقي مارتن أندرسون الذي كان قد مضى وقت طويل على انتقاله من واشنطن عائداً إلى معهد هوفر في كاليفورنيا مازحاً إن بوش أقال من الجمهوريين أكثر ممن كان دوكاكيس سيقيلهم. إلا أنني قلت له إن ذلك لا يزعجني. فهو من حق الرئيس الجديد، وإن تلك الإجراءات لن تؤثر على بنك الاحتياط الفدرالي. بالإضافة إلى أن الفريق الاقتصادي الكبير القادم - وزير الخزانة نيكولاس برادي، ومدير الميزانية ريتشارد دارمان، ورئيس مجلس المستشارين الاقتصاديين مايكل بوسكين، وغيرهم - معارف مهنيون



وأصدقاء لي منذ زمن بعيد. (انتقل جيم بيكر بالطبع إلى منصب وزير الخارجية).

كان همي الأساسي، الذي شاركني فيه كثيرون من كبار المسئولين في بنك الاحتياط الفدرالي، هو أن تهاجم الإدارة الجديدة العجز على الفور. بينما لا يزال الاقتصاد قويًا بما يكفي لامتصاص صدمة خفض الإنفاق الفدرالي. وللعجز الكبير أثر خبيث، فعندما تفرط الحكومة في الإنفاق يتحتم عليها الاقتراض كي تسوي دفاترها. وهي تقترض من خلال بيع سندات الخزانة التي تبتلع رأس المال الذي كان بالإمكان استثماره في الاقتصاد الخاص لولا ذلك. وعجزنا آخذ في الازدياد - ما يزيد على ١٥٠ مليار دولار سنويًا لمدة خمس سنوات - على نحو يقوض الاقتصاد. وقد ألقيت الضوء على تلك المشكلة بعيد الانتخابات، حيث شهدت أمام لجنة الاقتصاد القومي، وهي لجنة ثنائية الأحزاب أنشأها ريجان في أعقاب انهيار ١٩٨٧. وقلت لهم إن العجز لم يعد مشكلة مستقبلية، وقلت لهم إن المدى الطويل يتحول بسرعة إلى مدى قصير. وإذا لم نتصرف على الفور سيكون الإحساس بالآثار أكبر وعلى نحو ما من المباشرة. والأمر غير المستغرب هو أنه بسبب تعهد بوش بعدم فرض ضرائب جديدة وقعت اللجنة في مأزق، حيث قال الجمهوريون إنه ينبغي خفض الإنفاق ورأى الديمقراطيون أنه ينبغي زيادة الضرائب. ولم يكن لنا أي تأثير.

وجدت نفسي بسرعة داخل الصراع العلني نفسه الذي كان لنا مع الرئيس بوش أثناء الحملة. وفي يناير (كانون الثاني) شهدت أمام لجنة البنوك بمجلس النواب بأن احتمالات التضخم لا تزال مرتفعة وإن سياسة بنك الاحتياط الفدرالي ستكون الميل إلى التشديد أكثر من التحفيز. وفي اليوم التالي عندما كان الرئيس يلتقي بالصحفيين تحدى هذا الاتجاه قائلا: «لا أريد أن أرانا نتحرك بقوة ضد التضخم على النحو الذي يعوق النمو». ومن المعتاد أن تبث تلك الخلافات ثم تحل وراء الكواليس. وكنت أتطلع إلى بناء علاقات التعاون نفسها مع البيت الأبيض كما كان عليه الحال أثناء إدارة فورد وعرفت أنها كانت موجودة أحيانًا بين ريجان وبول فولكر. ولكن ما كان مقدرًا لها أن تكون كذلك. فقد حدثت أمور كبيرة في فترة رئاسة بوش: سقوط سور برلين، وانتهاء الحرب الباردة، والانتصار الساحق في حرب الخليج، ومفاوضات اتفاقية النافتا لتحرير تجارة أمريكا الشمالية. ولكن الاقتصاد كان نقطة الضعف: ونتيجة لذلك انتهى بنا الحال إلى علاقة رهيبة.

واجه بوش عجزًا تجاريًا يزداد سوءًا بالإضافة إلى ظاهرة انتقال المصانع إلى الخارج التي كانت لها أضرارها من الناحية السياسية. وأجبرته الضغوط من أجل خفض العجز الفدرالي في يوليو (تموز) من عام ١٩٩٠ على قبول تسوية للميزانية أخل فيها بتعهده عدم فرض ضرائب جديدة. وبعد بضعة أيام كان غزو العراق للكويت. وأثبتت حرب الخليج التي أعقبت ذلك أن لها أثرًا عظيمًا على شعبيته. إلا أن الأزمة ألقت كذلك بالاقتصاد إلى الكساد الذي كنا نخشاه، حيث ارتفعت أسعار النفط ونال الشك من ثقة المستهلكين. والأمر الأسوأ من ذلك هو أن الانتعاش الذي بدأ في أوائل عام ١٩٩١ كان بطيئًا على نحو غير معتاد وهزيلاً. وكانت غالبية الأحداث تتعدى سيطرة أي شخص. ولكنها جعلت بالرغم من ذلك «الاقتصاد، ذلك الغبي» سبيلاً يهزم عبره بيل كلينتون بوش في انتخابات ١٩٩٢، بالرغم من نمو الاقتصاد في ذلك العام بنسبة ٤.١ بالمائة.

هناك عاملان عقدا الصورة الاقتصادية إلى حد بعيد. كان العامل الأول هو انهيار صناعة الادخار الأمريكية، مما أحدث استنزافًا كبيرًا غير متوقع في الميزانية الفدرالية. فقد تعرضت شركات الادخار والإقراض، التي أنشئت بشكلها الحديث لتمويل بناء الضواحي بعد الحرب العالمية الثانية، لموجات من الفشل على مدى عقد من الزمان. وقضى تضخم السبعينيات، مقترنًا بإزالة القيود الذي أسيئت إدارتها، والتلاعب في نهاية الأمر، على المئات منها. وكما كان متصورًا في الأصل، فقد كانت شركات الادخار والإقراض آلة إقراض عقاري بسيطة، لا تختلف كثيرًا عن شركة بيلي بيلدنج أند لون التي يديرها جيمي ستيوارت في It's a Wonderful Life. والمعتاد أن يودع العملاء المال في حسابات دفاتر التوفير التي كانت تدفع فائدة مقدارها ٣ بالمائة فقط ولكنها مضمونة على المستوى الفدرالي؛ وبعد ذلك يمكن لشركات الادخار والإقراض أن تقرض تلك الأموال في صورة قروض عقارية لمدة ثلاثين سنة بفائدة قدرها ٦ بالمائة. ونتيجة لذلك كانت شركات الادخار والإقراض لعقود مَنْجمًا للأموال يعوَّل عليه. وتضخمت صناعة الادخار حيث كان هناك أكثر من ٣٦٠٠ مؤسسة بلغت أصولها في عام ١٩٨٧ ١.٥ تريليون دولار.

ولكن التضخم كان معناه القضاء على ذلك الوضع المرتب، إذ دفع بأسعار الفائدة قصيرة الأجل وطويلة الأجل إلى الارتفاع الحاد، مما جعل شركات الادخار والإقراض في حالة رهيبة من الضيق، وعلى الفور ارتفعت تكلفة الودائع بالنسبة لشركات الادخار والإقراض التقليدية ارتفاعًا كبيرًا، لأن دوران محافظ القروض العقارية شديد البطء، والعائدات تتأخر. وبعد قليل تكبد العديد من شركات الادخار والإقراض الخسائر. وبحلول عام ١٩٨٩ كان قد جرى تصفية الغالبية العظمى منها بالفعل؛ ولو باعت كل قروضها لما توفر لديها المال الكافي لتسديد أموال مودعيها جميعًا.

حاول الكونجرس مرارًا دعم الصناعة ولكنه نجح في المقام الأول في جعل المشكلة تزداد سوءًا. وفي فترة انتعاش البناء في عهد ريجان، رفع مستوى تأمين الودائع الذي يموله دافعو الضرائب (من ٤٠ ألف دولار إلى ١٠٠ ألف دولار) وخفف القيود على أنواع القروض التي يمكن أن تقدمها شركات الادخار والإقراض. ولم يمض وقت طويل حتى كان مديرو شركات الادخار والإقراض يمولون ناطحات السحاب والمنتجعات، وكثيرًا ما كانوا يخسرون أموالهم.

وانتهز آخرون فرصة القواعد المخففة كي يتلاعبوا، وأشهر هؤلاء تشارلز كيتنج، وهو مستثمر من الساحل الغربي انتهى به الحال في السجن بتهمة الاحتيال والتلاعب لتضليله المستثمرين من خلال تعاملات عقارية زائفة وبيع سندات عالية المخاطر لا قيمة لها. وقيل كذلك إن موظفي المبيعات في شركة لنكولن سيفينجز التابعة لكيتنج كانوا يقنعون الناس البسطاء بنقل مدخراتهم من حسابات صندوق التوفير إلى مشروعات غير مضمونة تتسم بالمخاطرة يسيطر هو عليها. وعندما انهار العمل بلغت التكلفة التي تحملها دافعو الضرائب لإزالة ما أحدثه من فوضى ٣.٤ مليار دولار؛ وخسر خمسة وعشرين ألفًا من مشتري السندات ما تقدر قيمته بمائتين وخمسين مليون دولار. وساعد ما كشف في عام ١٩٩٠ عن كون كيتنج وغيره من مديري شركات الادخار والإقراض مساهمين كبارًا في حملات انتخابات مجلس الشيوخ على حدوث دراما مكتملة الملامح.

تورطت على نحو معقد في تلك الفوضى ليس بسبب وظيفتي فحسب، بل كذلك بسبب دراسة كنت قد أجريتها حين كنت لا أزال مستشارًا خاصًا. فقبل ذلك بسنوات، وفي تاونسند- جرينسبان، استأجرتني شركة محاماة كبيرة تمثل كيتنج لتقييم ما إذا كان الوضع المالي لشركة لنكولن صحيحًا بالقدر الذي يكفي للسماح لها بالاستثمار بشكل مباشر في العقارات. وقد انتهيت إلى أنه طبقًا لموازنتها عالية السيولة يمكنها القيام بذلك. وكان ذلك قبل قيام كيتنج بإدخال زيادات خطيرة بتعزيز ميزانيته وقبل وقت طويل من كشف حقيقته كوغد. وحتى يومنا هذا لا أعرف ما إذا كان قد بدأ ارتكاب الجرائم في الوقت الذي بدأت فيه بحثي أم لا. وقد طفا تقرير على السطح عندما بدأت لجنة الأخلاق بمجلس الشيوخ جلسات الاستماع حول صلات كيتنج بخمسة من أعضاء مجلس الشيوخ باتوا يعرفون بـ «خمسة كيتنج». وشهد جون ماكين، وهو أحد من جرى التحقيق معهم، بأن تقييمي ساعد على طمأنته بشأن كيتنج. وقد أبلغت صحيفة «نيويورك تايمز» أنني شعرت بحرج نتيجة لفشلي في التنبؤ بما كانت الشركة ستؤول إليه، وأضفت قائلاً: إنني «كنت مخطئًا بشأن لنكولن».

كان ما شعرت به من ألم بسبب تلك الواقعة مضاعفًا لأنها تسببت في متاعب لأندريه. ففي ذلك الوقت كانت قد أصبحت كبيرة مراسلي الكونجرس في شبكتها، وكانت تغطي فضيحة كيتنج. وكانت أندريه تولي أقصى اهتمام لما أسمته الجدار الناري بين عملي وعملها عندما تعمقت علاقتنا. فهي على سبيل المثال لم تحضر أيا من شهاداتي في الكونجرس. وقد كانت تجاهد لتحاشي مجرد ظهور تضارب المصالح. وقد وضعت جلسات استماع كيتنج هذا الأمر في موضع الاختبار. وقررت أندريه بعد تردد إخراج نفسها من القصة بينما كانت وسائل الإعلام تبحث صلتي بالقضية.

لم يعرف أحد مقدار تكلفة إزالة مخلفات فوضى صناعة الادخار التي سيتحملها دافعو الضرائب. كان التقدير بمئات المليارات من الدولارات. وعندما تقدم العمل كان استنزاف الخزانة متصورًا، مما زاد التحدي المالي سوءًا بالنسبة للرئيس بوش. ووقعت مهمة السعي للتعويض بعض الخسائر على عاتق هيئة تصفية الصناديق التي كان الكونجرس قد أنشأها في عام ١٩٨٩ لتصفية أصول الشركات المنهارة. وكنت ضمن مجلس مراقبيها الذي يرأسه وزير الخزانة برادي ويضم جاك كيمب، الذي كان حينذاك وزيرًا للإسكان والتنمية الحضرية، وصاحب شركة التطوير العقاري روبرت لارسون، ومحافظ بنك الاحتياط الفدرالي السابق فليب جاكسون. وكانت تعمل في هيئة حل الصناديق هيئة من العاملين المحترفين، ولكن بالنسبة لي كان وجودي في أوائل عام ١٩٩١ ضمن مجلس المراقبة يشبه تقريبًا القيام بوظيفة ثانية. فقد كنت أمضي قدرًا كبيرًا من الوقت في مطالعة الوثائق المفصلة بإمعان وأحضر الاجتماعات. وكانت أعداد ضخمة من الأملاك غير المسكونة التي تديرها تتدهور بسرعة نتيجة لعدم الصيانة، وما لم نتحرك بسرعة للتخلص منها فسوف ينتهي بنا الحال بعملية شطب ديون ضخمة. وبالإضافة إلى ذلك كان من المحتمل أن تُلقى على كاهلنا مسئولية تحديد قيمة فاتورة حل الكثير منها. وظللت أجمع التكاليف في ذهني. ولم تكن تلك فكرة لطيفة.

كانت القروض العقارية لشركات الادخار والإقراض التي لا تزال تدفع فوائد تعاني من هبوط الأسعار. ولكن هيئة تصفية الصناديق كانت قد ركزت على الأصول التي

عندما فاز جورج بوش في ذلك الخريف تمنيت أن يكون بنك الاحتياط الفدرالي وإدارته على وفاق. فقد كان الكل يعلم أن أي شخص يأتي بعد ريجان سوف يواجه تحديات اقتصادية

بدا أنه ليس هناك من يريدها: وهي المراكز التجارية التي لم يكتمل بناؤها في الصحراء، وملاعب الجولف، والمجمعات السكنية الرديئة في الأسواق السكنية المكتظة بالمباني، والمباني الإدارية شبه الفارغة التي أعيد تمليكها، ومناجم اليورانيوم. وقد فاق مجال المشكلة الخيال: إذ حسب بيل سيدمان، الذي كان يرأس كلاً من هيئة تصفية الصناديق وهيئة التأمين على الودائع الفدرالية أنه إذا صفت هيئة تصفية الصناديق ما قيمته مليون دولار من الأصول في اليوم الواحد، فسوف تحتاج إلى ثلاثمائة سنة لبيعها جميعاً. ومن الواضح أننا كنا بحاجة إلى مقاربة مختلفة.

لست متأكداً من هو صاحب فكرة المبيعات الخلاقة. فعندما قدمناها في النهاية كانت الخطة هي تجميع الأملاك في لوطات قيمة كل منها مليار دولار. وبالنسبة للحزمة الأولى التي عرضناها في المزاد، كنا نحاول بشكل خاص اجتذاب عطاءات بضعة مشترين مؤهلين: هم في الغالب شركات لها سجل منجزات يتضمن تحسين العقارات المريضة. ولا تعني صفة مؤهلين، بالضرورة، مثاليين أخلاقياً. فقد شملت المجموعات التي قاربناها من يسمون بالصناديق والمضاربين الرماميين، الذين ربما أجروا عملية شد وجه لسمعتهم.

لم يتم تنفيذ سوى بضعة عطاءات، وكان المبلغ الذي حققته الحزمة صغيراً نسبياً. ما يزيد قليلاً على ٥٠٠ مليون دولار. بل إن من فازت عطاءاتهم كان عليهم أن يدفعوا مقدماً عبارة عن جزء من السعر على أن يسددوا أقساطاً بناءً على مقدار النقد الذي تولده العقارات. وبدت الصفقة وكأنها منحة مجانية. وكما توقعنا، استشاط المراقبون العامون والكونجرس غضباً. ولكن ليس هناك ما هو مثل وجود صفقة لتحفيز الطلب. فقد اندفعت أعداد كبيرة من المستثمرين الجشعين للدخول في العملية، وارتفعت أسعار لوطات العقارات المتبقية ارتفاعاً كبيراً. وخلال بضعة أشهر كانت أرفف هيئة تصفية الصناديق قد خلت تماماً. وفي الوقت الذي حلت فيه كانت قد أتمت تصفية ٧٤٤ شركة ادخار وإقراض، أكثر من ربع الصناعة. ولكن بفضل مبيعات الأصول إلى حد ما، كانت قيمة الفاتورة المقدمة لدافعي الضرائب ٨٧ مليار دولار، وهو ما يقل كثيراً عما كان يُخشى منه في الأصل.

كانت البنوك التجارية كذلك في مشكلة خطيرة. وكان ذلك صداعاً أكبر من صداع شركات الادخار والإقراض، لأن البنوك تمثل قطاعاً أكثر وأهم من قطاعات الاقتصاد. وكانت أواخر الثمانينيات أسوأ فترات البنوك من الكساد العظيم: فقد فشل المئات من البنوك صغيرة ومتوسطة الحجم، وكانت البنوك العملاقة مثل سيتي بانك وتشيس مانهاتن في وضع مؤلم. وكانت مشكلتها، كما هو الحال بالنسبة لشركات الادخار والإقراض، هي التوسع أكثر من اللازم في إقراض المضاربين: ففي أوائل الثمانينيات قامرت البنوك الكبرى على ديون أمريكا اللاتينية، وكما هو حال المقامرين الهواة الذين يحاولون تعويض خسارتهم، راهنت أكثر بجر الصناعة كلها إلى الانغماس في إقراض العقارات التجارية.

عز انهيار الانتعاش العقاري الحتمي البنوك بالفعل. فقد جعل الشك في قيمة الضمانات العقارية التي تضمن قروضها رجال البنوك غير متأكدين من مقدار رأس المال الذي لديهم. مما جعلهم مشلولين ومفزوعين ومترددين في تقديم المزيد من القروض. واستطاعت الأعمال التجارية الكبيرة الحصول على مصادر أخرى للتمويل، كأسواق الدين المبتكرة التي ظهرت في وول ستريت، وهي الظاهرة التي ساعدت على عدم تعمق كساد ١٩٩٠. غير أن المصانع والتجار الصغار ومتوسطي الحجم في أنحاء أمريكا كانوا يجدون صعوبة في الحصول حتى على القروض التجارية الروتينية. وجعل هذا بدوره القضاء على الكساد صعباً على نحو غير عادي.

لم يبدُ أن شيئاً مما فعلناه في بنك الاحتياط الفدرالي قد أفلح. ذلك أننا كنا قد بدأنا تخفيض أسعار الفائدة قبل حدوث الركود بوقت طويل، غير أن الاقتصاد لم يعد يستجيب. ومع أننا خفضنا سعر الفائدة الأساسي ما لا يقل عن ثلاث وعشرين مرة خلال ثلاث سنوات فيما بين يوليو (تموز) ١٩٨٩ ويوليو (تموز) ١٩٩٢، فقد كان أحد أبطأ الانتعاشات المعروفة. أحسن ما يوصف به الاقتصاد الأمريكي هو أنه يتحرك للأمام، ولكن في مواجهة ريح سرعتها خمسون ميلاً في الساعة. كانت تلك هي الطريقة التي شرحت بها الموقف للحاضرين من رجال أعمال نيو إنجلاند القلقين في أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٩١. لم يمكنني أن أكون مشجعاً إلى حد كبير، لأنني لم أكن أعلم متى ينتهي تقييد القروض.

كنت أرى الرئيس بوش كل ستة أو سبعة أسابيع، في سياق اجتماع مع آخرين، ولكننا كنا نلتقي نحن الاثنين فقط أحياناً. وكنا قد عرفنا بعضنا منذ أيام فورد. بل إنه دعاني لتناول طعام الغداء في لانجلي عندما كان مديراً للاستخبارات المركزية في عام ١٩٧٦. وفي الشهور الأولى من حملة ١٩٨٠ كثيراً ما كان يمر عليّ لمناقشة قضايا السياسة الاقتصادية. وعندما كان بوش نائباً للرئيس كنت أنضم إليه كل حين في البيت الأبيض. كان ذكياً وكنا متوافقين على المستوى الشخصي. وكنت مبهوراً على نحو خاص بزوجته باربرا، التي كان لها حضور يتسم بالرهبة والحيوية. إلا أنه كان أثناء فترة رئاسته أقل تركيزاً على الاقتصاد من السياسة.

ومع أن والده عمل في وول ستريت وتخصص في الاقتصاد بجامعة يل، فهو لم يتعامل بشكل مباشر مع الأسواق. كما أنه لم يفكر في أسعار الفائدة باعتبارها من وضع قوى السوق: إذ كان يبدو أنه يعتقد أنها أمور أفضلية. ولم يكن ذلك رأياً حكيماً. وكان يفضل تفويض أمر السياسة الاقتصادية لمساعديه، وهو ما يعني أنني كنت أتعامل بشكل أساسي مع نيك برادي وديك دارمان ومايك بوسكن.

كان دارمان مدير الميزانية يشبه ديفيد ستوكمان من نواحٍ كثيرة. فقد كان مفكراً سياسياً من الطراز الأول ومؤمناً بالإدارة المالية السليمة. إلا أنه على العكس من ستوكمان كان ديك في الغالب أقل مباشرة مع الناس وتحركه الملاءمة السياسية بشكل أكبر. وبمرور الوقت تعلمت البقاء على مسافة منه.

كتب دارمان بعد سنوات أنه عارض بحماس في اجتماع مغلق بالبيت الأبيض الالتزام بتعهد عدم فرض ضرائب جديدة. وبدلاً من ذلك حاول إقناع الرئيس لمهاجمة العجز في وقت مبكر، حيث من المحتمل أنهما توصلا إلى تسوية للأمر بسرعة. ولكن الرئيس لم يكن مقتنعاً. فمع مرور أيام عام ١٩٨٩ وجد البيت الأبيض نفسه على خلاف مع الكونجرس. إذ كان عبء الدين لا يزال جاثماً على الميزانية على نحو لم يوفر للإدارة المرونة المالية التي تمكنها من معالجة الركود عندما حدث.

كانت الإدارة تلقي باللوم فيما يتعلق بالمشكلات التي نعاني منها على بنك الاحتياط الفدرالي. فمن المفترض أننا كنا نخنق الاقتصاد باستمرار تقييد عرض النقد. وقد أحسست بذلك لأول مرة في أغسطس (آب) من عام ١٩٨٩ عندما كنت أنا وأندريه نزور السناتور جون هاينز وزوجته تيريزا في منزلهما الريفي في نانتكيت. فقد كنا نشاهد برامج الحوار الصباحية وكان ديك دارمان يتحدث في برنامج Meet the Press. لم أكن ملتفتاً تماماً عندما سمعته يقول: «من المهم لرئيس البنك جرينسبان وكذلك لسائر أعضاء مجلسه ولجنة الأسواق الفدرالية المفتوحة... أن يكونوا أكثر اهتماماً بضرورة تجنب ايقاع هذا الاقتصاد في الركود. ولست متأكداً إن كانوا يدركون ذلك أم لا». كاد فنجان القهوة يسقط من يدي. قلت: «ماذا!» وعندما سمعت مقولته قلت لنفسي إنها ليست منطقية من الناحية الاقتصادية. ثم أدركت أنها يجب ألا تكون كذلك: فهذا خطاب سياسي.

لم يكن وزير المالية برادي يحب بنك الاحتياط الفدرالي كذلك. وكان هو والرئيس صديقين ويشتركان في أمور كثيرة. فكلاهما شخص ثري وعريق النسب تخرج من جامعة يل، وعضو في الجمجمة والعظام. وكان نيك قد أمضى أكثر من ثلاثة عقود في وول ستريت حيث ترقى إلى منصب رئيس مجلس إدارة بيت استثماري كبير. وقد أحضر معه إلى واشنطن عمق التجربة التجارية الواقعية وعادة القيادة.

خلال فترة إدارة بوش تعاونت أنا ونيك في الكثير من القضايا المهمة. وقد سافرنا إلى موسكو في عام ١٩٩١ وعالجنا معاً وبشكل فعال أموراً معقدة تتعلق بتنظيم البنوك والصرف الأجنبي. ولم نعمل أنا وهو معاً فحسب، بل إنه دعاني إلى أوجستا ناشونال الملعب الجولف، وكانت لي أنا وأندريه علاقات اجتماعية به وبزوجته كيتي.

ومع ذلك فقد عز رؤية الرئيس بوش الثراقبية الخاصة بالسياسة النقدية. وكان نيك يرى أن تخفيض سعر الفائدة قصيرة الأجل يبدو اقتراحاً يخلو من المخاطر: ذلك أنه إذا أغرق بنك الاحتياط الفدرالي الاقتصاد بالمال، فسوف ينمو الاقتصاد على نحو أسرع. وبطبيعة الحال كان لابد لنا من الاعتماد على دلائل المستقبل الخاصة بانفجار التضخم، ولكن إذا حدث ذلك فيمكن لبنك الاحتياط الفدرالي من كبح جماحه. ولو فعلت ما أرادوه لطالبت بتخفيض أسرع وأكبر، ولا حتفظت بلا شك بسمعتي التي منحتني إياها السوق بجدارة.

غير أن وزير الخزانة لم يكن متقبلاً للنقاش. فقد حقق، شأنه شأن الكثير من المضاربين، نجاحاً كبيراً بشجاعته: وفي مسائل مثل سياسة سعر الصرف الأجنبي كنت أجد إحساسه بالأسواق مرهفاً إلى حد بعيد. إلا أنه لم يكن واضعاً للمفاهيم، ولم يكن يميل إلى اتباع رؤية طويلة المدى. وكنت أنا ونيك نلتقي في إفطار عمل مرة كل أسبوع. وعندما يبرز موضوع السياسة النقدية كنا نلف وندور فحسب حول الموضوع.

ضاعف هذا المأزق من صعوبة مواجهة العجز والركود، لأنه كان يعني أن الإدارة تبحث باستمرار عن مقابل من بنك الاحتياط الفدرالي. وعند مناقشة مشروع قانون ميزانية ١٩٩٠، واجه الرئيس بوش في النهاية ضرورة التخلي عن تعهده بعدم فرض ضرائب جديدة. طلب مني نيك تعهداً بأن يخفض بنك الاحتياط الفدرالي أسعار الفائدة في حال الموافقة على الميزانية.

كانت الميزانية في مجملها تروق لي في واقع الأمر. فقد كانت تشمل اثنين من ابتكارات دارمان كنت أرى أنهما ينذران بالخير، مثل قاعدة «الدفع بحسب الاستخدام» وهي أن أي برنامج إنفاق جديد لابد أن يكون له مصدر تمويل تعويضي في صورة ضريبة جديدة أو تخفيض في الميزانية. ولم تخفض الميزانية المقترحة العجز بالعمق الذي كان ينبغي تخفيضه به، ولكن الإجماع داخل بنك الاحتياط الفدرالي الذي كنت أتفق معه هو أنها خطوة كبيرة في الاتجاه الصحيح. وفي جلسة استماع بالكونجرس في شهر أكتوبر (تشرين الأول) عندما كانت الميزانية جاهزة لإقرارها أخيراً، أعلنت أن الخطة «معقولة». وهو ما قد يبدو مديحاً خافتاً، ولكنه كان كافياً لجعل سوق الأسهم تقفز عالياً، حيث راهن المتعاملون على أن بنك الاحتياط الفدرالي سوف يخفض أسعار الفائدة على الفور. وبالطبع لم نكن نعتزم القيام بذلك، إذ كان لابد أن نرى أولاً ما إذا كانت تخفيضات الميزانية قد أصبحت قانوناً أم لا: والأكثر أهمية هو ما إذا كان لها أثر اقتصادي حقيقي أم لا.

لهذا السبب كنت حريصاً جداً فيما قلته على انفراد لنيك، إذ قلت له: «سوف تخفض الميزانية

كتاب الزاوية



قصائد من المغرب العربي (٢)

شفتان على شفا قُبلة

شفتان تُبقيانك على شَفَا قُبلة
لا شفاعة
لا شفاء لِمَن لثمَا
لا مهرب
لا وجهة عداهما أو قبلة
مجرد شفتين أطبقتا على عمرك

※ ※ ※

ركوة قُبلتك الصباحيّة
قهوة لفمين
أغرق فيها كقطعة سكر
أرتشفها بهال الشكر
حمداً لك
يا مَن وضعت إعجازك في شفتين
وجعلتهما حكراً عليّ

※ ※ ※

يا للهفتك
يا لجوعي إليك بعد فراق
ساعة رملية
تتسرّب منها في قبلة واحدة
كل كثبان الاشتياق

※ ※ ※

كيف بقبلة تُوقفُ الزمن؟
كيف بشفتين
تُلقيان القبض على جسد؟

※ ※ ※

يا رجلاً
مَن غيرك
سقط شهيداً
مُضرّجاً بالقُبل؟

أحلام مستغانمي
الجزائر

السليمة أسعار الفائدة طويلة الأجل لأن توقعات التضخم سوف تقل. ومن المقدر أن ترد السياسة النقدية على ذلك بتخفيض أسعار الفائدة قصيرة الأجل، وكانت تلك سياسة بنك الاحتياط الفدرالي القياسية، ولكنها أحبطت نيك لأنها لم تكن الوعد الذي يبحث عنه.

عندما حدث الركود في ذلك الخريف، ازداد الاحتكاك سوءاً. وأعلن الرئيس بوش في خطاب حالة الاتحاد الذي ألقاه في عام ١٩٩١ أن «هناك قدراً أكبر من اللازم من التشاؤم. وينبغي للبنوك السليمة أن تقدم قروضاً سليمة الآن، وينبغي أن تنخفض أسعار الفائدة الآن». وكان بنك الاحتياط الفدرالي يخفض أسعار الفائدة على مدى أكثر من عام، ولكن البيت الأبيض كان يرغب في تخفيضات أكثر وأسرع.

لا زلت أحتفظ برسالة بعث بها نيك إليّ في تلك الفترة. فقد دعا في خطوة غير عادية ثمانية اقتصاديين بارزين من الصناعة والأكاديمية إلى البيت الأبيض لتناول طعام الغداء مع الرئيس. وأثناء تناول الطعام سُئل كل اقتصادي عما إذا كان ينبغي على بنك الاحتياط الفدرالي تخفيض أسعار الفائدة قصيرة الأجل أكثر أم لا. وقد كتب نيك أنه تحرجاً من وجودهم أمام الرئيس «أجاب كل منهم بأن ذلك لن يضر». والواقع أنهم شعروا جميعاً بأن ذلك سوف يفيد. ومضت الرسالة تقول: «إن أحداً لن يشاركك الرأي أثناء سفري، ثم اشتكى صراحة من نقص القيادة الفعالة من جانب بنك الاحتياط الفدرالي».

في نهاية الأمر كان نباح الإدارة أشد من عضها. وعندما انتهت فترة عملي ببنك الاحتياط الفدرالي عام ١٩٩١ كان هناك اجتماع وراء الكواليس سعى فيه وزير الخزانة للحصول على تعهد بسياسة نقدية أكثر استرخاء مقابل تولي المنصب لفترة ثانية. وزعم نيك فيما بعد أنه عقد تلك الصفقة. وواقع الأمر أنه ما كان لي أن أتعهد بذلك. حتى وإن كان ذلك هو ما أريده (ومع هذا فقد كنت أرى في السر أن خفض سعر فائدتنا يمكن أن يستمر). وبالرغم من ذلك أعاد الرئيس بوش تعييني. وأظن أنه استنتج أنني كنت أقل اختياراته سوءاً؛ فبنك الاحتياط الفدرالي كان يعمل بشكل جيد بكل المقاييس، ولم يكن هناك مرشح آخر يبدو أن وول ستريت يفضله، وكان التغيير سيربك الأسواق.

جعل المأزق الخاص بالسياسة النقدية من الصعب عليّ وعلى نيك أن نظل صديقين؛ فبالرغم من استمرار تعاوننا مهنياً، فقد ألغى نيك إفطارنا الأسبوعي وانقطعت صلاتنا الاجتماعية. ومع اقتراب عام الانتخابات، قررت الإدارة تغيير مقاربتها لبنك الاحتياط الفدرالي ورئيسه العنيد. وانتقل «حساب جرينسبان»، كما كانوا يسمونه في البيت الأبيض، إلى رئيس لجنة مجلس المستشارين الاقتصاديين مايك بوسكين والرئيس نفسه.

وأخيراً كان الانتعاش يستجمع قواه عندما بدأ موسم الحملة الانتخابية. وبحلول شهر يوليو (تموز) شعرت بما يكفي من الثقة كي أعلن أن الريح التي تنطلق بسرعة خمسين ميلاً في الساعة قد هدأت بشكل جزئي. وأظهرت التحليلات اللاحقة أن بحلول الربيع سينمو إجمالي الناتج المحلي (الذي حل في عام ١٩٩٠ محل إجمالي الناتج القومي باعتباره المقياس المعياري لإنتاج الشركات) بمعدل سنوي صحي مقداره ٤ بالمائة. ولكن ذلك كان من الصعب إدراكه حينذاك. وكان الرئيس مهتماً على نحو مفهوم بأن يكون النمو قوياً وواضحاً بقدر الإمكان.

التقيت بالرئيس بضع مرات فحسب في ذلك العام، وكان باستمرار على قدر بالغ من الود. وكان يقول لي: «لا أريد مهاجمة بنك الاحتياط الفدرالي». وكان يستطلع الأمر ويثير أسئلة مهمة بناءً على ما كان يسمعه من معارفه في مجال الأعمال التجارية. فكان يطرح أسئلة من قبيل: «يقول الناس إن القيود المفروضة على احتياطي البنوك جزء من المشكلة. فكيف أهتم بهذا الأمر؟». وليست تلك هي الأسئلة التي كان يمكن أن يطرحها ريجان. فلم يكن لديه صبر لمناقشة السياسة الاقتصادية. وكنت مبتهجاً لرغبة بوش في أن يعرف. وشعرت بقدر من الارتياح في التعامل معه يزيد كثيراً عما كنت أشعر به في التعامل مع برادي لأن المناقشة لا تتسم بالخصومة. ولكن عندما كنا نتحدث عن أسعار الفائدة لم يكن بإمكاني قط إقناعه بأنه من المؤكد تقريباً ألا يسرّع تخفيض أسعار الفائدة أكثر وأكثر وعلى نحو أسرع الانتعاش وسوف يزيد من احتمال التضخم.

الحقيقة هي أن الاقتصاد كان ينتعش، ليس في الوقت المناسب لإنقاذ الانتخابات فحسب. فمن المحتمل أن يضر العجز بوش أكثر من أي شيء آخر. ومع أن تخفيضات الميزانية المؤجلة وزيادة الضرائب في عام ١٩٩٠ وضعت البلاد على أساس مالي أفضل، فقد أثر الركود بشدة على العائدات الفدرالية مما أدى إلى زيادة العجز بصورة كبيرة، حيث بلغ ٢٩٠ مليار دولار في العام الأخير من فترة رئاسة بوش. واستطاع روس بيرو إبراز ذلك أثناء الحملة ونجح في تفتيت أصوات الجمهوريين بالقدر الذي أسقط بوش.

حزنت بعد سنوات عندما اكتشفت أن الرئيس بوش ألقى باللوم في خسارته عليّ. فقد قال في مقابلة تليفزيونية أجريت معه عام ١٩٩٨ I reappointed him and he disappointed me (لقد أعدت تعيينه وخذلني). وليس من طبعي أن أكون شكاكاً. ولكنني أدركت فقط بالعودة بنظري إلى الوراء المدى الذي بلغه برادي ودارمان في إقناع الرئيس بأن بنك الاحتياط الفدرالي كان يدمره. وقد فاجأتني مرارته؛ فلم أشعر قط بالشيء ذاته تجاهه. وذكرتني خسارته في الانتخابات بكيفية إطاحة الناخبين في بريطانيا بونستون تشرشل بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة. ويمكنني الحكم بأن بوش أدى عمله على نحو مثالي فيما يتعلق بالقضايا المهمة التي تواجه الولايات المتحدة، مثل مواجهتنا مع الاتحاد السوفيتي والأزمة في الشرق الأوسط. فإذا كان هناك رئيس يستحق إعادة انتخابه فإنه هو، وكذلك ونستون تشرشل من بعده. ■

التاريخ السرى للبيت الأبيض

جيـــــــــــل أبـرامسـون

الأيـام الأخيرة

لا يخلو أي إصدار جديد من إصدارات بوب وودورد على الإطلاق من ترتيبات صارمة. فكتبه «مكتومة التفاصيل» بمعنى أنه لا تتوافر نسخ مسبقة لاطلاع النقاد، كما تُنتزع من محرري الكتب تعهدات بالسرية مؤلمة كل الألم. تحوي «قنابله» تفاصيل خفية حصل عليها من داخل قمة السلطة ومذكرات رسمية سرية يستحيل الوصول إليها (يستحيل للجميع عدا وودورد). تنكشف تلك التفاصيل في عدة مقالات تتصدر الصفحات الأولى من جريدة ذا واشنطون بوست حيث ظل المؤلف عقوداً مساعد مدير التحرير. (يعمل الآن نائباً لرئيس التحرير). وهناك صدمات قوية تظهر في لقاءات حصرية من برنامج «٦٠ دقيقة» يعقبها المزيد من الإسهاب التليفزيوني؛ عرض متقن لا يخفق مرة في احتلال المركز الأول من قائمة المبيعات.

وهذه المرة، مع مجيء كتاب «الحرب من الداخل» آخر كتاب في سلسلة أعمال كاملة تتكون من أربعة أجزاء حول الرئيس بوش، لا يختلف النص كثيراً، إلا أن عناوين الكتاب تخفي ما به من قيمة إخبارية حقيقية. فالقنابل المعلنة - بأن إدارة بوش راقبت مؤخراً في السر كل حركة وكل كلمة تقريباً صدرت من رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي، وأن موظفي الجيش والاستخبارات الأمريكيين استعانوا بوسائل تجسس في منتهى السرية لتصفية الإرهابيين الأجانب في العراق - ليست صادمة بالمرة. يسبر السرد الأخير من الكتاب في فتور عملية استمرت نحو ثلاث سنوات اكتشف الرئيس بوش ومستشاروه بغتة في نهايتها أنهم في حاجة إلى استراتيجية جديدة لمعالجة العنف المتفاقم في العراق. وهو سرد سيجده القارئ أقل إثارة بكثير من كتب وودورد السابقة عن بوش.

تكمن أهمية كتاب «الحرب من الداخل» في أنه يعين نقلة تطور معها أسلوب المؤلف. إذ يشتهر وودورد بأسلوب بارد يلتزم كل الالتزام بالحقائق دون أن يحيد عنها، إذا جاز لي التعبير. إنها مبادئ لعرض الأفكار لا تند إلا عن صحفي من الطراز القديم، لا تخبر أحداً؛ فهو قلما يتوقف في ثنايا أخباره ليؤلف بين الأحداث أو يحللها، هذا فضلاً عن عدم إصدار الأحكام على شخصياته القوية، لا سيما مصادره. فلديه زاوية واحدة وحيدة، الزاوية القريبة. إن افتقار كل كتبه عن الرؤساء للتحليل السياقي بدءاً من ريتشارد نيكسون أغضب بعض القراء والنقاد، ومن أشهرهم جوان ديديون التي كتبت في تقييمها لكتب وودورد الستة (من العقد التاسع للقرن العشرين والعقد العاشر منه) قائلة إن «تلك كتب يغيب عنها كلية النشاط الدماغي القياسي».

لكن بالتناقض مع كتبه الأخرى عن بوش، يعرض كتاب «الحرب من الداخل» بالفعل تحاليل وأحكاماً تتخلل الأحداث. كما يصدر حكماً نهائياً غاية في القسوة عند تقييمه لأداء الرئيس بوش. إذ ينهي وودورد خاتمته اللاذعة قائلاً: «لقد أظهر الرئيس بوش لسنوات عدة، المرة تلو الأخرى، نفاد صبر وشجاعة زائفة وثقة مزعزعة في قراراته. وغالباً ما ينتهي الموقف من جانبه إلى تهور وطيش بل - وهو الأمر الأشد إزعاجاً - وردود أفعال متأخرة على حقائق ونصائح تعارض أحاسيسه الدفينة».

قد يعتبر البعض هذا الحكم واضحاً، سبق للكثيرين الوقوف عليه منذ زمن. كذلك سيتركون الكتاب تواقين إلى معلومات إضافية لو كانوا يتوقعون أن يتعاطى وودورد مع السؤال الرئيسي المحيط بحرب العراق: هل نشبت الحرب وورائها قضية عادلة. ومع ذلك تطور وودورد كثيراً منذ كتابيه الأولين؛ فقد تطلع إلى المجريات في هذين الكتابين بنظرة بطولية مبالغ فيها في أعقاب ١١ سبتمبر. صحح المؤلف موقفه في كتابه الثالث، «حالة الإنكار». فقد ألف الكتاب أثناء خروج التمرد بالعراق على إطار السيطرة، لذا أعاد صياغة القصة من البداية ليقدم إلى القارئ بياناً أقسى بسياسات بوش ومنفذيها.

لم يمسك كتاب «الحرب من الداخل» عن تسديد المزيد من الانتقادات لتنكمش مكانة الرئيس بوش فيما يتضخم حضور المؤلف الراوي. سوف يدعي المتهكمون بأن وودورد انتظر حتى كتابه الأخير ليسدد كل انتقاداته للرئيس ومستشاريه المقربين لأنه لم يعد في حاجة إلى إجراء الحوارات معهم.

لا شك أن استنتاجات وودورد حول ثقة بوش وعدم احتماله للمعارضة وإدارته الفاشلة للسياسة بالعراق، بما فيها التجاوزات القانونية لحملة مكافحة الإرهاب سيرتها



The War Within: A Secret White House History 2006 - 2008
By Bob Woodward

الحرب من الداخل: تاريخ سري للبيت الأبيض ٢٠٠٦-٢٠٠٨

بقلم: بوب وودورد

Simon & Schuster. 2008. 487 pp. $32

بترتيب خاص مع:
The New York Times, Sunday Book Review

ترجمة: هالة صلاح الدين حسين

تعطينا الكتب الأربعة درساً تقشعر له الأبدان فيما لا يجب أن يفعله القادة

بالمزيد من العمق كتب جيدة سابقة لتوماس ريكس Thomas Ricks ومايكل جوردون Michael Gordon ورون ساسكيند Ron Suskind وروبرت درابر Robert Draper وجورج باكر George Packer وجين ماير Jane Mayer وغيرهم. لكن مع الوضع في الاعتبار كل المعطيات سنجده من المستحيل ألا ننبهر بسرد وودورد للمجريات. إذ زود وودورد تأريخاً جلياً للأسبوع بعد الأسبوع بدءاً من الهجوم على أفغانستان عقب ١١ سبتمبر إلى تنفيذ سياسة "الاندفاع" في التنازع العراقي، تأريخاً لسياسة حرب تعثرت حين انتهجها بوش وعواقب تلك السياسة. لقد وفرت بياناته الواقعية المجردة للعديد من المؤلفين والمراسلين الآخرين سجلاً نقياً لما جرى وما قيل في اللحظات الحاسمة خلال رئاسة بوش.

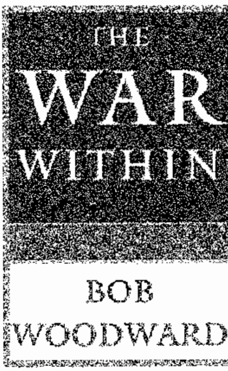
الواقع أن بعض التفاصيل الحاسمة لأخطاء إدارة بوش أتت رأساً من وودورد. هناك قاعدة وزير الخارجية السابق كولين باول المسماة بـ باتيري بارنص («إن كسرت البضاعة ستدفع ثمنها»): تلك العبارة القائلة «وقعة سوداء» الصادرة من مدير وكالة الاستخبارات المركزية السابق جورج تينيت لوصف الحجة المغلوطة الخاصة ببرامج أسلحة الدمار الشامل العراقية؛ مشاحنة بين نائب الرئيس ديك تشيني وباول في جدال شديد الوطأة حول السياسة في العراق؛ السيناتور تشاك هاجيل ينهي إلى بوش أنه غار عميقاً في المعضلة؛ وجه وزير الدفاع دونالد رامسفيلد وهو يمتقع حين أفحمه جنرال الجيش المتقاعد جاك كين بدلائل لا تقبل الجدل للبرهنة على أنهم في حاجة إلى قوات إضافية لو أرادوا تحقيق الأمن بالعراق في أي وقت من الأوقات. يصور الكتاب الجديد مشهداً مثيراً للانتباه بأسر مغزى الوضع بأسره: يطالب الرئيس بوش متبلد الذهن بإعادة كلمات «الانتصار» و«الفوز» و«النجاح» إلى خطاب كان سيلقيه وقت استفحال العنف في العراق. إن تلك الحوادث ليست مجرد نوادر، إنها تفاصيل جديرة بالذكر تصنع التاريخ.

ومع بيت أبيض يتحرى مثل تلك السرية، حيث ليس من المرجح أن تكتب قلة من أهم المشاركين بأقلام أمينة متبصرة في المستقبل القريب (عندك على الأقل سيرة تينيت الحديثة كبرهان على صدق قولي)، تكتسب رباعية وودورد قيمة هائلة بما تحويه من تفاصيل دقيقة تنير الطريق أمام القارئ على نحو رائع. وقد تكون هذه الكتب في مجملها أفضل سجل على الإطلاق سيقع بين أيدينا عن الأحداث التي تغطيها.

ليس من العدل انتقاد أي مؤلف لعدم تأليفه كتباً يفضل الآخرون أن يكتبها. وفي حالة وودورد، سنلفاه مجرداً من أي أيديولوجية معينة، وعليه تتسبب كتبه في إحباط مرير لهؤلاء الصارخين في البرامج التليفزيونية، اليسار منهم واليمين. نادراً على أي حال ما يسع المراسلات الإخبارية المعاصرة أن تقدم البنية الذكية لكتب مثل كتب روبرت كارو Robert Caro الثلاثة (وآخر في الطريق) حول ليندون جونسون، فهي بلا مثيل في جمعها الدقيق بين الوثائق والمقابلات الشخصية لتعكس بذلك حكمة الزمن الزائل. وبوصف جورج دابليو. بوش الشخصية الأساسية في نصوص وودورد الضخمة، لن نجده يتطور أو يعمق من الكتاب إلى الآخر مثلما يحدث لشخصية فرانكلين دي. روزفلت بمجموعة آرثر شليزنجر جونيور Arthur Schlesinger Jr. حول "الصفقة الجديدة". بيد أن وودورد يقبض بحق على جوهر شخصيته الرئيسية. فمع أفكار بوش المبتذلة المتفائلة وثقته بنفسه، يبرز باعتباره رئيساً هاماً وسطحياً في نفس الآونة، عجوز جسمانياً لكن سليم على المستوى الفكري والنفسي. وهنا يتبين وودورد أن «الرئيس بوش طاله أقل القليل من التغيير منذ حواري الأول معه في ٢٠ ديسمبر ٢٠٠١». سوف تتملك الدهشة القارئ حين يطالع الأربعة كتب بالتعاقب، كما فعلت هذا الربيع والصيف، ليكتشف أن رغم التزام وودورد بمنهج محايد، تتجلى تمام التجلي كل عيوب الرئيس ووزرائه، لا سيما في حالة الشخصية الرئيسية، جورج دابليو. بوش. إن تلك الكتب تتيح صورة محددة حاسمة لهذه الشخصية حتى لو تراءى وودورد في الحقيقة غير واع أحياناً لما لديه.

الحق أن تطور وعي وودورد يمد هذه الكتب بالدراما الحقيقية. هنالك مواد تدين الرئيس في جميع الكتب الأربعة. إلا أن وودورد كان في الاثنين الأولين عاجزاً عن الاعتراف الكامل بها أو عازفاً عن هذا الاعتراف. لكن عندما تعاظمت معضلات الحرب وطفت عيوب بوش على نقاط قوته، طفق وودورد يعيد تقييم بوش وآرائه السابقة لينتهي به الأمر إلى عدم الاكتفاء بتقديم المواد كي يتوصل القراء بأنفسهم إلى نتائجهم الخاصة بل انتقاد الرئيس بوش نفسه انتقاداً عنيفاً. وهو بذلك يقترب من دور كاتب السيرة الذاتية، وليس فقط المختزل للأحداث والشخصيات.

تلقى «بوش في الحرب» الكتاب الأول الصادر عام ٢٠٠٢، انتقادات مبررة بسذاجة الحجة والمظهر الخادع. لا يزال الاتهام قائماً اليوم. إذ يصيب الإجفال القارئ عند قراءة بعض النقاط الحاسمة، مثلما يحدث عندما سأل بوش قبل شن الحرب على أفغانستان إذا ما يمكن توصيل المعونات الإنسانية إلى هناك بجسور التموين الجوية. «لقد وجد بوش ذلك الأمر حيوياً في إطار رؤيته لمهمة الولايات المتحدة الإنسانية»، هكذا يكتب وودورد بلهجة مخلصة. وفي مرحلة أخرى يدون وودورد رؤية بوش للعالم دون أن يحللها: «من الواضح أن مهمته تتضمن إعادة تنظيم طموح للعالم من خلال تحركات وقائية وأحادية الجانب - لو تطلب الأمر - من أجل تقليل المعاناة وإقرار السلام». ومع ذلك يمنح وودورد القراء في كتابه الأول نذيراً واضحاً بأشد نقائص البيت الأول فتكاً. «يدنو أسلوب بوش في القيادة من التسرع» يكتب قائلاً. «فهو يريد تحركات عاجلة وحلولاً فورية. ما إن يسلك سبيلاً حتى يوجه كل طاقته إلى الانطلاق بقوة وعجلة. نادراً ما يرنو إلى الخلف، كما أنه يسخر - بل ويهزأ - من الشكوك وأي شيء لا يرتقى إلى الالتزام ١٠٠ في ١٠٠».



بل إن الرئيس بوش يصبح في الكتاب الثاني «خطة الهجوم» - الدائر حول قرار الحرب على العراق - أكثر نبذاً لآراء ناصحيه ممن وجهوا مناشدات بتوخي الحذر لكن خشوا أن يتخلص منهم الرئيس تحت دعوى عدم الإخلاص. وفي كتاب «حالة الإنكار» يتبلور الوعي التام بالحقائق داخل البيت الأبيض ليسرد وودورد حالة الفوضى في العراق خلال ثلاثة أعوام أعقبت بداية الحرب. والآن، يعرض وودورد أخيراً في هذا الكتاب الخاتمة تلك «المسرحية الشعبية» التي يُمثل فيها جنرالات يعلمون أنهم يخسرون حرباً وفي نفس الوقت يخبرون بوش بأن الشارع العراقي يحبه. يعي الرئيس وفريقه ببطء زائد عن اللازم حاجتهم إلى إستراتيجية جديدة بمستوى أعلى من القوات بغرض تهدئة العاصفة.

سوف يخالج القارئ شعور بأن كتب بوش الأربعة تتتبع منحنياً لا تنقصه الغرابة، بفصلين - الثالث والرابع - يلوحان وكأنهما ينتميان إلى مسرحية مختلفة. فقد جمع وودورد أهم ثلاثة مواد منها في صورة خاتمة تصرخ قائلة: «لقد أجبرني المحرر على كتابتها» (ربما كان من الواجب أن يحذو حذو فرنسيس فورد كوبولا حين جمع ملاحم «العراب» في فيلم واحد.) ربما يتراءى أسلوب وودورد أخرق في تلك الكتب الثلاثة لدرجة أنه قد يتلون بفكاهة غير مقصودة: ذكر في مستهل فصل من الفصول يشرف فيه العنف العراقي على فوضى خليقة بأفكار توماس هوبز، «كانت مخاوف كوندي رايس تتصاعد».

تزود هذه الكتب درساً تقشعر له الأبدان فيما لا يجب أن يأتي به القادة. كذلك تصف نموذجاً تراجيدياً لرئيس يعمل باندفاع، بدافع من غرائزه ليس إلا، رئيس أزره مستشاروه وإن أخفقوا في مهمتهم الحاسمة، ألا وهي المجاهرة بالحقيقة في مواجهة السلطة. بل إن كتاب «بوش في الحرب» - الكتاب المفضل لدى البيت الأبيض - يُظهر طريقة الرئيس بوش في القيادة كالجامعة بين تكلف العظمة («سوف ننقب عن الإرهاب حيثما يوجد») والتهديدات المتبجحة («سوف نجد من فعلوا تلك الفعلة وسنرفس مؤخراتهم») حسبما ينهي بوش إلى تشيني. والنقطة الجوهرية مثلما عبر عنها بوش لوودورد في مقابلتين هي: «لا بد أن يكون الرئيس بمثابة الكالسيوم بالعمود الفقري».

وهكذا يعارض بوش أي اقتراح بأن الأمريكيين في حاجة إلى المزيد من الوقت للانتقام من الإرهابيين بعد ١١ سبتمبر. عندما ذكّر السيناتور السابق توماس داشيل الرئيس بأن الحرب كلمة قوية وحذره كوفر بلاك من وكالة الاستخبارات المركزية من أن الحرب في أفغانستان لن تخلو من الدماء ولن تكون باليسيرة، رد الرئيس على حجته قائلاً: «تلك هي الحرب. ونحن هنا للفوز بها». لم ينفك الرئيس يشير في حواراته مع وودورد إلى «غرائزه» وردود أفعاله النابعة من شعوره الدفين. ومن البداية يستشعر المؤلف خطراً في قائد «تكاد تكون غرائزه بمثابة دينه الثاني».

غير أن بوش لا ينصت فقط إلى صوته الباطني، لكنه تلقى أيضاً درساً قوياً منذ فترة مبكرة من كارل روف: يتحاز التاريخ مع المنتصر على الدوام مهما ارتكب من أخطاء على طول الطريق. وعليه سوف يجد القارئ بين صفحات الكتب الثلاثة التالية هوساً يستولى على بوش بتحقيق الفوز في العراق.

تتنامى ريبة المؤلف في كتاب «خطة الهجوم»، فحينما يصرح له بوش بأن «الحرية هي هبة الله لكل فرد من أفراد

العالم... أنا أعتقد بأن علينا واجباً بتحرير الناس» يسأله وودورد فى مداخلة نادرة إذا ما كان هذا الاعتقاد قد يبدو «أبوياً مهيمناً على نحو خطر» ليجيب عليه الرئيس سريعاً: «مَن ينالون الحرية يعجبون بالحماسة».

وكذلك يكتشف جورج تينيت إبان المشاورات الأولية للحرب على العراق أنك مع الرئيس بوش «قد دفعت الثمن الأكبر بإضمارك الشكوك» مما يعنى فى المقابل أنه «لا توجد على ما يبدو عقوبة للمخاطرة أو الوقوع فى الخطأ». لا عجب أننا وصلنا متأخرين فى «الرقعة السوداء».

كان كولين باول ونائبه ريتشارد أرميتاج من بين المعفيين من مناصبهم بسهولة أى سهولة. لقد «استشعر باول حمى الحرب» تنبعث من البيت الأبيض فطلب الاجتماع بالرئيس. لكن بمجرد أن التقى باول به، لم يعبر عن أفكاره كما يجب وفشل فى إلقاء «ما يجول بخاطره على الطاولة». وفى عشية الحرب يُسلِّم وودورد بأن باول لم يفكر مطلقاً على الرغم من تحفظاته فى الابتعاد دون «ارتداء رداء الحرب». لكن ماذا لو اعترض باول علانية على نية الرئيس شن الحرب؟ هل كان ليشكل هذا فرقاً؟ إنه سؤال يخفق وودورد فى توجيهه.

وفى كتاب «الحرب من الداخل» يواجه وودورد أخيراً حقيقة أن أسباب الحرب مشكوك فى مصداقيتها: «لا أثر لأسلحة الدمار الشامل. اعتبر الكثيرون الحرب كارثة، وقد ارتبطت سمعة باول بها ارتباطاً لا فكاك منه. وعليه تدمرت إلى الأبد». وهنا يقتبس عبارة جيمز أيه. بيكر الثالث James A. Baker III الصوت الرئيسى فى مجموعة العراق للدراسات - الذى أعلن أن باول قد يكون هو الشخص الوحيد الذى كان بوسعه منع اندلاع الحرب.

يعترف وودورد فى كتاب «خطة الهجوم» بأنه اقترف خطأ: إذ يقر بأنه كان من الواجب أن يضغط على جريدة ذا واشنطون بوست لتنشر فى صفحتها الأولى مقالاً يصف تحقيقات الاستخبارات حول أسلحة الدمار الشامل بالواهية. كنتُ وقتها أعمل مديرة مكتب واشنطون لجريدة ذا تايمز، وقد فشلتُ فى الضغط بما يكفى لنشر مقال مماثل مشكك بقلم جيمز ريزن James Risen. سرت فى تلك الفترة الكثير من الروايات الساذجة حول ادعاءات الإدارة بوجود أسلحة الدمار الشامل (بما فيها مقالات منشورة فى ذا تايمز وذا بوست). التقيت بوودورد مرات قليلة (فى مناقشات عامة وما شابهها) خلال عشرين عاماً قضيتها مراسلة ومحررة فى واشنطون. وهو هنا لا يُقدم قصة كاملة عن حملة الإدارة لإثبات وجود أسلحة الدمار الشامل كما صنع كتابين ممتازين هما «أعظم قصة بيعت على الإطلاق» Greatest Story Ever Sold لفرانك ريتش Frank Rich والاستكبار «Hubris» لمايكل أيسيكوف Michael Isikoff وديفيد كورن David Corn.

لم يعد وودورد مراقباً سلبياً للأحداث فى كتاب «حالة الإنكار». فهو يسجل تسجيلاً دقيقاً فترة التمرد العراقى عندما انقلب التفاؤل العنيد لبوش وتشينى ورامسفيلد رفضاً لمواجهة الواقع. يتحدى وودورد رامسفيلد بذكر الأرقام المتزايدة للهجمات العراقية لكنه انتهى «عاجزاً عن النطق» حين شبّه رامسفيلد الموقف بسلطانية فاكهة. قد يتذكر القراء هذا الكتاب لما يضمه من نكات عن إطلاق الريح تبادلها بوش وروف نيسليا نفسيهما، أو لما كشف عنه من رغبة رئيس هيئة موظفى البيت الأبيض أندرو كارد ولورا بوش فى إقالة رامسفيلد. غير أن أقوى صفحاته تسرد اكتشاف رجال الرئيس بأن «بوش فى حالة إنكار فيما يتعلق بالعراق».

ربما ساهم عجز وودورد عن إجراء مقابلة مع بوش لكتابه الثالث فى تحريره بهدف بلوغ استنتاجات أكثر حدة، وإن تشوهت النتيجة رغم ذلك بعلاقات وودورد المقربة ببعض المصادر. فالعديد من الصفحات المصورة لبوش مصدرها الأمير السعودى بندر. مصدر من مصادر وودورد القديمة قد يكون حريصاً على خدمة مصالحه، وليس موثوقاً منه.

يظل بوش فى كتاب «الحرب من الداخل» غير عابئ بالحقيقة المريرة. يستنتج الجنرال جورج كيسى أن المشكلة الأساسية فى العراق هى «الرئيس نفسه» ملاحظة تسبغ الموضوعية على نص وودورد وهو يدون سنوات من التردد والاضطراب أبى الرئيس خلالها بكل عند - حتى عندما تكاثرت أمامه الدلائل - قبول أى إستراتيجية حربية تتكل على مستويات قوات هزيلة كما وضعها رامسفيلد والافتقار إلى خطة قابلة للتطبيق لما بعد الغزو سيجعلان «الانتصار» الذى يطالب به مستعصى على التحقيق تماماً. بل إن إصرار البيت الأبيض على الولاء والتفاؤل كبح قلة من الأفراد الواقعيين بالفريق مثل مساعدة مستشار الأمن القومى ميجان إل. أوسوليفان ونائب وزيرة الخارجية فيليب زيليكو. حملت أوسوليفان نفسها أخيراً على إطلاع بوش بأن العراق «كالجحيم» إلا أن زيليكو الذى زار العراق أكثر من اثنتى عشرة مرة وفطن إلى عتمة الصورة سرعان ما تخلص من تشاؤمه فى حضرة بوش. ربما لم يرغب زيليكو فى أن يخرج كلية عن إطار التفاؤل أو أن يبدو سلبياً، حسبما تكهن وودورد. «عله لم يتمكن من التغلب على الفكرة المبتذلة القديمة بأن المستشارين يذعنون دائماً أمام مشيئة الرئيس». أما رئيسة زيليكو، كونداليزا رايس، فقد تواطأت هى الأخرى على الجريمة. كانت تعلم أن الرئيس بوش يبغى أن يسمع الرواية المشككة. وليس فقط المثالية، من رجال الجيش لكنها تلفت هى الأخرى الحقيقة أمامه عندما كانت أولاً مستشارة الأمن القومى ثم حين أصبحت وزيرة للخارجية. كما أنها لم تجرؤ على تجاوز تشينى ورامسفيلد لتنقل الحقيقة إلى الرئيس.

يثنى بوش فى مقابلاته مع وودورد على خليفة كونداليزا رايس، مستشار الأمن القومى ستيفن جيه. هادلى، إذ يسميه بمهندس «الاندفاع» الذى خفض عدد الهجمات فى بغداد ومناطق أخرى من العراق (بمعاونة تحالف جديد مع بعض زعماء القبائل العراقية والسنة). غير أن رعباً انتاب وودورد لأن بوش أوكل إلى مستشار الأمن القومى مسئولية حرب فاشلة. وهنا يعيب وودورد على هادلى ما خالجه من خشية من رئيس وصفه هادلى بـ «نافذ البصيرة».

غير أنه رئيس صاحب بصيرة أحياناً ما تشوبها العتمة. عندما أجرى وودورد حواره الطويل مع بوش لكتابة كتابه الأخير، طلب من الرئيس تحديد مرحلة قرر فيها تبديل سياسته الحربية والموافقة على خطة «الاندفاع». ألحق السؤال الارتباك ببوش الذى نصح وودورد بالرجوع إلى هادلى - «ربما ستيف عارفها». كانت لحظة أنزلت الذهول بوودورد مثلها مثلما طلب من رامسفيلد فى «حالة الإنكار» أن يصف حادثة أثبت فيها بوش نفسه كقائد حرب لكنه لم يتمكن من تذكر حادثة واحدة فقط لا غير.

أصيب وودورد نفسه بالصدمة لاعتراف بوش بأنه اكتشف فى يونيه ٢٠٠٦ أن استراتيجية العراق غير فعالة لكنه لم يجئ بأية خطوة إيجابية لتعديلها. وحينما سأله إذا ما كان من الضرورى إرسال قوات إضافية منذ مرحلة مبكرة، رد عليه بوش: «لم أقض وقتاً طويلاً فى تحليل إذا ما كانت القوات الإضافية، ستغير الموقف». وفى ذروة هجمات المتمردين يطالب بوش بالمستحيل: «أريد أن أقدر على قول إن لدينا خطة لرد الضربات» حتى «لنحارب الانطباع بأن هذه الحرب ليست قابلة للفوز».

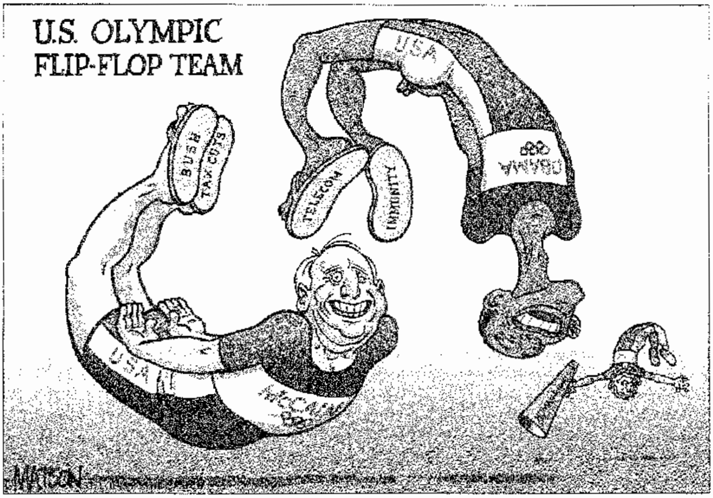
لو ثمة بطل فى تلك الحكاية الحزينة، فهو الجنرال ديفيد بيتروس، منفذ سياسة الاندفاع. «البادى أن المؤلف الذى جعل منه بطلاً أكن له إعجاباً رجولياً»: «ظل بيتروس فى سن الثالثة والخمسين رجلاً نحيفاً بملامح طفولية، مشهور بذكائه وبلاغته ونشاطه».

لكن حتى بيتروس برغم كفاءته لبث تابعاً للشخصية الوحيدة المهيمنة على نصوص هذه الكتب الأربعة. يختتم وودورد حديثه قائلاً: «يتبقى فى النهاية درس واحد، درس تكرر المرة تلو الأخرى عبر تاريخ الحكومات الأمريكية: من بين كل الشخصيات القوية التى تمير فى ممرات السلطة بخطى موزونة: من بين كل موظفى الحكومة المتسمين بالعند والنواب الماكرين والجنرالات ذوى العيون الفولاذية، من بين أصوات جوقة الكونجرس التى تطالب صاخبة بأن يسمعها الآخرون، لا أهمية إلا لشخص واحد فقط».

يشتمل كتاب «الحرب من الداخل» على خاتمة أخيرة - أو بالأحرى دفاع كتابى، إذ يشير وودورد فى محاولة منه لتبرير نفسه إلى أن البذور النابتة فى «حالة الإنكار» و«الحرب من الداخل» زرعها من قبل فى كتابيه الأوليين. تلك حجة مقبولة فى الظاهر وإن كان من الأفضل له ولنا لو تداخلت أحكامه فى النصوص الأصلية. بل إن وودورد لا يفشى حتى الآن آراءه الخاصة فى الحرب، عدا تصريحه الجلى الواضح: «تظل نتيجة حرب العراق فى سنتها السادسة غير أكيدة».

بيد أن حكم وودورد على الحرب وبوش ليس مهماً إلى هذه الدرجة. فقد أمد القراء فى كتبه الأربعة بمحادثات ووثائق سوف يحتاجون إليها للتوصل إلى أحكامهم الخاصة. وقد زودنا أيضاً بما يكفى من تحليلات رغم ما عابها من تقطع ونقص لكى تجعل هذا الحكم حكماً حقيقياً عن علم ومعرفة. لا ريب أن تلك الكتب مسيرة طويلة مرهقة للقارئ لكنها تجسد أكمل الروايات حول رئاسة بوش وحرب ستكون على الأرجح إرثه الأهم. ■

يستنتج الجنرال جورج كيسى أن المشكلة الأساسية فى العراق هى «الرئيس نفسه»



كيف ينتخبون «رئيس العالم»؟!!

منـــــــار الشـــوربجي

■■ لعل السؤال الذي يتبادر إلى ذهن القارئ هو: لماذا كتاب عن الانتخابات الأمريكية؟ هل يستحق الأمر أن ينفق قارئ عربي- ناهيك عن باحثة عربية- الوقت في فهم الموضوع، الذي سوف يكتشف، إذا ما تصفح الكتاب، أنه مليء بالتعقيدات الفنية والإجرائية؟

ما الذي يعود علينا نحن العرب من فهم تلك العملية المعقدة، التي لا يفهمها في الواقع حتى الكثير من الأمريكيين أنفسهم؟ أليس في الأمر مبالغة لا تعدو أن تكون انصرافا عن الشأن العربي عبر الاستغراق في متابعة الشأن الأمريكي؟ وإسرافا في مواكبة «الأمركة» والاحتفاء بها؟

إن كل هذه الأسئلة- وغيرها الكثير- مشروعة تماما وتدور في ذهن الكثيرين، خصوصا في لحظة تاريخية صارت فيها الولايات المتحدة الأمريكية تنفق بلا حدود على ما يسمى «الدبلوماسية العامة» بهدف واحد هو الترويج للنموذج الأمريكي.

وربما تكون نقطة البداية الصحيحة للإجابة عن تلك الأسئلة هي الواقع العربي الراهن نفسه. فرغم أن الولايات المتحدة لم تكف طوال تاريخها عن الحديث عن نشر الديمقراطية في العالم، إلا أن هذا الطابع الرسالي قد ازداد في سنوات حكم بوش الابن، حتى وصل إلى مستوى غير مسبوق كما وكيفا، وتركز في الواقع على عالمنا العربي بشكل خاص.

فقد استخدمت إدارة بوش الابن موضوع الديمقراطية كأداة سياسية تستغل أهم نقاط ضعف النظم السياسية العربية لابتزازها والضغط عليها ودفعها دفعا نحو مواقف إقليمية لا علاقة لها في الواقع بقضية الديمقراطية.

غير أن المهم في ذلك كله هو الطريقة التي استقبل بها القصف الأمريكي باسم الديمقراطية في عالمنا العربي.

فقد دار السجال في عالمنا العربي حول أمور عدة، منها الأهداف الحقيقية لأمريكا من وراء كل ذلك، وإمكانية حدوث تحول ديمقراطي من فوق دبابة، أو بفعل ضغوط خارجية.

لكن الطريف في الأمر هو أن ذلك السجال ناقش دعوة إدارة بوش وضغوطها باسم الديمقراطية على نحو مقطوع الصلة إلى حد كبير عن السياق التاريخي والسياسي. فالسجل الأمريكي بشأن الديمقراطية وحقوق الإنسان في العالم معروف بدءا من الضلوع في قلب نظم حكم ديمقراطية شتى من إيران إلى شيلي، ووصولا إلى دعم نظم حكم ذات تاريخ أسود في انتهاكاتها لحقوق الإنسان من سوهارتو إلى بينوشيه. ورغم أن تلك الأمثلة وغيرها قد استخدمها البعض في السجال الذي دار إلا أنها جاءت في معرض التشهير بأمريكا لا في معرض الاعتماد على التاريخ الأمريكي لتحليل الحاضر والمستقبل.

غير أن الأكثر خطورة في الواقع في ذلك السجال كان أن أحدا لم يبحث فيما تقصده أمريكا بالضبط حين تتحدث عن الديمقراطية. فمن الواضح أن أمريكا حين تتحدث عن الديمقراطية، فإن منطوق خطابها ينطوي على افتراضين: أولهما أن الولايات المتحدة هي قلعة الديمقراطية في العالم، وثانيهما أن الديمقراطية الأمريكية نموذج يحتذى. والطريف في الواقع، أننا تعاملنا مع هذين الافتراضين باعتبارهما مسلمات ليست قابلة للفحص والتدقيق!

وقد ثبت بالدليل العملي أن الخطاب الأمريكي يقوم فعلا على هذين الافتراضين. فبعد احتلال العراق، ابتدعت الإدارة الأمريكية نظاما فريدا لنقل السلطة، تم التخلي عنه بسرعة بعد أن اندلعت المظاهرات الرافضة له. ولكن يظل تصميم ذلك النظام، والإعلان عنه بشكل جدي ذا دلالة بالغة الأهمية. فقد كان نظاما منقولا نقلا حرفيا عن نظام الانتخابات التمهيدية المعمول بها في الولايات المتحدة لاختيار الرئيس.

كان النظام الذي أعلن عنه يقوم على الانتخاب غير المباشر عبر مراحل عدة: المرحلة الأولى، تتمثل في تشكيل لجنة يقوم باختيار أعضائها مجلس الحكم

كيف ينتخب الرئيس الأمريكي؟
قيود وتعقيدات وأشياء أخرى
منار الشوربجي
مكتبة الشروق الدولية – القاهرة ٢٠٠٨

ليس صحيحا أن الناخب الأمريكي هو الفاعل الرئيسي الذي يحدد من يتولى الرئاسة الأمريكية

العراقي، مهمتها اختيار من سوف يشاركون فيما أطلق عليه «المؤتمرات الوطنية» في الأقاليم المختلفة. ثم يختار المشاركون في المؤتمرات الوطنية أعضاء المجلس النيابي الانتقالي، الذي يقوم بدوره باختيار الحكومة.

والمؤتمرات الوطنية هي ترجمة للتعبير الإنجليزي كوكس Caucus المستخدم في النظام الأمريكي.

وحين يطلع القارئ على نظام الانتخابات التمهيدية في الفصل الأول من هذا الكتاب سوف يكتشف أن النموذج الذي صمم للعراق كان عبارة عن نقل حرفي لنظام الانتخابات التمهيدية؛ وإن كان نسخة مشوهة منه، تصور من نقلها أنه تشويه لازم ليتناسب مع الواقع العراقي. فكانت النتيجة هي نقل نظام بالغ التعقيد، يرتبط ارتباطا وثيقا بالخصوصية الأمريكية، إلى واقع مغاير، له تعقيداته وخصوصيته المختلفة.

ودلالة كل ذلك، رغم أنه قد تم التخلي فعلا عن هذا النموذج، هو أنه يكشف عن أن فكرة تصدير الديمقراطية الأمريكية على وجه التحديد، وليس الديمقراطية عموما هي فكرة حاضرة بقوة في العقل السياسي الأمريكي ومتضمنة في كل حديث أمريكي عن الديمقراطية في العالم.

لكل ذلك، صار من الجدير بالتأمل فعلا أن أحدا منا لم يتوقف أمام كل ذلك ليسأل عن طبيعة الديمقراطية الأمريكية المراد تصديرها.

وفي حقيقة الأمر، يخلط الكثيرون بين المتغيرات المختلفة اللازمة لتحليل الديمقراطية الأمريكية. فالمنبهرون العرب بأمريكا يرون نظامها السياسي نموذجا فذا بالمطلق ومن ثم لايميزون بين نقاط ضعفه ونقاط قوته.

فصحيح أن الولايات المتحدة الأمريكية تأتي على القمة بين دول العالم في مجال الحريات المدنية مثلا، وصحيح أنها تأتي في مرتبة متقدمة من حيث تقييم الديمقراطية المؤسسية بها، إلا أنه ليس صحيحا على الإطلاق أن الشيء نفسه يصدق على العملية الانتخابية فيها.

فلعل آخر ما يمكن الإشارة إليه في معرض نقل الخبرات العالمية والاستفادة منها هو النظام الانتخابي الأمريكي ناهيك عن النظام الحزبي. ولعل آخر من يحق له إسداء النصح بشأن النظام الانتخابي هو السياسيون الأمريكيون.

ومن هنا جاءت فكرة هذا الكتاب الذي يعنى بشرح العملية الانتخابية لمنصب الرئاسة في الولايات المتحدة الأمريكية. وهي انتخابات ذات طابع نخبوي محافظ وتبتعد في كثير من الأحيان عن أفكار محورية عرفها العالم كله واستخدمها بهدف تحقيق إرادة الناخبين، مثل الاقتراع السري المباشر ومواطن واحد يساوي صوتا واحدا One Man One Vote.

والكتاب يقدم أطروحة رئيسية مؤداها أنه ليس صحيحا أن الناخب الأمريكي هو الفاعل الرئيسي الذي يحدد من يتولى منصب الرئاسة الأمريكية. فدور الناخب في النظام السياسي الأمريكي محكوم بقيود عدة تحد من حجم الدور الذي يلعبه، بل وتفرغه من محتواه أصلا في بعض الأحيان.

ومحدودية دور الناخب في اختيار الرئيس ليست مناهضة للدستور الأمريكي، وإنما هي متسقة تماما معه. فوضع قيد على دور الناخب كان أحد الأهداف الرئيسية التي سعى لها الدستور الأمريكي عمدا. صحيح أن ذلك الدستور يبدأ بعبارة «نحن الشعب»، وأراد فعلا أن يمنح المواطنين دورا في العملية السياسية، إلا أنه تعمد وضع الصوت الشعبي دوما تحت السيطرة من جانب النخبة.

ورغم أن هذا هو حال النظام السياسي الأمريكي منذ نشأته، إلا أن التطورات التاريخية التي طرأت على ذلك النظام قد ظلت دوما تستلهم روح الدستور، فتضع المزيد من القيود على دور ذلك الناخب. وقد ازدادت هذه القيود حدة مع الوقت، خصوصا مع التطورات التي حدثت في العقود الثلاثة الأخيرة، وهي التي سوف يوليها هذا الكتاب اهتماما معتبرا.

ويأتي تقسيم الكتاب كله مبنيا على هذه الأطروحة. فهو ينقسم إلى بابين رئيسيين، يعنى الباب الأول بتقديم الإطار النظري العام الذي تدور فيه الحملات الانتخابية للرئاسة، بينما يتناول الباب الثاني حالات تطبيقية بعينها تمثل تجسيدا واضحا لما جاء في الباب الأول.

أما الباب الأول فينقسم إلى أربعة فصول، يعنى الفصل الأول بالإطار الدستوري والقانوني لانتخابات الرئاسة. وهو في ذلك يشرح النظام الذي ابتدعه الدستور الأمريكي لاختيار الرئيس ويبحث في الأسباب وراء تصميمه بالشكل الذي صمم عليه. ثم يتناول الفصل نفسه الإطار القانوني الحاكم لعملية تمويل الحملات الانتخابية. وهي مسألة بالغة الأهمية من أجل فهم



طبيعة الدور الذي تلعبه جماعات المصالح في الانتخابات.

وقد أفرد الكتاب الفصل الثاني للجوانب التي لم ينص عليها الدستور ولا القانون الفيدرالي، وهي الترتيبات التي تم تبنيها لاحقا، واستلهمت روح الدستور نفسه فمثلت قيدا إضافيا على دور الناخب. إذ يشرح هذا الفصل المرحلة التمهيدية في انتخابات الرئاسة أي التي تدور فيها المعركة بين مرشحي كل حزب وتنتهي بفوز واحد منهم ليخوض المعركة ضد مرشح الحزب الآخر في الخريف.

أما الفصل الثالث فهو يتعرض بالتفصيل للائتلافات الانتخابية التي تنشأ لحظة الانتخابات. والهدف من هذا الفصل هو إلقاء الضوء على طبيعة الأحزاب الأمريكية ودورها في الحملات، وعلاقتها بالمرشحين، وما يمثله كل ذلك من قيد آخر على دور الناخب. أو بالأحرى ما ينطوي عليه، من تجاهل لقطاعات من الناخبين.

ويتناول الفصل الرابع بالتحليل متغيرا مهما، وهو الدور الخطير الذي يلعبه الإعلام الأمريكي ليس فقط في تشكيل الحملات، وإنما في تشكيل خيارات الناخب نفسه.

ويأتي الباب الثاني ليكون بمثابة دراسة حالات بعينها. أي حملات انتخابية مختلفة. تمثل كل واحدة منها حالة تطبيقية لأحد الجوانب التي تطرق إليها الكتاب في بابه الأول.

فالفصل الخامس يتناول حملة بوش- جور ٢٠٠٠، والأزمة الدستورية التي حدثت عشية إعلان النتائج وهي حالة صارخة تجسد الدور الذي يلعبه الإطار الدستوري والقانوني في الانتخابات في مقابل دور الناخب.

أما الفصل السادس، فهو يعرض لحملة كلينتون - دول ١٩٩٦، وهي حالة تجسد المعنى الذي عرضه الفصل الثالث وهو أنه لا يمكن فهم أولويات أية حملة وقضاياها دون الوقوف على طبيعة الائتلافات الانتخابية التي أنشأها المرشحون. وانتخابات ١٩٩٦ حالة صارخة، هي الأخرى، مثل انتخابات ٢٠٠٠. فهي توضح بجلاء أن هذه الائتلافات قد تؤدي في الواقع إلى حملة خالية من القضايا المحورية في مجتمع يموج بالتحولات.

أما الفصل السابع، فهو يتناول من خلال حملة ٢٠٠٤ الرئاسية متغيرا مهما لابد أن يظل في الاعتبار عند متابعة أية حملة وهو السياق الذي حدثت فيه. فحملة ٢٠٠٤ حالة ممتازة توضح أن الاختيارات السياسية التي يتبناها حزب ما في السنوات السابقة على الحملة الانتخابية قد تلعب دورا حاسما في التأثير على مقدرات ذلك الحزب في الانتخابات وتحديد فرص مرشحه.

ويأتي الفصل الثامن ليركز على حملة هوارد دين ٢٠٠٤، والتي تمثل حالة بالغة الدلالة في شرح الدور الذي يلعبه الإعلام. غير أن مصير هذه الحملة يكشف أيضا عن جوانب أخرى تتعلق بمثالب الإطار الدستوري والقانوني نفسه. بدءا بنظام الانتخابات التمهيدية، ومرورا بمسألة تمويل الحملات الانتخابية، ووصولا إلى القوانين الحاكمة للدعاية الانتخابية.

غير أن لهذا الفصل أهمية أيضا في فهم مجريات حملة ٢٠٠٨ الانتخابية. فبدون الوقوف على ما حدث في حملة هوارد دين يصعب فهم الزخم المذهل الذي أحاط بحملة باراك أوباما ٢٠٠٨؛ والتي هي موضوع الفصل التاسع والأخير من هذا الكتاب.

وكما هو واضح من أطروحة الكتاب وتقسيمه، فإنه لا يسعى إلى تقديم تحليل لحملة انتخابات رئاسية بعينها. فهذا ليس هدفه، وإنما هدفه الرئيسي هو تقديم الإطار الذي يساعد القارئ على متابعة أية انتخابات رئاسية حالية أو مستقبلية.

ومن ثم، فقد سعيت إلى توجيه انتباه القارئ إلى النقاط المفصلية التي لا غنى عنها لمتابعة الحملات الانتخابية للرئاسة عموما، لا انتخابات بعينها.

وأعتذر مقدما للقارئ العزيز عن أي قصور يجده في هذا العمل. فهو اجتهاد بشري، سعيت من خلاله أن أقدم كل ما تراكم لدي من خبرة عبر سنوات طويلة من المتابعة الدقيقة لهذا الموضوع، ولكن الكمال يظل لله وحده. *

الوطنية المصرية

محمد بيلي العليمي

شهدت الساحة المصرية تغيرات عدة على مدى السنوات الأخيرة، تضافرت مع مؤثرات إقليمية ودولية، لتنعكس على التنوع الطائفى وعلاقته بالوطنية المصرية[1]. وعلى الرغم من ذلك، يمكن القول إن مصر لا تشهد حالة طائفية بقدر ما تشهد تحولا اجتماعيا نتيجة لتسارع وتيرة التفاعلات الاقتصادية والسياسية، فى منظومة تتأثر بالتطورات الدولية بفعل حركة العولمة وتلاشى الحدود بين الدول والمجتمعات والثقافات، الأمر الذى يصب فى نهاية المطاف إلى تغير مجتمعى. وعلى ذلك، يمكن بوجه عام تصنيف أسباب الوضع الطائفى الراهن - إن جاز التعبير - فى مصر إلى فئتين، الأولى تتعلق بعمليات التطور الاجتماعى إجمالا، والأخرى تتعلق بالملابسات الآنية لوقوع أى حدث طائفى.

وتمثل ظواهر التطور الاجتماعى، لا سيما إذا ما تم إسقاطها على المجتمع المصرى مجالا خصبا للدراسة الإمبريقية، الأمر الذى يصعب معه الإلمام بكافة أسباب الوضع الطائفى الناشئة عن عمليات ذلك التطور. وعلى ذلك، فسيتم التركيز فى هذا السياق على أهم تلك الأسباب، حيث أدى تآكل الطبقة الوسطى إلى حالة من الفرز الاجتماعى بشكل أفقى (طبقى)، وكان من نتاج ذلك، ويتمط يكاد يكون (حثيا) Inductive استخدمنا مصطلح الحث Induction المستخدم فى علم الكهرباء، والذى يعد إحدى وسائل انتقال الطاقة الكهربية بلا توصيل (Conduction) امتداد الفرز إلى الخريطة الطائفية، ليحولها من خريطة سوسيولوجية إلى خريطة سيكولوجية للمجتمع بشكل رأسى (طائفى).

وعلى الرغم من وجود تعريفات عدة للطبقة الوسطى، إلا أنه درج استخدام هذا المصطلح للتعبير عن تلك الطبقة من الموظفين ذوى الدخول المتوسطة والمرتفعة، والذين يشغلون الجهاز الإدارى للدولة ومرافق الخدمات والوحدات الاقتصادية المختلفة[2]. ومن الطبيعى وفقا لهذا التعريف أن تمثل تلك الطبقة أغلبية المجتمع فى الحالات الطبيعية، حيث جمعت بين المسلمين والمسيحيين، وأدى تآكلها إلى اتخاذ التمايز الطبقى فى بعض الأحيان لونا طائفيا، الأمر الذى كان نتاجا طبيعيا لطغيان المادة على بعض القيم التقليدية للمجتمع (الجوار، والتعايش، والتسامح).

ولم تستطع منظمات المجتمع المدنى التغلب على تداعيات هذا الفرز الاجتماعى. حيث تبدو تلك المنظمات مفتقدة إلى بعض مقومات المدنية من تعميق الديمقراطية فى ممارسة الأعضاء نشاطهم، ووجود لائحة داخلية واضحة، تنظم شئون العضوية والاشتراكات والانتخابات والميزانية والمساءلة والإجراءات التأديبية، فضلا عن ظهور نوع من المحسوبية داخل بعض الجمعيات، تطور إلى ظهور جمعيات عائلية مغلقة. علاوة على ذلك، فعدم وجود قنوات ثابتة للتمويل وضعف ثقافة التطوع بوجه عام يشكلان عامل ضعف لنشاط منظمات المجتمع المدنى، كما أن تلك المنظمات تقل فى المناطق العشوائية والمهمشة، رغم أنها قد تكون ساحة عملها الأولى.

من جهة أخرى، تنقسم منظمات المجتمع المدنى إزاء ثقافة التنوع والتعددية إلى قسمين:

الأول: منظمات المجتمع المدنى ذات الخلفية الدينية، والتى اعتبرت تطورا لظاهرة الأوقاف، وقد يطلق عليها البعض مؤسسات المجتمع الأهلى، وهى غالبا ذات أنشطة خيرية أو رعائية أو خدمية وربما تنموية.

الثانى: المنظمات الحقوقية، وهى متباينة الأطياف. وعلى الرغم من جهودها فيما يتعلق بتعزيز ثقافة حقوق الإنسان، والدفاع عنها، إلا أن بعضها يتبنى موقفا تجريديا فيما يتعلق بتلك الحقوق، بفصلها عن السياق الاجتماعى ككل، الأمر الذى يسهم فى إثارة واختلاق قضايا حقوقية، قد تكون ذات طابع إدارى بحت كمسألة البهائيين، وهو ما يصب فى آخر المطاف فى تعزيز الفكر الطائفى.

وربما يكون من أسباب الوضع الطائفى عودة الأفغان العرب خلال عقد التسعينيات من القرن العشرين، محملين بالأفكار الجهادية الموجهة ضد الآخر المختلف عقائديا. فبداهة، يؤدى اختلاف البيئة إلى إدراك مغاير لمغزى النص الدينى، ما ينطبق على تباين التفسيرات السوسيولوجية للنصوص فى بلدان العالم الإسلامى المختلفة. وعلى ذلك، فالتفسير المصرى المتأثر بالتراكم الثقافى المتعدد الأطياف يختلف عن غيره من التفسيرات الأحادية الطيف، والتى تلجأ فى بعض الأحيان إلى الحرفية، الأمر الذى شكل تاريخيا المسافة الذهنية بين مدرسة النقل ومدرسة العقل فى الفقه الإسلامى، حيث تقوم الأولى على مبدأ: لا اجتهاد مع النص، بينما ترى الثانية أن الاجتهاد يكون لاستجلاء المرامى البعيدة للنص.

ويحكم عوامل عدة، كالطبيعة الجبلية والتركيبة الاجتماعية القائمة على النسق العشائرى، فإن إدراك الإسلام فى منطقة جنوب آسيا يظل ذا طابع خاص، يختلف عنه فى مصر، نظرا لأن العقيدة تعتبر عامل التوحيد فى تلك المنطقة لتجاوز الاختلافات العرقية التى تشكل رقما صعبا فى التوازن الاجتماعى الجنوب أسيوى.

ونتيجة لظروف الاحتلال السوفيتى لأفغانستان فيما بين عامى ١٩٧٩ و١٩٨٩، فقد كان الدين عامل تعبئة ضد الاحتلال والنظام الشيوعى الموالى لموسكو، ومن ثم يمكن فهم كون الإدراك الأفغانى للإسلام آنذاك ذا طابع أحادى التفسير وفقا لمنظور حرفى تقليدى.

وفيما بعد الانسحاب السوفيتى، وعودة المصريين الذين اشتركوا فى الحرب، فقد بدا أن صداما على وشك الوقوع بين منظورين مختلفين للمجتمع، أولهما يقوم على العودة إلى الأصول، والآخر يقوم على استلهام الليبرالية الغربية التى انتصرت فى الحرب الباردة، مما أدى إلى تفشى ظاهرة الإرهاب كنوع من أنواع العنف السياسى فى مصر خلال تسعينيات القرن العشرين، وما ترتب عليها من سعى الإرهابيين إلى تطبيق مشروعهم الفكرى غير محدد الملامح بقوة السلاح، الأمر الذى انعكس على نظرة الجماعات الإسلامية إلى المسيحيين على اعتبارهم فى أحسن الأحوال رعايا من الدرجة الثانية وليسوا مواطنين.

وبالرجوع إلى الدوافع السيكولوجية للعنف السياسى، وأهدافه السوسيولوجية، يبرز عامل الرمز كأداة للفرز الطائفى، ومن ثم تحديد هوية الأتباع والخصوم. فالعنف السياسى، كما يذهب الدكتور قدرى حفنى، ينتمى إلى تلك الأنواع من العنف التى لا تستهدف أشخاصا لذواتهم، بل تستهدفهم لصفاتهم الاجتماعية أو الفكرية أو الدينية أو العرقية... ومن يمارسونه إذ يوجهونه إلى أشخاص، فإنهم لا يوجهونه إليهم بصفاتهم الذاتية، بل باعتبارهم رموزا تعبر عن الآخر المرفوض[3].

من ناحية أخرى، لا يمكن قصر دوافع ظاهرة الإرهاب على استهداف الآخر المرفوض، إذ أن موجات الإرهاب التى نشأت متزامنة مع فترة الاحتقان خلال السبعينيات لم تكن موجهة فى الأساس على أساس طائفى بنفس درجة كونها محاولة للوثوب على السلطة من قبل الجماعات المتطرفة، ومن ثم تطبيق نسق أيديولوجى لا يقوم على مبدأ المواطنة بأبعاده المدنية، على عكس ما تصوره بعض وسائل الإعلام الأجنبية من الربط بين العنف المضاد للدولة والمظاهر التى يمكن أن تؤدى إلى تفسير طائفى للأحداث. فيحدث أحيانا أن يسقط ضحايا فى نزاعات، ويكون من بين المؤشرات العديدة التى تدل على هويتهم أنهم من الأقباط[4].

والملاحظ أن الإرهاب لم يكن عامل تفتيت fragmentation للمجال العام فى مصر على أساس طائفى بقدر ما كان عامل توحيد. لقد شعر المصريون بأن خطرا داهما يوشك أن يفتك بالمجتمع، ما كان سببا فى صناعة ملحمة، اشتركت فيها الأجهزة الأمنية والإعلامية والثقافية لاجتثاث الإرهاب، حيث مثلت التجربة المصرية نموذجا رائدا فى هذا المجال.

واستكمالا لما أسلفناه من تآكل الطبقة المتوسطة، وطغيان المادة، فقد أدت عودة المصريين المقيمين بالدول النفطية إلى تعميق ذلك النمط الحياتى للاستهلاك، وتعظيم دور المادة فى المجتمع.

ونسجا على منوال نظرية الحزمة الواحدة Single Package، فقد ارتبطت مظاهر الثراء





اجتهادات الدعاة الجدد الذين ظهروا منذ أواخر القرن العشرين فى النوادى وبيوت الأثرياء عمدت إلى تمجيد الثروة واستلهام النصوص الدينية التى تصب فى هذا الاتجاه

والنعمة والاستقرار الاجتماعى لدى المواطنين العائدين بالسلام الروحى فى ظل منظومة قيمية محافظة. الأمر الذى مهد لمحاولات استيراد تلك المنظومة وطرحها فى السوق الاجتماعى المصرى Egyptian Social Market. فكتب فقهاء الدين السعوديين متوفرة بالمكتبات، وتسجيلات الخطباء فى دول الخليج ومحاكيهم من المصريين مسموعة فى وسائل المواصلات العامة، وتسجيلات تلاوة القرآن الكريم الخليجية رغم ما يعترى بعضها من أخطاء تجويدية أصبحت بندا فى افتتاح المتاجر والمطاعم. واللهجة الخليجية غدت إحدى لهجات الشعر الغنائى فى مصر.

الأمر لم يعد مقصوراً على الاستيراد وإعادة الطرح فحسب؛ وإنما امتد إلى التأصيل الاجتماعى للوارد الثقافى من خلال المزاوجة بين ثقافة الاستهلاك والتدين الوهابى. فاجتهادات الدعاة الجدد الذين ظهروا منذ أواخر القرن العشرين فى النوادى وبيوت الأثرياء عمدت إلى تمجيد الثروة واستلهام النصوص الدينية التى تصب فى هذا الاتجاه، مع مراعاة التكافل الاجتماعى من خلال التبرع الدائم لأوجه الخير. الأمر الذى أوجد حالة من الاسترخاء السيكولوجى لدى الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة من جهة، وأوجد من الناحية النظرية حالة مماثلة لدى الشرائح الأدنى المستفيدة من مخرجات التكافل الاجتماعى من أموال الأثرياء.

ومن المنطقى أن يقود تراكم تلك التفاعلات إلى عموم النمط الاستهلاكى، خاصة مع ثورة الخدمات التى يشهدها العالم، والتى أدت إلى تراجع نسبى لمكانة السلع فى التجارة، ومن ثم تركيز الإنتاج على صناعة الخدمات أكثر من اهتمامه بصناعة السلع، وبالتالى اعتماد سوق العمل بوجه عام على مهارات غير تقليدية، لا يمتلكها ذلك القطاع العريض من البشر الذين كانت حياتهم قائمة على عجلة الصناعة.

ومن ثم فإن عدم تفتق اجتهادات الدعاة الجدد فى أغلبها عن الدعوة إلى إيجاد مشروعات لتعظيم الإنتاج، وبالتالى رفع معدلات التشغيل بدلا من الإفراط فى التبرعات، انتهى إلى تعزيز ثقافة الاستهلاك، ليس فقط لدى الشرائح العليا من المجتمع التى تستهلك السلع وتقدم الخدمات، ولكن لدى الشرائح الأدنى أيضا التى تستهلك التبرعات ولا تقدم شيئا.

وكأحد مخرجات تلك المنظومة القيمية الجديدة، فقد تآكلت الطبقة الوسطى، علاوة على ظهور بوادر حالة من الانغلاق الاجتماعى السلمى - لم يرتبط فى أغلب الأحوال بممارسات عنف، ولا بتنظير فلسفى - سواء على المستوى الأفقى بين الشرائح الاجتماعية، أو على المستوى الرأسى بين طوائف المجتمع، تأثرا بالنمط الاجتماعى الخليجى القائم على أغلبية سنية ساحقة تشغل المجال العام.

من جهة أخرى، فقد لعب أقباط المهجر دورا موازيا فى تشكيل الوضع الطائفى الراهن. وعلى الرغم من عمق الدور الذى لعبه المصريون العائدون من الدول النفطية على الصعيد الاجتماعى، إلا أن الدور السياسى الذى لعبه أقباط المهجر اتسم بتأثير مباشر على الساحة الداخلية المصرية، وأجندة التحرك المصرى خارجيا؛ وذلك نظرا لحرية الحركة التى تمتعوا بها حاملين جنسيات الدول التى استقروا بها فى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وغرب أوروبا، واندماجهم فى مجتمعاتهم الجديدة مع احتفاظهم بروابط وثيقة فيما بينهم، جعلت منهم جاليات قوية، الأمر الذى سهل نفاذهم إلى دوائر صنع القرار فى بعض تلك الدول، فضلا عن تمتعهم بقدر من الثراء، يمكن عند الحاجة من فتح الأبواب المغلقة.

ويشير الدكتور يونان لبيب رزق فى كتابه «شئون وشجون تاريخية»، إلى أنه «ولسوء الحظ، فإن أقباط المهجر بدلا من أن يصبحوا رصيدا مضافا للدور المصرى تحولوا إلى عبء عليه، بل ورصيد لأعدائه، مما شكلوا معه مصدرا من مصادر الوهن، على عكس الحال مع الأقليات الأخرى، خاصة اليهود فى تلك البلاد الذين شكلوا أهم أرصدة الدولة الإسرائيلية رغم عنصريتها، أو حتى اللبنانيين، أصحاب التقاليد العريقة فى الهجرة!».

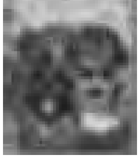
وفضلا عما أسلفنا من أسباب متعلقة بعمليات التطور الاجتماعى أدت إلى إيجاد وضع طائفى، فقد كان ثمة متغيرات إقليمية أدت إلى التأثير على التفاعل الاجتماعى فى دول المنطقة. لعل أبرزها إنشاء إسرائيل عام ١٩٤٨، والثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، والحرب الأمريكية على العراق عام ٢٠٠٣؛ إذ ترتب على تأسيس إسرائيل ظهور نموذج للدولة قائم على أسس دينية - وإن كانت النخبة التى أسست إسرائيل يسارية بالأساس - واستطاعت هزيمة قوات خمس دول عربية ذات نظم مدنية، الأمر الذى أدى إلى ردة فعل داخلية فى مصر، تمثلت فى عنف متبادل بين الإخوان المسلمين والحكومة، كان أبرز نتائجه اغتيال محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء، ثم حسن البنا مؤسس الإخوان المسلمين. كذلك، فليس من قبيل المصادفة أن يتم تأسيس تنظيم مسيحى تحت مسمى جماعة الأمة القبطية فى أواخر الأربعينيات. وفضلا عن أن ذلك التنظيم قد أحيا فكرة الأمة القبطية التى دعا إليها حبيب جرجس فى أوائل القرن العشرين، فقد مارس العنف من خلال قيام مجموعة من أفراده بقيادة شاب يدعى إبراهيم هلال باختطاف البطريرك الأنبا يوساب، وإجباره على توقيع وثيقة تنازله عن العرش البطريركى، وخطاب توصيات بتعديل اللائحة المتبعة لانتخاب البطريرك بما يترك الجمهور القبطى فى عملية الانتخاب.

ولعل وصول الليكود إلى السلطة فى إسرائيل نتيجة للانتخابات المبكرة التى تم تنظيمها فى مايو ١٩٧٧على خلفية الفضيحة المالية، التى اضطرت رئيس الوزراء الإسرائيلى آنذاك إسحاق رابين الذى خلف جولدا مائير إلى الاستقالة، كان من ضمن عوامل نشاط الحركات المتطرفة فى المحيط العربى، وبخاصة فى مصر التى شهدت فى تلك الفترة، وتحديدا فى ذلك العام، احتقانا طائفيا.

وفى سياق متصل، أدت الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ إلى زيادة نشاط الطائفة الشيعية فى دول الخليج، وقد داعبتها شعارات تصدير الثورة الإسلامية، وازدياد نشاط الطائفة الشيعية فى لبنان، خاصة فى ظل وجود تعاون سورى إيرانى، ما أدى إلى ظهور حزب الله فى أوائل الثمانينيات، بالإضافة إلى نشوب حرب الخليج الأولى (الحرب العراقية الإيرانية ٨٠-١٩٨٨) كضربة استباقية من نظام صدام حسين ضد محاولات الخمينى تصدير الثورة إلى الأغلبية الشيعية فى العراق، واعتبرت فى ذلك الوقت صراعا عربيا فارسيا، سنيا شيعيا، علمانيا دينيا، الأمر الذى أوجد حالة من السخط الدفين لدى شيعة العراق، الذين اضطروا لحمل السلاح فى مواجهة إخوتهم فى المذهب على الضفة الشرقية لشط العرب.

وكان لابد أن ينعكس ذلك على الوضع فى مصر، حيث شكلت الثورة الإيرانية حافزا لازدياد نشاط حركات الإسلام السياسى، وقد جمع بين الاثنين رفض معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية التى تم التوقيع عليها فى ٢٦ مارس ١٩٧٩، وبالتالى ازدياد حدة الأحداث الطائفية والاحتقان الاجتماعى عموما فى أواخر السبعينيات، الأمر الذى وصل إلى ذروته باغتيال الرئيس السادات فى السادس من أكتوبر ١٩٨١ فى محاولة انقلابية، استلهمت نموذج الثورة الإيرانية.

المحطة الثانية فى مسلسل الصعود الطائفى فى الشرق الأوسط كانت مع حرب الخليج الثالثة ٢٠٠٣، حيث وصلت الطائفة الشيعية إلى الحكم فى العراق، وأدى سقوط النظام العراقى السابق إلى فوضى سياسية وأمنية، امتدت إلى لبنان والأراضى الفلسطينية. فضلا عن أن وجود نخبة شيعية على رأس الحكومة



عدم قبول الآخر قد تشكله عوامل أخرى غير التشدد الديني والعامل الاقتصادي. فنزعات الحمية والثأر، وازدياد حدة طباع الإنسان نتيجة لإيقاع الحياة السريع قد تكون زادا لعدم قبول الآخر..

العراقية شكل مساحة تمدد طبيعية لإيران في الإقليم، ومن ثم ازداد نشاط الطائفة الشيعية في دول الخليج ولبنان، كما ظهرت مزاعم بوجود طائفة شيعية كبيرة في مصر، مع وقوع بعض الحوادث التي وصفت بالطائفية بين المسلمين والمسيحيين، فضلا عن ظهور بوادر حركة تشيع في السودان.

من ناحية أخرى، أسهم بروز الزعامات الدينية في العراق على ساحة العمل السياسي، واستناد العملية السياسية فيه إلى المقايضات الطائفية في انتعاش فكرة الدولة الدينية. لا سيما مع مزايدة التيار الديني على مواجهة إسرائيل، الأمر الذي يمكن ملاحظته من قيام حزب الله بعملية اختطاف الجنديين الإسرائيليين، التي استتبعت اندلاع حرب يوليو ٢٠٠٦ بينه وبين إسرائيل، وتبعها بروز مطالب من حزب الله بتعديل الخريطة السياسية في لبنان؛ لتوائم المتغيرات الجديدة في ظل ما اعتبره انتصار المقاومة في ظل نتيجة ضبابية تمخضت عنها تلك الحرب غير المتماثلة Asymmetry War. ثم أعقب ذلك إطلاق إسرائيل سراح سمير القنطار عميد الأسرى اللبنانيين في يوليو الماضي في أعقاب مفاوضات تمت بينها وبين حزب الله، الأمر الذي رفع أسهم الأخير لدى الشارع بعض الشيء، بعدما تراجعت شعبيته إبان المواجهات المسلحة التي اشتبك خلالها بالقوى اللبنانية الأخرى قبل اتفاق الدوحة.

كذلك، فقد كان من نتائج انتعاش فكرة الدولة الدينية فوز حماس في الانتخابات التشريعية الفلسطينية التي جرت في يناير ٢٠٠٦، وقيامها بتشكيل الحكومة الفلسطينية. من جهة أخرى، كان الإخوان المسلمون قد تمكنوا من الحصول على ٨٨ مقعدا بمجلس الشعب في الانتخابات التي أجريت عام ٢٠٠٥ .

وفيما يتعلق بالأسباب الآنية لوقوع أي حدث طائفي، ومع التسليم بتنوعها، إلا أن ثمة قضايا ثلاثا رئيسية، وهي الاختلاف حول بناء الكنائس الجديدة، واستخدام بعض المواد الإعلامية بشكل غير مسئول، واعتناق فتيات مسيحيات للإسلام.

فلعقود طويلة، ظل بناء الكنائس الجديدة خاضعا لفرمان عثماني عرف باسم «الخط الهمايوني» الصادر عن الباب العالي بتحديد إنشاء دور العبادة لأهل الذمة في مصر. وقد صدر ذلك الفرمان في فبراير ١٨٥٦ في عهد السلطان عبد المجيد بن محمود الثاني، وظل مطبقا إلى أن ألغى الدستور الدائم لجمهورية مصر العربية الذي تم وضعه عام ١٩٧١ القواعد المتوارثة بشأن الخط الهمايوني، وذلك بنصه على حرية أداء الشعائر الدينية. وعلى الرغم من ذلك، فقد شكل بناء الكنائس الجديدة أزمة متجددة سواء على المستوى الاجتماعي أو على المستوى التنفيذي، الأمر الذي كشفت عنه حادثة حرق كنيسة بالخانكة عام ١٩٧٢، وما تبعها من تحرك مجلس الشعب لوضع تقرير بهذا الشأن، وقد تكررت مثل تلك المشاكل خاصة في الصعيد، كما حدث في العديسات بمدينة الأقصر، ثم بمركز العياط أخيرا .

وقد أصدر الرئيس حسني مبارك قرارا عام ٢٠٠٥ بتفويض المحافظين في إصدار هذه القرارات، ثم تولى المجلس القومي لحقوق الإنسان لمدة عامين مهمة إعداد مشروع قانون موحد لبناء وترميم وتوسعة دور العبادة، الإسلامية منها والمسيحية، حتى تم إنجاز مشروع القانون خلال عام ٢٠٠٧ .

من جهة أخرى، فاستخدام بعض المواد الإعلامية بشكل غير مسئول أدى إلى ازدياد حدة الطائفية. ويتم ذلك في الغالب من قبل أفراد ينتمون لطائفة ما لتوجيه انتقادات إلى طائفة أخرى، على نحو ما كان واضحا من قيام جريدة النبأ بنشر مشاهد من شريط فيديو، قيل إنها لراهب في أسيوط يقوم خلاله بممارسة الجنس داخل الكنيسة. كذلك، فأحداث الإسكندرية التي وقعت في ١٤ أبريل ٢٠٠٦ اندلعت بسبب مسرحية تناولت الإرهاب، كان قد تم تمثيلها بكنيسة في حي محرم بك، وتم توزيعها على أسطوانات مدمجة CDs.

ومن جهة ثالثة، ونتيجة لعلاقة عاطفية قد تنشأ بين فتاة مسيحية وشاب مسلم، تتطور إلى قبول الفتاة اعتناق الإسلام والتغيب عن ذويها تخوفا من رد فعلهم، مما يدفع أسرتها إلى إبلاغ سلطات الأمن بتغيب فتاتهم، الأمر الذي يتلقفه البعض باعتباره نوعا من الخطف والتغييب القسري، ويدفعون به كمبرر لأحداث طائفية.

ما بين التمدن والهوية

قد يمثل التمدن أو عدمه أو ممارسته وفق مفاهيم مختلفة عاملا في تراجع الهوية الوطنية وصعود الطائفية. وبدون التطرق إلى استنباط ماهية التمدن، فإننا سنستند إلى المفهوم الشائع عنه من حيث كونه يمثل الارتقاء الحضاري للإنسان في تفكيره وهيكل إنتاجه ونمط معيشته وعلاقاته مع الوسط المحيط. وفي هذا الصدد، فقد ذهب أوجست كونت Auguste Comte عند تناوله الديناميكا الاجتماعية في كتابه «دروس في الفلسفة الوضعية» Course de philosophie positive، إلى أن النظم الاجتماعية قد تحولت من العائلية domestique إلى الحالة الجمعية collective إلى الحالة العالمية universal[2].

وقد يكون من نتاج التمدن ظهور ضرورة لتوسيع الأطر الدينية والمذهبية، للمواءمة بين معطيات المدنية وتعاليم الأديان؛ حيث يشكل الدين حيزا كبيرا من نظام القيم System of Values الذي يضبط نمط التعاطي مع التقدم المادي.

إلا أن التمدن قد يحمل أيضا توجها نحو مزيد من الانغلاق، وبالتالي تسيد حالة الطائفية، إذا ما طغى فيه الجانب المادي على الجانب القيمي، بحيث يقوم الأول باستغلال الثاني للاستئثار بمنافع التمدن، أو إذا ما أفضى التمدن إلى حالة من الترف تدفع إلى البحث عن نظام قيمي أكثر صرامة كرد فعل، فيما يمكن أن نسميه فكر الخلاص. كما أن البقاء بعيدا عن المدنية قد يكون تربة خصبة لمبدأ عدم قبول الآخر، حيث يشكل هذا المسلك نمطا فكريا سائدا في الثقافات ذات الطبيعة اليمينية.

وفي حين أن التشكل التاريخي للمجتمع المصري وتراكمه الحضاري قد شكلا سدا ضد سيادة مثل ذلك النمط، فإن الأفكار العابرة للحدود والتي صاغت نظريات الجماعات المتطرفة في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات لعبت دورا في شيوع هذا النمط. كذلك فإن العوامل الاقتصادية لعبت دورها في ترسيخه، مما كان له بعض انعكاساته الطائفية، تزداد في الطبقات الفقيرة، وتقل كلما صعدنا إلى قمة المجتمع.

وفي الغالب، فإن عدم قبول الآخر قد تشكله عوامل أخرى غير التشدد الديني والعامل الاقتصادي. فنزعات الحمية والثأر، وازدياد حدة طباع الإنسان نتيجة لإيقاع الحياة السريع قد تكون زادا لعدم قبول الآخر..

ويبدو للوهلة الأولى أن طغيان المادة قد يكون هو الحل الأمثل للقضاء على الطائفية. إنه يتحلل من قيود المنظومة القيمية، ويكرس مفاهيم العمل والنجاح والثروة، كما أنه ينتهج المفهوم المدني في التعاملات اليومية بعيدا عن الاعتبارات العقائدية أو الأيديولوجية. فضلا عن ذلك، فإنه يخلق حالة من التنافس المحموم، تؤدي نظريا إلى زيادة الاستثمارات ومعدلات الإنتاج، وبالتالي تحقيق معدلات نمو اقتصادي متقدمة.

ومع التسليم بما سبق في إطاره النظري، فإن قابليته للتطبيق محل انتقاد، نظرا لما يصاحبها من تشوهات تلحق بالنسيج الاجتماعي للمجتمع. ففضلا عن تقلص الطبقة الوسطى، فإن امتلاك المادة لوسائل توجيه المجتمع تجعله أشبه ببورصة للتيارات المختلفة، ترتفع قيمة أسهمها في المجتمع أو تنخفض بناء على علاقاتها بمصادر التمويل، الأمر الذي تعبر عنه بجلاء الفضائيات الخاصة التي تسهم بصورة متزايدة في تغيير الواقع الاجتماعي، والتي تعد من الأسباب المباشرة في تغذية ظاهرة الطائفية في بعض المجتمعات.

وبالتالي يمكن تفسير وقوع بعض الأحداث

بعض الأحداث الطائفية قد تنشب فى الأساس بسبب مشادة أو عراك لا يمت للمساس بالمشاعر الدينية بصلة. وما إن يغلى المرجل، حتى يعلو صوت النعرة الطائفية فى السباب المتبادل

الطائفية فى ضوء ما تقدمه الأداة الإعلامية من توجهات تستفز هذا الطرف أو ذاك، وفى ضوء ما تقدمه المدنية من وسائل للتدمير وآفاق للعقلية الإجرامية، وفى ضوء ما خلفه طغيان المادة من طبقة من العاطلين لم يتمكنوا من استيعاب الإيقاع السريع لتطور المجتمع، واحتياجات سوق العمل. فاتجهوا إما إلى الاستسلام للأفكار السلفية التى تواسيهم بالنعيم الأبدى فى الآخرة (ولعلنا هنا لا نتناول السلفية كتوجه دينى، وإنما كاتجاه فكرى. ومن ثم يمكن إسقاطه على أية ديانة، وليس الإسلام على وجه التحديد)، أو إلى نفث غضبهم فى أوصال المجتمع تحت أى شعار وبلا أى هدف.

والملاحظ أن بعض الأحداث الطائفية قد تنشب فى الأساس بسبب مشادة أو عراك لا يمت للمساس بالمشاعر الدينية بصلة. وما إن يغلى المرجل، حتى يعلو صوت النعرة الطائفية فى السباب المتبادل، ويتحول الأمر من مشاجرة بسبب تافه إلى معركة طائفية ذات أسباب مختلقة.

من زاوية أخرى، وكأحد تداعيات الثراء لدى فئة بالمجتمع، انتشرت فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين ظاهرة الدروس الدينية الخاصة. وعلى الرغم من أن المجتمع المصرى بطبيعته مجتمع متدين، وأن ظاهرة الدروس الدينية فى المساجد وعلى رأسها الأزهر الشريف تعد أمرا مألوفا، إلا أن الدروس الخاصة فى النوادى والبيوت حملت دلالة أكثر عمقا، نستطيع أن نطلق عليها الدورة العكسية للمدنية المادية Reverse Cycle of Materialistic Civility، فهى أشبه ببندول ارتفع بقوة دفع إلى نقطة ما، اكتسب عندها قوة دفع عكسية بفعل الجاذبية الأرضية ليهبط، ثم يواصل مسيرته فى الاتجاه العكسى.

وهذه الدورة العكسية للمادية تولدت نتيجة النمط الاستهلاكى، والشعور بغياب المشاركة فى إنتاج الحضارة، حيث ترتبط المدنية فى أوساط قطاع كبير من المجتمع باستهلاك الحضارة لا بإنتاجها، الأمر الذى يولد خواء نفسيا، استطاع بعض الدعاة الدينيين ملأه من خلال فكرة الخلاص.

وفى الأغلب، فإن الخلاص الذى بشر به أولئك الدعاة خلاص فردى، لا يمتد إلى محاولات فرضه بالقوة، ولا إلى الدعوة إلى نعرة طائفية، إلا أن تعمق هذه النزعة الفردية كتجل آخر من تجليات المدنية المادية أدى إلى إيجاد حالة من الانغلاق والزهو الاجتماعى المستند إلى امتلاك المادة والخلاص، أو بعبارة أخرى حيازة السعادة الدنيوية والأخروية. وكان لابد أن تنعكس حالة الزهو فى إعادة إنتاج إنتليجنسيا جديدة، تنبع ثقافتها من التعاليم الدينية، على عكس الإنتلجنسيا الحالية التى يغلب عليها الطابع العلمانى.

الأمر ذاته يتكرر بدرجة متفاوتة بين المسيحيين من خلال الإقبال على الدروس الدينية والأنشطة الاجتماعية التى ترعاها الكنيسة، مما خلف حالة من التدين الأيقونى والشعور بالاغتراب عن المجال العام؛ تبالغ بعض وسائل الإعلام وأقباط المهجر فى تناولها، وتفصيل أسبابها وتداعياتها. ولا شك أن حالة الاغتراب هذه تؤدى إلى تحول الطائفية من مجرد بعد سوسيولوجى يعكس الاختلاف الطبيعى بين البشر إلى أحد مكونات العمق السيكولوجى، بما يغذى ثقافة التمايز والبحث عن نقاط التباين لا مساحات الالتقاء.

وبوجه عام، فتبلور هذه الإنتلجنسيا الجديدة يقودنا إلى إشكالية هامة من إشكالات التمدن، تلقى بظلالها على العلاقة بين الوطنية والتنوع الطائفى، ألا وهى ضبابية المعايير الاجتماعية الحاكمة للسلوك العام، ويتأتى ذلك من نتاج عمليات الاتصال والتفاعل المستمر بين الثقافة المجتمعية السائدة وثقافات أخرى وافدة. فعملية التراكم الثقافى لا تتم فى الغالب فى إطار انعزالى isolative، وإنما فى إطار تفاعلى interactive؛ إذ إن الحضارة ليست بالضرورة ثمرة الرشد البشرى، ولكنها نتاج التبعية المتبادلة بين البشر(٦). فى أغلب الأحوال، الأمر الذى يمكن ملاحظته بجلاء فى التراث الثقافى المصرى الذى لا يشكل ثقافة نقية، وإنما خليطا مصريا من ثقافات عدة.

وخلال اللحظة الافتراضية لعملية التزاوج الثقافى، فإن ثمة متناقضات تطرح نفسها بقوة على الساحة ما بين التمسك بالموروث واعتباره هوية لا فكاك منها، أو اعتناق الوافد والتسليم بحداثته وتقدمه، أو سلوك الطريق الثالث The Third Way والقيام بعمليات انتقائية(٧)، أو تطويعية؛ بغية الملاءمة بين الموروث والوافد، إلى غير ذلك من الحلول الكولتوسوسيولوجية الهادفة إلى توفير رضاء مجتمعى عن حالة الانتقال، ومن ثم الدخول فى نسق ثقافى واجتماعى جديد، يتجاوز مرحلة الازدواجية الثقافية Cultural Dualism.

وتعتبر عملية العولمة Globalization بأدواتها الاتصالية الواسعة النطاق، ومعطياتها المعرفية المتعددة التأثير ثورة فى نسق التزاوج الثقافى من حيث سرعة وكثافة عملية التبادل وتأثرها بالبعد الاقتصادى، ومن ثم تقدم تأثير الثقافة الليبرالية المنتصرة فى الحرب الباردة خلال المنظومة العولمية على تأثير غيرها من الأطروحات الكلية.

وكان من الطبيعى أن تنشأ فى مصر خلال هذه المرحلة الثقافية الانتقالية حالة من التعدد الثقافى، الأمر الذى يدفع بدوره، وفقا لما يذهب إليه الدكتور على ليلة، إلى نشأة الثقافات الفرعية. ونتيجة لذلك، تعجز المنظومة القيمية السائدة عن ضبط السلوك العام. وكمحصلة لتلك الضبابية الوليدة، يتمسك الأفراد بجذور الهوية، أو الثقافات الفرعية، ويتولد نوع من رد الفعل الراديكالى إزاء عملية التزاوج الثقافى، الأمر الذى عبر عنه بول كلوديل فيما قبل الحرب العالمية الثانية بأن البشر كلما ازداد تعارفهم قل تعاطفهم، وكلما ازداد تلامسهم ازداد نفورهم، وكلما ازداد وعيهم بأنفسهم ازدادوا ارتباطا بهويتهم وبجذورهم وبالفروق الأساسية بينهم(٨).

هذا الرأى يرجحه العالم الفرنسى مارسيل ميرل Marcel Merle، معضدا إياه بنظرية شاتوبريان Chateaubriand بأن النزاعات الأهلية تبدو أكثر معقولية من الحروب التى تندلع بين دول لا تعرف شعوبها بعضها البعض. وعلى الرغم من حصافة منطق كلوديل وشاتوبريان وميرل، خاصة أنه ينطلق من الواقع لا من النظرية، إلا أن التوسع فى تفسير - ومن ثم تبرير - التفاعلات الإنسانية سواء على صعيد العلاقات الدولية أو الحراك الاجتماعى انطلاقا من النوافع التجريدية قد يؤدى بالتحليل السياسى إلى العودة إلى مبادئ القانون الدولى التقليدى، من شرعية الاستعمار وحق الدولة فى شن الحرب لتحقيق مصالحها، وإسقاط تلك المبادئ على التفاعلات الاجتماعية بدعوى المعقولية والاتساق مع الطموح البشرى المجرد، وهو ما قد يعنى وبشكل مباشر العودة إلى شرعة الغاب.

وبمطالعة الوجه الآخر للعلاقة بين الوطنية المصرية والتنوع الطائفى، فتحديد ملامح الهوية يثور بصدده نوعان من الإشكالات، أحدهما يتعلق بالهوية الجمعية Collective Identity للمجتمع المصرى، والآخر يتعلق بالهوية الفردية Individual Identity للمواطن المصرى، والتى تتباين بشأنها الآراء وتدور المناقشات، ويحاول البعض الارتقاء من شأن أولوياته فى تحديد هويته الفردية ليدعو إلى اعتبارها هوية جمعية للمجتمع ككل.

ويثور بالنسبة للهوية الجمعية سؤال حول الانتماء النهائى لمصر من منظور السيكولوجيا العامة: هل المصريون عرب أم أقباط؟ ولعل هذا السؤال فى الأساس سؤال نخبوى، لا يشغل بال المواطن البسيط الكادح فى سبيل لقمة العيش، ومن ثم فلن نضيع عناء البحث العلمى سدى فى سبيل البحث عن إجابة له، غير أن الاستدلالات التالية قد تشكل معينا لنا لتحديد الانتماء النهائى لمصر:

١ - صعوبة الادعاء بوجود هوية خالصة للمصريين، أو عرق واحد



ينحدرون منه، فالهوية المصرية هى نتاج اندماج العديد من القوميات واللغات والحضارات على أرض مصر.

٢ - إن الانتماء العربى لمصر يشكل أبسط وأشمل الصيغ الجامعة للهوية المصرية. فالعناصر غير العربية التى وفدت إلى مصر ارتضت بأن تهجر لغاتها الأصلية لتتحدث العربية، كما أن الأقباط قد ألفوا اللغة العربية، خاصة بعدما تحولت الصلاة فى الكنائس إلى اللغة العربية[٦].

٣ - لا تشكل الجذور القبطية للهوية المصرية عائقا ضد الانتماء العربى لمصر: نظرا لتطور مفهوم الانتماء القومى لدى العرب من حيز الانتماء العرقى الضيق إلى نطاق المشاركة اللغوية الرحب، ليقدم مثلا رائدا فى ثقافة الاستيعاب والتبادل، واعتبار الموروث الثقافى أساسا للهوية المشتركة، على عكس ما قدمته النازية من تقديس للعرق على حساب مساحات الالتقاء مع الآخر كاللون، والجوار الجغرافى، والتاريخ، والثقافة.

كذلك فالجذور القبطية للهوية المصرية تشكل إطارا جامعا لكافة الحضارات التى اتخذت من مصر منطلقا لها، فرعونية وفارسية ومقدونية وبطلمية ورومانية وبيزنطية وإسلامية، وبالتالى فوجود تلك الجذور كرافد لهذه الهوية هو استناد إلى تراث إنسانى هائل: استطاع الإنسان المصرى دائما أن يعيد صياغته بما يتلاءم مع بيئته الزراعية المستقرة، والتعددية الكامنة فى أعماقه فى إطار توحيدى جامع.

أما بالنسبة للهوية الفردية، فثمة سؤال تقليدى حول ترتيب أولويات الهوية الفردية بين الجنسية والعرق والديانة. ولعل مثل هذا السؤال قد لا يجد مكانا بين غالبية المسيحيين فى مصر؛ إذ إن المفردات الثلاث للهوية لديهم تنبع من معين واحد، فالمسيحى المصرى هو فى الغالب قبطى، وبالتالى فهو مصرى كابرا عن كابر. ولكن الأمر يأخذ أبعادا أكثر تشعبا بالنسبة للمسلمين: فالمسلم المصرى يشعر بانتمائه العربى، بكل ما يزخر به هذا الانتماء من مفردات الثقافة الإسلامية، كما أنه مرتبط بجذوره الحضارية الضاربة فى عمق التاريخ عبر سلسلة من الحضارات المتعاقبة التى توالت على أرض مصر.

ولاستجلاء مشروع إجابة عن هذا السؤال، فإن ثمة ثلاث ملاحظات تحاول تحديد مساحة الجدل:

١ - إن الفتح العربى الإسلامى قد وصل مصر وفارس فى توقيت متزامن (أواخر ثلاثينيات القرن السابع). وعلى الرغم من أن المصريين قد قبلوا الحضارة الإسلامية دينا ولغة، فإن الفرس قبلوا الدين الإسلامى، ولكنهم رفضوا هجر لغتهم الأصلية - وإن كانت قد كتبت بالحروف العربية - رغم قربهم لقرون طويلة من مركز الخلافة العباسية فى بغداد. ولم يقدح أحد فى إسلامهم رغم أنهم لا ينفكون يؤكدون فارسيتهم.

٢ - إن بعض العرب من الشوام - مملكة الغساسنة - ظلوا على مسيحيتهم رغم عروبتهم الأصيلة، وتأثروا بالتطور التاريخى للحضارة العربية بمحتواها الثقافى الإسلامى، وظهر منهم أعلام فى الأدب العربى كالشاعر الأموى الأخطل، والشاعر اللبنانى خليل مطران. ولم يشكك أحد فى عروبتهم رغم أنهم لا يزالون متمسكين بمسيحيتهم.

٣ - إن اللغة العربية أصبحت هى السائدة فى المجتمع المصرى، كما أسلفنا، وتبع ذلك إقبال عدد كبير من الأقباط على اعتناق الإسلام فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر. وبالتالى لا ينبغى أن يقلل أحد من مصريتهم رغم أنهم حملوا راية الدفاع عن الإسلام والعروبة لقرون طويلة.

إن الانطلاق من انتماء مصر كدولة لجذور قبطية وهوية عربية يجعل من السهل صياغة هوية فردية للمواطن المصرى باعتبار مصر نقطة التقاطع بين الإسلام والعروبة، والمسيحية والقبطية. فمصر من جهة مهد الأقباط وقلعة المسيحية، ومن جهة أخرى، فهى مركز الإشعاع الحضارى للعالم الإسلامى، ورائدة القومية العربية.

وعلى ذلك فالهوية المصرية تحمل فى طياتها الانتماء الدينى والثقافى، مع تنحية الانتماء العرقى فى ضوء ما سبق وخلصنا إليه من أن ثمة امتزاجاً للأعراق التى ينحدر منها المصريون على نحو يصعب معه زعم الانتماء إلى عرق بعينه.

ومع الإقرار بجدلية مسألة ترتيب أولويات الهوية، فإن ذلك الترتيب لا يخضع لقاعدة جامدة، وإنما يتغير وفقا للمعطيات الحياتية المختلفة، فقد يقف المصرى المسلم فى صلاته إلى جانب هندى مسلم، وقد ينهمك مصرى مسيحى فى حوار حميم مع عراقى مسلم، ومن الطبيعى أن يحارب مصرى مسلم إلى جوار مصرى مسيحى عدوا غاصبا.

الجذور القبطية للهوية المصرية تشكل إطارا جامعا لكافة الحضارات التى اتخذت من مصر منطلقا لها: فرعونية وفارسية ومقدونية وبطلمية ورومانية وبيزنطية وإسلامية

ومن استعراضنا لبعض إشكالات التمدن والهوية، نجد أن الوضع الطائفى فى مصر قد تكون نتاجا مشتركا لتراكم تلك الإشكالات جميعا. ورغبة فى التحديد، فإننا نميز بين مستويين من المجتمع، تتباين انعكاسات هذه الإشكالات على كل منهما:

المستوى الأول: الإنتلجنسيا المصرية، وهذه النخبة عند وجدت فى تساؤل دائم حول الهوية، ما خلف ذلك الميراث الضخم من النظريات بهذا الصدد.

المستوى الثانى: الجمهور الذى يتفاعل مع معطيات المدنية وفق أنماط مختلفة، فهو إما يفتقر إليها، أو يمارسها بشراهة، أو يسعى لمعادلتها بمنظومة قيمية جديدة.

ولا تقل أهمية أحد المستويين عن الآخر، حيث يمثل الأول فى الغالب تشكيلا للثانى، بينما تنعكس تطورات الثانى على خطاب الأول. ولكننا نميل إلى الاعتقاد بخطورة أزمة التمدن على الهوية الوطنية لأكثر من سبب:

١ - أن الجدل الثقافى حول الهوية لم يؤد طوال تاريخه إلى استعار روح الطائفية، فى حين أن التطورات الاجتماعية السريعة قد تؤدى إلى انشقاق المجتمع سواء أفقيا إلى طبقات أو رأسيا إلى طوائف، ولعل الحراك الاجتماعى فى أعقاب حرب ١٩٤٨ كان من عوامل الصدام بين الإخوان المسلمين والسلطة وظهور عنف مسيحى (جماعة الأمة القبطية)، كذلك فقد انفجرت الأحداث الطائفية فى سبعينيات القرن العشرين مزامنة للانفتاح الاقتصادى.

٢ - يلعب العامل الاقتصادى دورا فى لجوء العاطلين إلى الأفكار الانطوائية، وبالتالى يصبح المناخ الاجتماعى مهيئا لأية بادرة للاحتقان الطائفى.

٣ - يلعب ذات العامل دورا فى تنامى ما يطلق عليه البعض الحقد الاجتماعى بوجه عام، وأصبح هذا الحقد مستعدا للتوجه رأسيا أو أفقيا، بما يؤدى إلى أحداث طائفية على غير أساس طائفى، ولعلنا فى التحليل الأخير نرجع غلبة هذا السبب كحاضن Nesting Reason للأسباب الأخرى التى تؤدى إلى توتر طائفى.

وبناء على ذلك، فإننا نخلص إلى النتائج التالية:

١ - ليس ثمة ما يمكن اعتباره ظاهرة طائفية حقيقية فى مصر، بل إنه من الصعب التيقن من وجود حالة عامة من الاحتقان الطائفى، غير أنه يمكن ملاحظة محاولات لتسويق حالة من الانغلاق الاجتماعى على المستويين الأفقى والرأسى.

٢ - لعب العامل الاقتصادى دورا ملحوظا فى بلورة هذا الانغلاق بتآكل الطبقة الوسطى، وتوالى الانعكاسات الاجتماعية للوضع الاقتصادى، الأمر الذى بلغ ذروته فى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن العشرين، قبل أن يتم تطبيق برنامج الإصلاح الاقتصادى عام ١٩٩١، ثم يتزامن تطبيقه مع التحرك الأمنى المنظم لاجتثاث ظاهرة الإرهاب، الأمر الذى تعد فيه التجربة المصرية رائدة فى هذا المجال.

٣ - لعبت الأفكار العابرة للقوميات Transnational Ideas دورا فى تعميق حالة الانغلاق الاجتماعى سواء كانت أفكارا تصب فى تغذية النمط الاستهلاكى للحياة، وما ينطوى عليه من نزعة

كتاب الزاوية

قصائد من المغرب العربي
(٣)
الخروج من مقهى الزنوج

أأزعجتكم يا ندامى؟
آكسّرت كاساً ... ولم أتكسّر؟
أناح بقربي حمامٌ
وسالت دموعُ اليتامى
ولم أتأثّر؟
أقبّلت منكم صديقا ...
ولم أعتذر في الصّباح؟!
لماذا إذن تسقطون
وما كلّ هذا الصّياح؟!
أأزعجتكن يا بنات؟!
ألاطفتُ منكن أنثى بدون رضاها؟
أقلت كلاماً جميلاً...
على شامة فوق خد جميل
ولم أطلب العُذر قبلَ المساء؟
لماذا
إذن
يا نباتْ
تهيج على صدرها في الربيع
وتأوي إلى معطف في الشتاء؟!
أأزعجتكم يا رفاق؟
أقلت كلاماً صحيحاً عن الحزب، من نوع: أن
على الحزب، ألاّ يكون صغيراً
كحبّة سكّر
وألاّ يكون كبيراً
كقطعة سكّر
لكي لا يذوب بقهوتهم
كلّما سقطوا وأفاقوا؟!

أولاد أحمد
تونس

وجود مشروع اجتماعي، أو وجود تهديد ما يعد عاملا للتوحيد الاجتماعي في المجتمعات ذات الطبيعة العائلية كالمجتمع المصري، والمجتمعات العربية عموما

مادية، أو كانت أفكارا متطرفة تدعو إلى تكريس الولاء لنظريات دينية ذات تفسير ضيق.

٤ - نجم عن ذلك ظهور ما يمكن أن نطلق عليه تأيقن الهوية Iconization of Identity(٢)، واختزال القيم الروحية لأية هوية في طقوس مظهرية، ولدت حالة من الفرز الاجتماعي أفقيا ورأسيا. فموديلات الملابس والسيارات تتسارع وتيرة تغيرها، على نحو يرسم دائما حدا فاصلا بين الطبقات، ويجعل ثمة بونا شاسعاً بين السلعة الأصلية والتقليد. من جهة أخرى، فقد أدت المظهرية الدينية إلى بروز ملامح واضحة تمكن من تحديد الهوية الدينية للشخص بمجرد النظر.

ومع كامل الإيمان بالحرية الفردية كنمط حياة عصرية، إلا أننا كمهتمين بالفكر الاجتماعي والسياسي نرى أن حالة التأيقن هذه لابد أن تنطلق بموازاتها عملية حضارية كبرى لتعميق فكر التسامح الاجتماعي والقبول بالتعددية، والانتقال السلمي التدريجي لموقع الفرد من حركة المجتمع.

٥ - تندرج أغلب الأحداث الطائفية التي تقع في مصر - وهي نادرة بالقياس إلى الزخم الإعلامي الذي يصاحبها - في إطار الطائفية على غير أساس طائفي؛ إذ إن الوقعة قد تتكرر بين أفراد الطائفة الواحدة، وبالتالي لا يشكل نشوبها بين مسلم ومسيحي على سبيل المثال حادثا طائفيا بالمعنى السيكولوجي.

٦ - أدت محاولات السبق الصحفي والانفراد الإعلامي إلى قيام بعض وسائل الإعلام، لا سيما الفضائيات، برسم صورة مضخمة لما يحدث على أرض الواقع؛ بغية صياغة مادة إعلامية مثيرة، الأمر الذي أثر سلبا على المجال العام في مصر، وأدى إلى المساهمة في تسويق حالة الانغلاق الاجتماعي - وليس الاحتقان الطائفي - التي أشرنا إليها. كذلك فالنظرة الأحادية من جانب بعض المنظمات الحقوقية - وليس كلها بالطبع - إلى بعض القضايا المتعلقة بالنظام العام والسلام الاجتماعي فقط من منظور الحرية الفردية وحقوق الإنسان أدت إلى افتعال قضايا تتصل بالهوية الطائفية، وبالتالي وجه ذلك المجال العام إلى الخوض في جدل، كان الأحرى استثماره في أطروحات فكرية تسهم في الارتقاء بالمجتمع المصري.

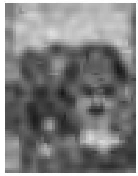
٧ - ليس ثمة تمييز في مصر ضد طائفة بعينها، سواء بحكم الدستور أو من الواقع المعاش. وعليه فإنه ليست ثمة مطالب سياسية ذات خلفية طائفية، خاصة أن نظام الحكم المصري Egyptian Regime تبنى بشكل واضح رؤية متسامحة في أوائل الثمانينيات على مختلف الأصعدة السياسية والفكرية والطائفية، بما مكنه من إعادة ترميم البيت الداخلي.

٨ - بالنظر إلى اختفاء حالة الانغلاق الاجتماعي في المراحل الأولى من التعليم، وتضاؤلها في مجالات العمل، حيث يتعاون الجميع لإنجاح العمل، يمكن أن يقود ذلك التنظير الاجتماعي إلى أحد بديلين للتعاطي مع التنوع الطائفي:

الأول: اقتباس نظرية الاعتماد المتبادل Interdependence من العلاقات الدولية وتطبيقها اجتماعيا للتقليل من المشاعر الطائفية، إلا أن هذه الفكرة بدورها تكرس مشهد الفصيلين المنفصلين اللذين تربطهما مصالح مشتركة، تحد من إرادة كل منهما في النيل من الآخر.

الثاني: نظرية المصير المشترك Common Destiny كسبيل لتوحيد الصف. وتعتمد تلك النظرية في الأساس على توظيف العوامل الثقافية والإعلامية؛ بغية استقراء الميراث الحضاري للمجتمع - مرورا بكافة أشكال النظم السياسية التي خضع لها - واستنباط القواسم المشتركة التي تشكل المنظومة القيمية للمجتمع ككل، ومن ثم رسم ملامح المشروع الاجتماعي، والتهديدات التي تواجهه.

ومن الضروري في ذلك السياق أن نذكر أن وجود مشروع اجتماعي، أو وجود تهديد ما يعد عاملا للتوحيد الاجتماعي في المجتمعات ذات الطبيعة العائلية Familial Societies كالمجتمع المصري، والمجتمعات العربية عموما، فتلك المجتمعات التي تتسم بقدر من الترابط الاجتماعي تمتلك عاطفة



جمعية Collective Emotion، يمكن من خلالها تفسير الانفعال بأشكال المؤثرات المختلفة، على عكس المجتمعات القائمة على النزعة الفردية Individualism، حيث تتقلص مساحة العاطفة الجمعية، حتى يمكن أن تنحصر فيما يمكن أن تطلق عليه العاطفة القومية National Emotion، التى تتأثر بوجود مشروع قومى للدولة كنظام سياسى - أو بوجود خطـــر يهدد كيان هذه الدولة.

والملاحظ أن التجربة العملية تطلبت المزج بين النظريتين، وصياغتهما فى قالب اجتماعى. ولعل تجربة اتفاق الطائف الذى يحكم النظام السياسى اللبنانى تعبر عن ذلك بجلاء، حيث كانت تراجيديا الحرب الأهلية اللبنانية التى استمرت من منتصف السبعينيات إلى أواخر الثمانينيات خلال القرن العشرين مدعاة إلى الإيمان بوحدة الوطن اللبنانى، وعدم الوصول بالتصعيد الطائفى إلى مرحلة الحرب الأهلية، وهو ما يمثل تطبيقا لنظرية المصير المشترك على الصعيد الاجتماعى، الأمر الذى كشفت عنه الأزمة السياسية اللبنانية المتواصلة منذ انتهاء حرب يوليو ٢٠٠٦ . فعلى الرغم من تعدد مدخلات الأزمة، وما شهدته من تحولات ومؤثرات خارجية وداخلية، إلا أن أطراف الأزمة لم يستطيعوا توظيف أساليب الحسم غير محسوبة العواقب، الأمر الذى كشفت عنه بجلاء الاشتباكات المسلحة التى اندلعت فى مايو الماضى دون أن تؤدى سوى إلى خسائر مادية وبشرية للجميع، وهو ما يمثل تطبيقا لنظرية الاعتماد المتبادل على المستوى السياسى، والتى تستند إلى كون الصراع دائما صراع إرادات ناقصة. ❋

هـــــوامـــــش:

١ - قصدنا استخدام مفهوم الوطنية Patriotism من حيث كونه يتعدى مفهوم المواطنة Citizenship فى احتوائه للجوانب القيمية (الانتماء والولاء)، وليس مجرد الجوانب الإجرائية (الحقوق والالتزامات).

٢ - ذهبت بعض التعريفات إلى تحديد الطبقة المتوسطة بأنها العائلات التى يتراوح دخلها بين ٢٠٠٠٠ و٥٥٩٩٩ دولارا فى السنة. - فقش جون نيصاب، باتريشيا ابردين - الاتجاهات الكبرى عام ٢٠٠٠ - سلسلة الدراسات المستقبلية - رقم (١) - مركز دراسات العالم الإسلامى - مالطا ١٩٩١ - صد ٤٦ .

٣ - د. قدرى حفنى - حول العنف السياسى: رؤية نفسية - ظاهرة العنف السياسى من منظور مقارن (أعمال الندوة المصرية - الفرنسية الخامسة - القاهرة ١٩ - ٢١ نوفمبر ١٩٩٣) - مركز البحوث والدراسات السياسية - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة - ١٩٩٥ - نيفين عبد المنعم مسعد (محررا ومقدما) - صد ٤٤، ٤٥ بتصرف.

٤ - د. فرانسوا بورجا - حول صورة العنف السياسى فى مصر - ظاهرة العنف السياسى من منظور مقارن (أعمال الندوة المصرية - الفرنسية الخامسة - القاهرة ١٩ - ٢١ نوفمبر ١٩٩٣) - مركز البحوث والدراسات السياسية - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة - ١٩٩٥ - نيفين عبد المنعم مسعد (محررا ومقدما) - صد ٣١٤ بتصرف.

٥ - دكتور قبارى محمد إسماعيل - علم الاجتماع السياسى وقضايا التخلف والتنمية والتحديث - منشأة المعارف بالإسكندرية - صد ٨٩ .

٦ - جان فرانسوا بايار - أوهام الهوية - ترجمة: حليم طوسون - دار العالم الثالث - القاهرة - الطبعة الأولى ١٩٩٨م - صد ٢٠٧ بتصرف.

٧ - يميل إلى هذا الرأى روجيه باستيد. حيث يقرر إنه حينما تلتقى حضارتان، فإن هناك ظاهرة أخرى لابد أن تنشأ: وهى ظاهرة الاختيار Phenomenone de selection، وذلك أن كل العناصر الحضارية ليست فى مرتبة سواء، فمنها ما هو مقبول، ومنها ما هو مردود. ويذهب رينيه مونييه إلى أن الطبقات الدنيا فى المجتمع أسرع قبولا للأشياء المادية كالسلع والمنتجات التكنولوجية، بينما تتجه الطبقات العليا إلى قبول الأنماط السلوكية وتقليد الأفكار الوافدة من الخارج. راجع: دكتور محيى الدين صابر - التغير الحضارى وتنمية المجتمع - مركز تنمية المجتمع فى العالم العربى - سرس الليان ١٩٦٢ - صد ١٤٢ .

٨ - مارسيل ميرل - العلاقات الدولية المعاصرة: حساب ختامى - ترجمة: أ. د. حسن نافعة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - سلسلة الفكر - مهرجان القراءة للجميع - مكتبة الأسرة ٢٠٠٥ - صد ١٦٧ .

٩ - د. مصطفى الفقى - العرب الأصل والصورة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الأعمال الفكرية - مهرجان القراءة للجميع - مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ - مرجع سابق - صد ٢٢٤ .

١٠ - طرحت هذا الاصطلاح د. هبة رءوف المدرس بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة فى مداخلة لها خلال الجلسة الختامية لمؤتمر «تحولات المجال العام فى مصر: تنامى الصراع ومستقبل التوافق الاجتماعى» الذى عقد بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية فى ١١ - ١٢ ديسمبر ٢٠٠٧ .

كتـــاب الـزاويــــة

قصائد من المغرب العربي
(٤)
أنا لا أنا

أنا الأندلسيُّ المقيم بين لذائذ الوصل
وحشرجات البين
أنا الظاهريّ
القرطبيّ
الهاجرُ لكلّ وزارة وسلطان
أنا الذي ربِّيت بينَ حجور النساء
بين أيديهنّ نشأت
وهنّ اللواتي علمنّني الشعر والخطّ والقرآن
ومن أسرارهنّ علمتُ ما لا يكاد يعلمه غيري
أنا الذي يقول: الموت أسهل من الفراق
هذه شريعتي
أن أبوح لأهل الصبابة
في بغداد وفاس
وقرطبة
والقيروان
في الزّهراء
وطنجة وأصفهان
والدّار البيضاء
أن أصاحب الدّمعة إلى وساوس حرقتها
أن أبارك وردة بين معشوق وعاشق
وأكتب لك
عن هذه البذرة التي تكفي
لكلّ من يكون
بين مسالك السّمع والبصر
في حضرة
الجنون

محمد بنيس
المغرب


دواسات حمام
قطع موكيت


www.maccarpet.com




أحذيتنا للرجال
تمثل الصناعة المتقنة
جلد
بني واسود
مقاس
٣٩ الى ٤٥
سعر
قروش
٦٩
بوكسكاف
بني ولميع اسود
مقاس
٣٩ الى ٤٥
سعر
قروش
٧٩
أحذية باتا
عند تيريج
اسكندرية
٢٦ شارع شريف باشا
٧ تكية الكلشاني
مصر
بالعتبة الخضرا
وشارع عماد الدين
بورسعيد
شارع الامير فاروق
المنصورة
بالسكة الجديدة

«ذاكرة مصر المعاصرة»



※※ بهدف «رقمنة» كل المواد التي ترتبط بتاريخ مصر المعاصر، تطلق مكتبة الاسكندرية على الانترنت بوابة «ذاكرة مصر المعاصرة» والتي تضم بين صفحاتها تاريخ مصر في قرنين من الزمان، بدءاً من عهد والي مصر محمد علي باشا ١٨٠٥ وحتى نهاية عهد الرئيس الراحل محمد أنور السادات في ٦ أكتوبر ١٩٨١.

يؤرخ الموقع لتاريخ مصر من مختلف النواحي: سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً. وهناك أكثر من طريقة لتصفح الموقع، فمن خلال الحاكم تستطيع أن تستعرض كافة الأحداث التي حدثت في عهده وكذلك الملامح العامة للحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. كما يحتوي الموقع على أول تاريخ موثق للوزارات المصرية متاح عبر الشبكة الدولية (الإنترنت). تستطيع من خلالها تتبع تاريخ الوزارات المصرية ورؤساء الوزراء والوزراء منذ عهد الخديو إسماعيل إلى نهاية عهد السادات. كما تضم الدساتير المصرية كاملة، وتوثق للحياة النيابية في مصر منذ الحملة الفرنسية حيث ظهرت باكورة المجالس وحكم الشورى في مصر، إلى عهد التعددية الحزبية. ويغطي الموقع نشأة الاحزاب المصرية وتطورها وأبرز رجالها.

توثق ذاكرة مصر لتاريخ الصحافة المصرية من «جورنال الخديو» في عهد محمد علي باشا الذي يعد الخطوة الأولى في تاريخ صحيفة الوقائع المصرية، إلى كبرى المؤسسات الصحفية مثل دار أخبار اليوم، ومؤسسة روزاليوسف، ودار الهلال، والأهرام، والأخبار. وهي بذلك تضم أكبر مكتبة خاصة بالصحافة المصرية وأشهر الصحفيين المصريين ورسامي الكاريكاتير والمصورين في مصر. كما يهتم الموقع بالجوانب الثقافية والاجتماعية، فلأول مرة توثق مكتبة الإسكندرية من خلال ذاكرتها الجديدة تاريخ أعرق الأندية المصرية كالنادي الأهلي ونادي الزمالك والنادي الأولمبي ونادي الترام، وغيرها.

خطوة «أولى» لتوثيق الذاكرة المصرية بتجميع وأرشفة الوثائق والصور والمواد الفيلمية

تضم الذاكرة مجموعة من الوثائق يزيد عددها على ١٥ ألف وثيقة أكثرها ينشر لأول مرة. فهي تضم المجموعة الخاصة برئيس الوزراء الراحل ذي القبضة الحديدية محمد محمود باشا. ورئيس الوزراء بطرس باشا غالي، والمجموعة الكاملة لوثائق حفر قناة السويس والسد العالي. بالإضافة إلى توثيق تاريخ السكك الحديدية في مصر، وتاريخ الترام، وتطور طرق النقل والمواصلات في ضواحي العاصمة.

يوفر الموقع روابط مختلفة مرتبطة بكل حدث أو موضوع أو حاكم، منها الإصدارات التي صدرت عن الموضوع، والمقالات المختلفة التي تتناوله، بالإضافة إلى الأفلام الوثائقية والفيديو والأفلام الصوتية. كما أنها تدعم الموضوعات في كثير من الأحيان بالخرائط المتنوعة والشهادات والجوائز ليس هذا فقط بل لعل أجمل ما تضمه ذاكرة مصر المعاصرة هو مجموعة الطوابع والعملات والأعلام المصرية الخاصة بكل فترة تاريخية.

يحتوي الموقع على أكثر من ٢٥ ألف صورة، ويلقي الضوء على بعض الأحداث الهامة في تاريخ مصر لاسيما حريق القاهرة ١٩٥٢، فلأول مرة تنشر قضايا الحريق التي تم تسجيلها في المحاكم من قبل أصحاب المحلات التي أصابها الضرر. بالإضافة الى تناول التغطية الصحفية قبل وبعد الحدث لبعض الأحداث. منها حريق القاهرة ١٩٥٢ ونكسة ١٩٦٧.

يتميز الموقع بتنوع المداخل المتاحة للتصفح، مثل: الحكام ورؤساء الوزارات فضلا عن خمسة موضوعات رئيسية هي:

١. الحياة السياسية: ويندرج تحتها (الدستور- المجالس النيابية- الدواوين والنظارات والوزارات- الأحزاب السياسية- القضاء- القضية المصرية- ثورات وحروب- الأسطول- انتخابات واستفتاءات- معاهدات واتفاقيات- شارات الحكم- الحركات السياسية والوطنية- مراسيم وفرمانات وقوانين- مفاوضات ومراسلات- شئون داخلية- شئون خارجية).

٢. الحياة الاقتصادية: ويندرج تحتها (الزراعة- الصناعة- التجارة- الري- وسائل النقل والمواصلات- الاتصالات السلكية واللاسلكية- السد العالي- قناة السويس- الطباعة والمطابع- النقابات المهنية).

٣. الحياة الاجتماعية: ويندرج تحتها (المجتمع المصري- الإعلام والصحافة- المدن والقرى والأقاليم- الجمعيات الأهلية- الطب والصحة العامة- الرياضة والأندية الرياضية).

٤. الحياة العلمية: ويندرج تحتها (التعليم- المجامع والمراكز البحثية والعلمية- الرحلات والكشوف الجغرافية).

٥. ثقافة وفنون: ويندرج تحتها (ثقافة وأدب وفنون-

مصر المعاصرة

http://modernegypt.bibalex.org



روزاليوسف تتوسط كلاً من محمد التابعي (إلى اليمين) وعبدالمجيد حلمي

خبر وفاة الخديوي محمد توفيق بتاريخ ١٥ يناير ١٨٩٢



٣٠٥

اللطائف

الجزء التاسع من السنة السادسة

١٥ يناير (ك ٢) سنة ١٨٩٢ — ١٥ جمادى الثاني سنة ١٣٠٩

الخطب العميم والمصاب الجسيم

بفقد المغفور له محمد توفيق باشا خديوي مصر

كذا فليجلّ الخطبُ وليفدح الامرُ وليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذرُ

استحكم الداء وعزّ الشفاء ونفذ القضاء فصبرًا جميلا . امير البلاد الذي اوردها موارد الخير والمناء ودفع عنها كل ضيم وبلاء تقي وغادر في القلوب غلولا. امير عبس الزمان في وجهه فقابله بهمةٍ امضى من السيف وانفذ من السهم لايحسب الخطب الجليل جليلا . واستعان عليه بالرأي السديد والعزم الوطيد حتى انثنى طرف الزمان كليلا. امير رفع راية العدل ونشر رواق الأمن فاضحت حزون الحادثات سهولا. امير ملك القلوب بحبه وفضائله واسر النفوس بانسه وفواضله فكيف بجثة تلقاه حبلاً بالندى موصولا . ولما صفت له الايام وسالمته الليالي جعل همه ترقية شأن رعيته ورفع مقامها بين ممالك الارض فرفع عنها احمالاً كانت تنوء تحتها وسار بها في طريق العمران شوطًا طويلا .

المصري أفندي بصحبة محمد التابعي وصاروخان





أول صورة فوتوغرافية التقطت في مصر سنة ١٨٤٦ في قصر رأس التين



المساء

٤ صفحات

١٠ مليمات

بيان تاريخي للرئيس جمال عبدالناصر

لن أعلن حل الجمهورية العربية

الرئيس يقول: "أنا مسئول عن هذه الجمهورية من القامشلي إلى أسوان"

قوات صغيرة من الجيش في قطنة تقوم بعمل طائش صباح اليوم

القوات الصغيرة تستولي على إذاعة دمشق وتحاصر مقر القيادة بها وتذيع بيانات

الجيش الأول يتحرك الآن إلى دمشق لوقف هذه القوات المتمردة

"لا يمكن أن أنضم إلى أعداء الوطن العربي لأني مسئول عن حماية الجمهورية العربية"

"الجمهورية العربية ستبقى ولن تتحقق أهداف أعداء القومية العربية"



LE JOURNAL D'EGYPTE

الجورنال ديجبت

Le Président à la Fête de la Science

Mohamed V annonce: ELECTIONS AU MAROC EN MAI

Voeux du Président au Souverain du Maroc

Deuxième entretien Abdel Nasser - Norodom

Washington : Pas d'engins nucléaires pour la France

Scandale au Sénat

Mitterrand accuse Debré

Une tournée africaine de McMillan en janvier

A la conférence de Monaco Pas de "zone stagnante" dans les fonds marins

Compromis à Chypre?

Un professeur s'est fâché

Tous les mendiants et vagabonds du Caire pourraient être ramassés en quelques heures

GRAND BAL DE LA St SYLVESTRE

Société de Bienfaisance Grecque Catholique

L'HOTEL SEMIRAMIS





محمد سعيد باشا





اجتماع الهيئة السعدية برئاسة النقراشى

محمد عبد الله عنان أحد مؤسسى الحزب الاشتراكى وحسنى العرابى سكرتير أول حزب شيوعى مصرى والنبيل عباس حليم رئيس حزب العمال فى أضراب عمالى واجتماع يعقده ابراهيم عبد الهادى وحامد جودة فى الحزب السعدى

القصور الملكية - المتاحف - أبنية ومنشآت).

● الأحداث الهامة: من خلال مدخل الأحداث الهامة يستطيع الباحث أن يلقي نظرة سريعة على أبرز الأحداث التي مرت بها مصر خلال قرنين من الزمان، كالحملة الفرنسية على مصر وتولي محمد علي باشا حكم مصر وحملة فريزر ومذبحة القلعة وامتياز قناة السويس والثورة العرابية وإعلان الحماية البريطانية على مصر وثورة ١٩١٩ وتأسيس بنك مصر واكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ومعاهدة ١٩٣٦ وحرب أكتوبر ١٩٧٣ وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد ... إلخ.

● الشخصيات العامة: عبارة عن مجموعة تزيد على الخمسمائة شخصية من أبرز الشخصيات التي أثرت تاريخ مصر السياسي والثقافي والاجتماعي.

وفي كل الأحوال يستعرض الموقع ذاكرة مصر المعاصرة من خلال كل المواد المتاحة وليست فقط المقالات النصية والدراسات التاريخية، وإنما أيضًا من خلال الوثائق والصور والفيديو والخطب المكتوبة والمسموعة والطوابع والكاريكاتير، وكذلك صحافة ذلك العصر بما تتضمنه من أغلفة مجلات ومقالات وصفحات جرائد، وكذلك الأغاني الوطنية والعملات التي تعبر عن فترة حكم كل حاكم أو ملك أو سلطان أو خديو أو والٍ.

ويحوي الموقع وثائق نادرة مثل تلك الخاصة بأسرة محمد علي؛ مثل: تصديق ممنوح لإقامة بنك وطني يحوز صلاحية إصدار بنكنوت للتداول في مصر ١٨٩٨، وخريطة توضح حدود عكا



موكب الزهور في حفل الملك فاروق

وسوريا المتروكة لمحمد علي باشا بناءً على الاتفاق الموقَّع في ١٥ يوليو ١٨٤٠، وخطاب العرش الذي افتتح به الملك فاروق البرلمان المصري عام ١٩٣٨، ومرسوم ملكي بتأليف وزارة النحاس باشا عام ١٩٤٢.

أما في قسم الصور الذي يضم صوراً نادرة لحكام مصر في التاريخ الحديث، فسنجد صوراً نادرة للحكام في عهد الأسرة العلوية؛ ومنها: أول صورة فوتوغرافية التقطت في مصر سنة ١٨٤٦ في قصر رأس التين بالإسكندرية، ويظهر فيها محمد علي باشا؛ وصورة لمحمد علي باشا وهو ممسك بسيفه؛ وصورة للعرض العسكري في حفل تتويج الملك فاروق، وصورة للجماهير المصرية في الاحتفال بزفاف الملك فاروق. ومن أندر الصور التي يعرضها الموقع ألبوم زيارة الرئيس أنور السادات للقدس، وألبوم الاغتيال وحادث المنصة.

ويضم قسم الفيديو مجموعة من أندر المواد التسجيلية عن حكام مصر في التاريخ الحديث. منها مشاهد لاجتماعات تأسيس جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥، ومشاهد عن حياة الملك فاروق وهو طفل خلال الفترة من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٢٣، بالإضافة إلى جنازة الملك فاروق في روما عام ١٩٦٥. ورحلة اللواء محمد نجيب للوجه القبلي في مارس ١٩٥٣، ومراسم نقل جثمان الزعيم مصطفى كامل إلى ضريحه الجديد.

وإذا انتقلنا إلى قسم آخر وليكن قسم الصوتيات فسيجد الزائر مجموعة من أندر التسجيلات الإذاعية الخاصة بالرئيس محمد أنور السادات، أهداها السيد فوزي عبد الحافظ - سكرتير الرئيس الراحل- لمكتبة الإسكندرية، وهي تجميع لكافة التسجيلات التي سجلها السيد أنور السادات للإذاعة المصرية في أواخر الخمسينيات وأوائل فترة الستينيات والتي يتحدث فيها عن علاقة مصر بالدول العربية وعن الاشتراكية وعن المؤتمر القومي. كذلك نجد خطاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ والذي ألقاه الرئيس السادات، وخطابه في الكنيست الإسرائيلي. ■

خالد عزب



أسمهان

.. إذا حكت!!

أذكر أننى قرأت بين ما قرأت أثناء دراسة القانون أنه يحسن بنا ألا نقرأ مقدمة الكتاب إلا بعد الانتهاء من قراءته! وألا نكتب مقدمة لكتاب إلا بعد الانتهاء من كتابته... ولكننى مع ذلك أكتب مقدمة هذه القصة ولما أمش فى كتابتها سوى خطوات. والسبب فى ذلك هو أننى كنت أعارض حتى الساعة الأخيرة فى أن أكتب عن المرحومة آمال الأطرش التى عرفها الجمهور باسم المطربة أسمهان.

ولقد عارضت ورفضت يومئذ أن أكتب لأن أسمهان كانت لا تزال ذكرى قريبة وحية قائمة، ولأنه لا يزال بين الأحياء من أهل وأصدقاء من يطوون النفس على جراح دامية. وأخشى أن يكون فى بعض ما أكتب ما يدمى هذه الجراح! ثم إن الحديث عن أسمهان قد يسوقنى إلى الكشف عن أسرار لم يحن لها بعد أن تنشر.. أو قد يتناول شخصيات لها احترام ومكانة فى نفوس الكثيرين.. فكيف إذن أكتب عن أسمهان؟ وهل يكون ـ وفى دائرة هذه القيود ـ هل يكون لكتابى معنى وفائدة؟!

ولكن أصدقائى وزملائى من أصحاب هذه الدار ومحرريها ـ وقد استندوا إلى عشرات ومئات الخطابات التى جاءتهم من القراء فى هذا المعنى ـ ألحوا علىّ أن أكتب، وقالوا فيما قالوه إنه إذا كان هناك من يستطيع أن يصف أسمهان وشخصية أسمهان ويروى قصتها وينصفها كمطربة وكفنانة وإنسانة فهو أنت!.. وإن أسمهان عاشت ولم يفهمها أحد!.. وماتت ولم يفهمها أحد.. فانشر صورتها على الناس.. صورتها الحقيقية كما عرفتها فلعلك تنصف ذكراها بين الظالمين.

ثم راح أصدقائى وزملائى يضربون لى الأمثال، وكيف أن الكاتب الفرنسى فلانًا أخرج للناس كتابًا عن صديقته الممثلة فلانة.. والشاعر الإيطالى فلانًا نشر مذكراته عن المغنية فلانة.. وهلم!.. وأخيراً رضيت أن أكتب.. ولكننى أحب أن أقولها صريحة من الآن:

إذا رأى أحدكم فى بعض ما أكتب أمرًا لا يتفق مع العُرف ولا مع الذوق السليم فلن أدافع عن نفسى! سأقول له.. صدقت وأنا آسف!

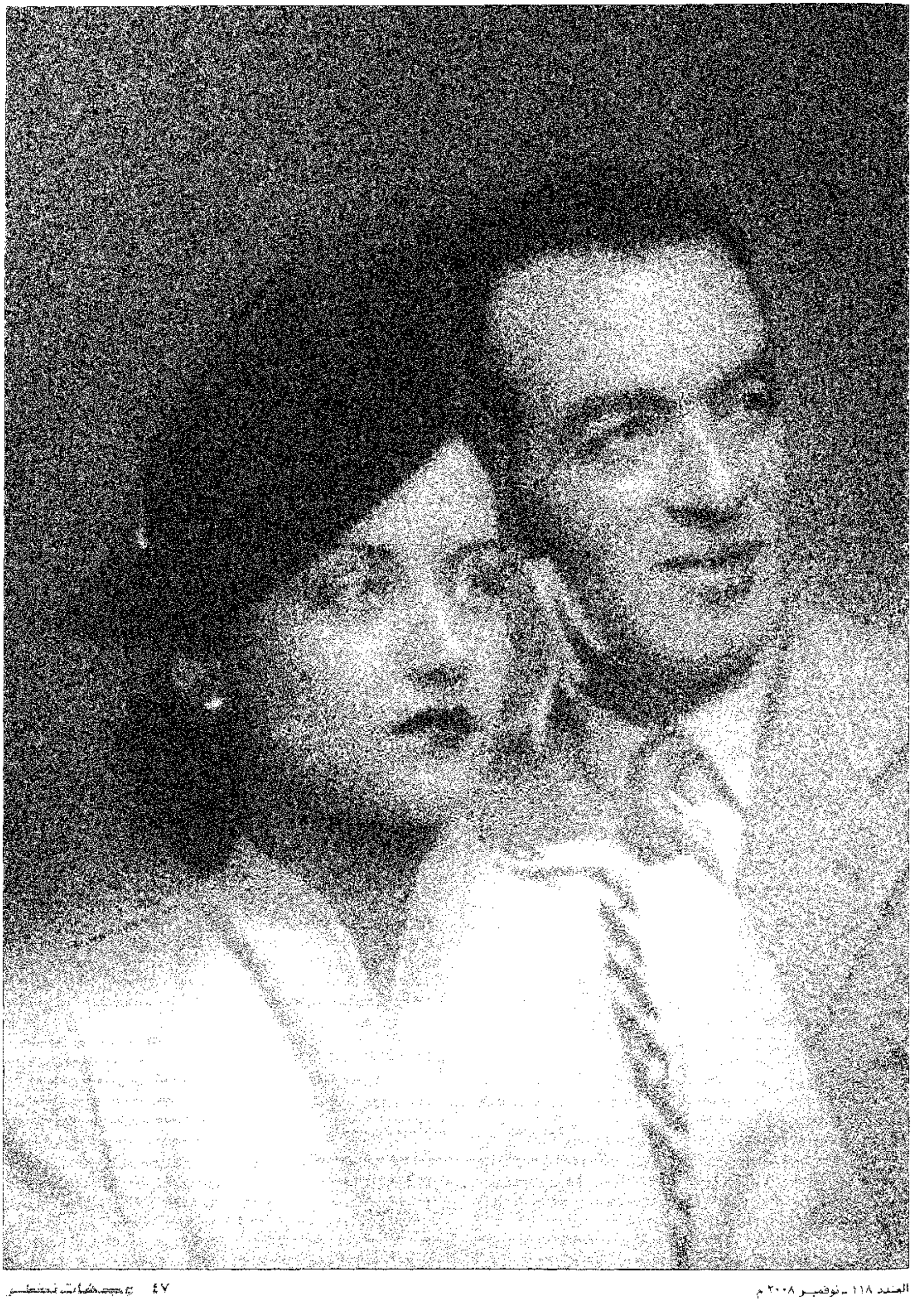
وإذا رأى أحدكم أن يتهمنى بأننى كشفت عما كان يحسن أن يظل مستورًا عن العيون.. فلن أدافع عن نفسى.. بل سأقول له صدقت.. وأنا آسف..

ولكن أحدًا منكم لن يستطيع أن يتهمنى بأننى لم أنصف أسمهان!

هذه هى المقدمة التى كنت أود ألا أكتبها إلا بعد أن أنتهى من كتابة هذه القصة.. ولكننى ـ كما قدمت ـ لم أوافق على الكتابة إلا فى الساعة الأخيرة.. ومن هنا أرسلت إلى المطبعة الفصل الأول وهذه المقدمة.. ولما أكتب بعد بقية الفصول! كم عددها؟ لا أعرف! ماذا سأقول فيها؟ لا أدرى!

لأننى لا أعرف عند أى حد سوف يقف بى الحذر ويقف بى الحرص على حكم العرف وحكم الذوق السليم! ولا إلى أى حد فى الصراحة سوف يدفعنى الحرص على ذكر الحقائق المجردة رغبة فى إنصاف الحقيقة وإنصاف أسمهان.

م. ت.
آخر ساعة ـ يناير ١٩٤٩





أسمهان.. إذا حكت!!

محمد التابعي

أسمهان تروي قصتها..

●● صحفي أمريكي جاسوس لألمانيا!

بدأت أسمهان أو الأميرة آمال الأطرش تروي قصتها منذ غادرت مصر في يوم ٢٥ مايو سنة ١٩٤١ فقالت:

- لم يكن القطار قد ابتعد كثيرا عن القاهرة حتى خيل لي أن حوادث الأيام الثلاثة الماضية كانت حلما.. وقد أفقت منه الآن فقط!.. وسألت نفسي هل أنا جننت؟.. وإلا فكيف قبلت هذه المهمة؟! وكيف رضيت أن أورط نفسي في عمل لا خبرة لي به؟.. ولأول مرة منذ قابلت مستر سمارت أدركت خطورة العمل الذي أنا قادمة عليه وجسامة الخطر الذي قد أقع فيه.. بل وتمنيت لو استطعت أن أعود إلى القاهرة وأعدل عن هذه الرحلة ولكن كيف! هذا مستحيل الآن!

وأردت أن أهرب من نفسي ومن أفكاري السوداء فانتقلت إلى عربة الأكل.. وجلست وحدي إلى مائدة.. ولكني لم أبق وحيدة طويلا.

فقد أقبل رجل واستأذن هل أسمح له بالجلوس في المقعد الخالي أمامي وسمحت له طبعا. وقدم نفسه إلي على أنه صحفي أمريكي.. وأن اسمه «ف» (ذكرت لي آمال اسمه ولكني أكتفي بذكر أول حرف فقط لأسباب سوف يدركها القراء فيما بعد).

قالت آمال:

- وبدأ مستر «ف» يحدثني عن الحرب ومجراها وتطوراتها، وعن الشرق الأوسط، وأنه يسافر إلى لبنان لأنه يتوقع قريبا وقوع أحداث هامة. ثم سألني فجأة: «ألست من رأيي»؟

ووجدت نفسي أقول نعم! ولكني في نفس اللحظة تنبهت! وتذكرت نصائح مستر سمارت ونصائحك. وأحسست ولا أدري كيف. ولعلها أعصابي المرهفة. أن جلوس الرجل معي إلى مائدة واحدة لم يكن مصادفة!.. بل كان أمرا مقصودا..! وأن حديثه كان يرمي لغرض.. وهو أن يستدرجني في الحديث.

دارت هذه الخواطر في رأسي في ثانية أو ثانيتين!

هذا والرجل يتحدث ويسألني ولكني وقد تنبهت اعتذرت بالجهل وعدم إحاطتي بتفاصيل سير الحرب من عدم الإجابة. (وبابتسامة) ولم أكن كاذبة في اعتذاري فأنت تعرف خيرا من سواك أنني لا أقرأ الصحف وأنني عمري ما اهتممت بتتبع سير الحرب!

ومضت تقول:

- وانتهينا من تناول طعام العشاء ووصلنا إلى القنطرة.

وكان في رأسي سؤال أخافني وهو هل الرجل يعرف المهمة التي أسافر من أجلها؟! وهل هو يتبعني خصيصا؟ وهل هو جاسوس؟ ولحساب من يعمل؟ لحساب المحور.. أم ترى الإنجليز هم الذين أرسلوه ورائي ليراقبني؟ فقد كنت قرأت في بعض الروايات أن هناك جواسيس يتجسسون على جواسيس بينما الكل يعملون لهدف واحد ويخدمون مصلحة واحدة!

ولكني اطمأننت قليلا عندما رأيت أن مستر «ف» لم يحاول أن يلازمني في محطة القنطرة أو يجلس معي في قطار فلسطين.

ولكني لما نزلت في الصباح في محطة اللد وجدته واقفا على الرصيف وكأنما كان ينتظرني.. وتقدم مني وحياني وتمنى لي سفرا سعيدا ثم قال إنه سيواصل سفره بالقطار إلى حيفا..

وفعلا عاد وركب القطار..

قالت آمال:

- هذا الصحفي الأمريكي مستر «ف» كان من وكلاء المحور كما عرفت فيما بعد!.. هل تذكر أنني أرسلت إليك مرة برقية عن سفري إلى أنقرة؟

قلت: نعم وكنت أنتظر حتى تنتهي من حكايتك وأسألك عن السبب. ولكنك لم تسافري؟ قالت: كلا. لم أسافر، أو لم أمكن من السفر. ولمستر «ف» علاقة بكل هذا.. هل أحكي لك القصة الآن أو أتركها إلى أن يجيء دورها؟

قلت: كما تشائين..

قالت: إذن أتركها إلى أن يجيء دورها..

واستأنفت الحديث فقالت:

كومودور باص يعطيها تعليماتها وأول ألف جنيه!

- وركبت من اللد سيارة إلى القدس. ونزلت في فندق الملك داود. ولم تمض على وصولي ساعة حتى زارني رجل إنجليزي كان يلبس سترة سلاح الطيران البريطاني. واسم الرجل «باص» وهو برتبة «كومودور».

ورحب بي ودعاني لتناول الشاي معه في نفس اليوم.

وحول مائدة الشاي حدثني طويلا عن «عملي» وأكد على ضرورة الحذر الشديد في كل خطوة أخطوها ونصحني أن أسيء الظن بكل أحد..

هل الرجل يعرف المهمة
التي أسافر من أجلها؟!
وهل هو يتبعني خصيصا؟
وهل هو جاسوس؟
ولحساب من يعمل؟

للاستزادة:
أسمهان تروي قصتها
محمد التابعي
القاهرة - دار الشروق - ٢٠٠٨ - ٢٦٤ صفحة

وهنا سألتها: وهل قلت له شيئا عن الصحفي الأمريكي؟

قالت: كلا، خطر لي أولا أن أفعل ولكنني عدلت.

سألتها: لماذا؟

قالت: لم أكن أعرف ساعتئذ أنه يعمل لحساب المحور، وكان يحتمل أن يكون جاسوسا لهم هم.. للإنجليز! على كل حال لم أقل شيئا عنه لكومودور باص..

واستأنفت حديثها:

- وطلب مني باص أن أستريح اليوم واستعد للسفر غدا إلى عمان. وهناك سوف يلقاني من يسهل لي دخولي سوريا خلسة من حدود شرق الأردن. وكان من المهم جدا كما فهمت من باص أن أصل إلى جبل الدروز وأجتمع بالأمير حسن وزعماء الجبل قبل أن يعرف الفرنسيون بدخولي سوريا..

وكان باص يعرف أن للمحور جواسيس وعيونا في مصر، وكان من المحتمل أو على الأقل من الممكن أن يكونوا عرفوا السبب في سفري وأرسلوا إلى سلطات المحور في لبنان وسوريا ينبهونها إلى الغرض من زيارتي لجبل الدروز..

وطلب مني باص أن أؤكد لزعماء الدروز أن الحلفاء سوف يرسلون جيشا لطرد حكومة فيشي وأعوان المحور، وأن جيشهم هذا إنما يدخل سوريا ولبنان لتحريرهما من كل سلطة أجنبية وأن أؤكد لهم كذلك أن النصر النهائي في هذه الحرب للحلفاء!

إلى آخره.. إلى آخره.

وأنا أختصر هنا كثيرا من كلام أمال الأطرش تفاديا من تكرار كلام سبق للقراء أن عرفوه وسمعوه أثناء الحرب عن قوة الحلفاء ولماذا سيكون النصر لهم في النهاية، وعن أغراضهم من هذه الحرب.. إلى آخره.

قالت آمال:

- وقبل أن يتركني باص في المساء دس في يدي مظروفا وقال إن فيه ألف جنيه لمصاريفي أنا الشخصية.. وأن الذي سوف يلقاني في عمان سوف يفضي إلي ببقية التفاصيل..

تدخل سوريا خلسة!

وفي اليوم التالي سافرتُ إلى عمان فوصلت إليها بعد الظهر. وانقضى اليوم ولم يتقدم إلي أحد..

ومضى صباح اليوم التالي ولم يتصل بي أحد..

وبعد الظهر دعيت للتليفون وكلمني «المجهول» بلغة فرنسية ركيكة وفهمت منه أنني يجب أن أكون مستعدة بحقائبي بعد نصف ساعة.

وفي الموعد المحدد كنت جالسة في ردهة الفندق وحقائبي القليلة حولي، وأقبل خادم يقول إن سيارة تنتظرني أمام الفندق.

ومشيت إلى السيارة..

ووضع الخادم حقائبي فيها..

وأخذت مقعدي إلى جانب السائق ولم يكن في السيارة أحد سواه.

وكان السائق ضابطا إنجليزيا شابا، ومن صوته عرفت أنه هو الذي حدثني بالتليفون، وانطلقت بنا السيارة إلى طريق الشام..

وأثناء الطريق راح الضابط الشاب

كان بإمكاني أن أحتفظ بعشرات الألوف من الجنيهات. فقد كنت الواسطة الوحيدة في إيصال المبالغ إلى أمراء وزعماء البادية



يذكر لي أسماء زعماء الدروز ويسألني بعد كل اسم هل أعرف صاحبه؟.. وطبعا كنت أعرفهم جميعا فهم أقاربي وأبناء عشيرتي..

ثم أخذ يسأل عن حالة كل منهم المالية والاجتماعية.. وهل هو رجل طموع أو قنوع؟ وهل هو ممن يمكن الركون إليهم وإلى كلمتهم!

وانتقل الضابط بعدها إلى أمراء وزعماء البادية ورؤساء القبائل الضاربة في صحراء سوريا ولكن معرفتي بهؤلاء كانت قليلة جدا فلم أكن أعرف منهم سوى اثنين أو ثلاثة. أما هو، الضابط، فكان يعرف أسماءهم جميعا وكان ملما بكل شيء عن كل واحد منهم..

ودام حديثنا في هذا الموضوع أكثر من ساعتين، واستطعنا أن «نغربل» هؤلاء الأمراء والزعماء وأن نختار منهم تسعة وهم الأكبر مقاما والأوسع نفوذا في الجبل والبادية وكان على رأسهم طبعا زوجي حسن الأطرش..

وأخيرا بدأ الضابط يذكر أسماءهم واحدا بعد واحد.. وهو يسألني:

- ما رأيك؟ هل تظنين أنه يقتنع بخمسمائة جنيه في الشهر؟

وكنت أقول: كلا! مستحيل! على الأقل ألف جنيه..

هذا بينما كنت أعلم أن فلانا هذا يفرح جدا بخمسمائة جنيه، بل يرضى بمائتين! ولكن لم لا أجعل هؤلاء الزعماء العرب ينتفعون بالأموال البريطانية التي كانت تنفق بالملايين!

ويتناول الضابط زعيما آخر أو رئيس قبيلة ويقول:

- وهل تكفيه ألف جنيه؟

وأقول أنا: كلا! هذا رجل قوي وغني، وألف جنيه لا تملأ عينيه على الأقل الفان.. وهكذا..

أنا حمارة كبيرة

وتوقفت أسمهان في روايتها وضحكت وهي تقول:

- كم كنت حمارة كبيرة!

وضحكت أنا وقلت: الرجوع إلى الحق فضيلة! ولكن ما سر هذا الاعتراف؟

قالت: كان في إمكاني أن أحتفظ لنفسي بعشرات الألوف من الجنيهات. فقد كنت أنا الواسطة الوحيدة في إيصال هذه المبالغ إلى أمراء وزعماء البادية. وكان الضابط الإنجليزي المذكور يزورني كل شهر مرة في فندق «أوريان» - أي الشرق - في دمشق، ويقول: «لقد أحضرت لك سجايرك اللاكي سترايك»..

ويناولني «خرطوشتين» سجائر ملفوفتين بالورق. ولكن لم تكن هناك سجائر بل رزم من أوراق البنكنوت!

وكان الأمراء والزعماء يترددون على الفندق وأقابل كل واحد منهم على انفراد وأناوله المبلغ المخصص له. وكما قلت لك فإن معظمهم كان يقنع بل ويفرح بنصف ما كنت أعطيه إياه. ولو أنني كنت فعلت ذلك واحتفظت لنفسي بالفرق..

وهزت كتفيها وقالت: ولكنني كنت حمارة كبيرة!



طلب مني باص أن أؤكد لزعماء الدروز أن الحلفاء سوف يرسلون جيشا لطرد حكومة فيشي وأعوان المحور

ثم كأنما تذكرت أمرا لأنها ضحكت وقالت:

- عملتها بس مع زوجي حسن الأطرش..

قلت: زوجك؟!

قالت: نعم.. في إحدى المرات كان علي أن أعطيه نصيبه وهو ألفان من الجنيهات ولكنني لم افعل، وتركت دمشق وسافرت إلى بيروت. والأمير حسن لا يزال يعتبر هذا المبلغ دينا علي حتى الآن!

تقابل زوجها حسن الأطرش

وعادت أسمهان إلى روايتها واستأنفت الحديث.. وأنا أغفل بعض التفاصيل التي لا ضرورة أو لا أهمية لها.

قالت: وأخيرا وصلت إلى الجبل (تقصد جبل الدروز)، وكنت متهيبة جدا من مقابلة العائلة وخصوصا الأمير حسن بسبب ما نشر في بعض المجلات المصرية عن زواجي ببدرخان. ونحن الطرشان نعد عارا أن تتزوج الفتاة من رجل غريب خصوصا إذا كان يقل مقاما عنها (كذا!) والمجلات المصرية مقروءة في سوريا وفي الجبل، وفعلا سألوني عن حكاية زواجي هذه فكذبتها وقلت إنها كذبة مختلقة من أكاذيب مجلات مصر.

وعلى العموم استقبلني كبار الأسرة استقبالا طيبا. وقد تأثرت حقيقة من حسن استقبال الأمير حسن وقد أحسست في الحال أنه لا يزال يحبني.. ولعل هذا الحب هو الذي سهل علي مهمتي لأنني لم أجد صعوبة في إقناعه بصواب الانضمام إلى الحلفاء والتخلي عن تأييد حكومة فيشي.

ولكنه طلب مني أن أعود زوجة له، وأبدى استعداده لأن يطلق في الحال زوجته التي كان تزوجها بعد طلاقي منه..

ولم يقلها صراحة ولكني فهمت أنه يجعل عودتي إليه شرطا لقبوله ما جئت من أجله؛ أي شرطا لنجاحي في مهمتي..

قالت آمال الأطرش ولعلها أرادت أن توجز وتمر سريعا بهذا الفصل من روايتها حتى لا أناقشها في تناقض برقياتها التي أرسلتها إليَّ والتي كانت أرسلتها إلى أسرتها في القاهرة.

قالت: ولا أطيل عليك. وأرسل حسن ودعا زعماء الطرشان للاجتماع بي وتولى عني شرح مهمتي.. وإقناعهم. ثم بعث بالرسل ودعا بعض زعماء قبائل البادية..

وفي الوقت نفسه بادر إلى طلاق زوجته لكي يثبت لي أنه جاد في طلب عودتي زوجة له!

ومع أنني استعنت بالكتمان والحذر إلا أن خبر وجودي في الجبل وخبر «نشاطي» السياسي ومقابلاتي لبعض أمراء وزعماء البادية وصل إلى مسامع السلطات الفرنسية وعيون المحور في سوريا ولبنان.

قالت: ولعل الصحفي الأمريكي مستر «ف» هو الذي أبلغ عني، ولو أنه أقسم لي فيما بعد أنه بريء من هذا.. وعلى كل حال فقد جاءني الأمير فاعور، وهو أحد أمراء البادية وهو صديق لأسرة الطرشان، يحذرني ويقول إن



السلطات الفرنسية توشك أن تصدر الأمر بالقبض علىّ واعتقالى، وإنه يجب علىّ أن أهرب وأغادر سوريا على الفور.. وهنا قاطعتها وذكرت لها خلاصة البرقية التى كانت نشرتها جريدة المصرى وفيها أن السلطات الفرنسية هى التى طلبت منها مغادرة البلاد وأنها - أى آمال - اضطرت بعد هذا أن تهرب على ظهر جواد!

قالت: هذا غير صحيح! ولو كانت السلطات الفرنسية هى التى طلبت منى مغادرة البلاد فلماذا أهرب على ظهر جواد؟ كان يمكننى فى هذه الحالة أن أغادر البلاد علنًا وبالطريق العادى ما دامت السلطات هى التى طلبت منى ذلك!.. كلا. الحقيقة هى أن الفرنسيين أرادوا أن يقبضوا علىّ ولهذا هربت..

تهرب متنكرة فى زى عبد!

وتطوع الأمير فاعور بتهريبى من سوريا ومرافقتى بنفسه إلى حدود فلسطين.

وتنكرت فى زى عبد من عبيد الأمير! وطليت وجهى ويدى بدهان أسود اللون.. ولبست ملابس العبيد الذين فى خدمة أمراء العرب، ولففت رأسى وشعرى بالكوفية والعقال وركبت جوادا وسرت وراء جواد الأمير فاعور!

وكانت رحلة شاقة طويلة ومتعبة فقد اضطر الأمير أن يسلك فى بعض أجزاء الطريق طرقا ودروبا غير مألوفة ولا معروفة عند حراس الحدود!.. ولقد مررنا - بين آونة وأخرى - ببعض الاستحكامات التى أقامها الفرنسيون.. ولم أنس مهمتى فاجتهدت أن أسجل فى ذاكرتى كل ما تقع عليه عيناى من تجمعات للجند.. وأوكار المدافع.. وجسور أو كبارى أنشئت هنا وهناك فى بعض الممرات بين الجبال.. والحصون الصغيرة ومخازن الذخيرة إلى آخره..

قالت: وأنا أحب ركوب الخيل.. ولكن للرياضة! ولكنى عمرى ما ظننت أننى سأكره الجياد وركوب الجياد إلى هذه الدرجة.

وعندما عبرت أخيرا الحدود، ودخلت فلسطين كنت أحس أن وسطى انقطع! بعد أن أمضيت على ظهر الجواد ليلة وبعض يوم!

وودعت الأمير فاعور وشكرته..

وفى مساء اليوم التالى كنت فى القدس.. ودخلت فندق الملك داود!

وكم كانت دهشة موظفى الفندق عندما طلبت منهم أن يقودونى إلى الجناح الذى كنت أقيم فيه!

ذلك لأنى دخلت الفندق وأنا كما أنا.. أى سوداء الوجه فى زى العبيد!

وبعد أن اغتسلت وأبدلت ثيابى أرسلت فى طلب كومودور باص.

ورويت له كل ما فعلته فى سوريا، ونتيجة أحاديثى ومقابلاتى مع الأمير حسن الأطرش وزعماء الجبل والبادية.. ثم قصصت عليه تفاصيل هربى وذكرت له ما لاحظته طول الطريق وسجلته ذاكرتى عن الحصون التى شيدها الفرنسيون على قمم بعض الجبال.. إلى آخر ما ذكرته لك..

وسر الرجل جدا وضمنى إلى صدره وهو يقول:

- مرحى! أحسنت صنعا يا بنيتى!

زواجها بالأمير حسن الأطرش

وبعد ذلك ببضعة أيام تحرك جيش الحلفاء وتخطى حدود فلسطين إلى سوريا ولبنان.. والباقى تعرفه مما نشرته الصحف ومن برقياتى، فقد عدت فى أعقاب جيش الحلفاء إلى دمشق.

وسكتت قليلا قبل أن تقول:

- وأرسلت لك برقيات عن رغبة الأمير حسن فى أن أعود زوجة له.. ونصحتنى أنت بالقبول..

قلت: نعم وحسنا ما فعلت!

قالت: على كل حال كان الاحتفال بزواجنا فخما جدا.. وأعطانى الأمير حسن يومها ألفى جنيه..

وضحكت أنا وقلت: ثم أخذت منه ألفى جنيه أخرى!

ابتسمت - رحمها الله - وقالت:

- نعم. وهل كثير أن يكون مهرى أربعة آلاف جنيه!

إسراف وسوء تدبير...

وهنا عادت السيدة أمينة البارودى من طوافها بالمحال التجارية ومعها سيدة فهمت أمال وقبلتها وقدمتنى إليها!

وقالت السيدة إنها تعرفنى - من قبل أن ترانى - لكثرة ما سمعته عنى من آمال.

والسيدة واسمها «شفيقة» هى أرملة المرحوم فخرى بك النشاشيبى وقد قتل بعد ذلك بنحو شهر واحد فى أحد شوارع بغداد أثناء زيارة له لعاصمة العراق، وقيل إن القاتل من أتباع سماحة مفتى فلسطين، لأن فخرى النشاشيبى كان من ألد خصوم المفتى كما أنه كان متهما بأنه من أصدقاء الإنجليز ومؤيدى السياسة البريطانية فى فلسطين.

وقالت السيدة شفيقة ونحن حول مائدة الغداء موجهة سؤالها إلىّ:

- هل نصحتها؟

قلت: فيم؟

قالت: سمعت منها أن «عيبك» الكبير فى نظرها هو إسرافك فى نصحها.. ولكن عمرها ما كانت فى حاجة للنصح كما هى الآن..

قلت: أنصحها فى ماذا؟

قالت: فى إسرافها الجنونى.. كأنما المال يحرق راحتيها فهى تريد الخلاص منه بأسرع ما يكون!

وهنا قالت أسمهان:

- لم يحدثنى فى شىء غير هذا منذ حضر!

قالت شفيقة: وهل حدثته أنت عن لعبك القمار فى بيروت؟

ثم التفتت إلىّ تقول قبل أن تتمكن أسمهان من إسكاتها:

- لقد التف حولها فى بيروت بعض السيدات (وذكرت أسماءهن وهن من سيدات وآنسات أكبر الأسر اللبنانية الشهيرة العريقة) يتملقنها ويدعونها لسهراتهن وحفلاتهن ويحطنها بمظاهر الإجلال والإكرام!.. والمجنونة تظن أن هذا كله حبا فى سواد عينيها وما هو إلا طمع فى مالها لأنهن علمنها لعب البوكر، وهى لا تفهم شيئا ولن تفهم شيئا فى لعب البوكر. والنتيجة هى أنهن يربحن منها فى كل سهرة مئات الجنيهات.. فهل يعجبك هذا الحال؟

قلت: طبعا لا. ولكن لعله يعجبها هى!

ومضت السيدة شفيقة. وأسمهان ساكتة لا تجيب. مضت تقص علىّ تفاصيل تصرفات لها تدل على الغفلة وسوء التدبير، ومنها مثلا أن «صحفيا» خدعها وأوهمها أن عنده مشروعا صحفيا ناجحا لإصدار جريدة يومية رأس مالها ألفان من الجنيهات فهل تشترك معه بنسبة النصف فى مشروعه الناجح المذكور.

ودفعت له أسمهان ألف جنيه..

وصدرت الجريدة.. ثم احتجبت بعد أسبوعين اثنين!

إلى آخره. إلى آخره..

لا عجب إذن وهذا حالها إذا كانت أنفقت خمسة عشر ألف جنيه فى خمسة شهور!!

وأخيرا تكلمت أسمهان فقالت إنها ليست «مغفلة» كما تظن بل هى تفهم وتدرك كل شىء ولكن!..

وهزت كتفيها وقالت: يعنى!

و«يعنى» لفظ أو تعبير لبنانى ممكن أن تعنى به كل شىء أى شىء ولا شىء، ولعلها أرادت منه هنا أن تقول: «أنا أعرف أنهم يضحكون علىّ ويبتزون مالى ولكن ماذا يهم ما دمت أجد فى هذا تسلية لى»!

ثم مضت أسمهان تقول إن كثيرين من وجهاء القوم وكبار التجار يقصدونها لكى تتوسط لهم فى مسائل معينة عند السلطات الإنجليزية أو الفرنسية وخصوصا عند الجنرال كاترو الذى يحبها كابنته ويعطف عليها كثيرا.. ويعدونها بأنهم سوف يدفعون لها مبلغ كذا أو يقدمون لها هدية كيت إذا نجحت وساطتها..

قالت: وكثيرا ما نجحت وساطتى فى المسائل التى كلفونى بها وجنوا هم منها أرباحا طائلة ولكن قليلين جدا منهم هم الذين وفوا بوعدهم لى..

.. وإن تاجرا وماليا كبيرا معروفا فى لبنان ومصر، وأنا أغفل هنا ذكر اسمه وكان صاحب ومدير شركة كبيرة للاستيراد والتصدير، وقد ورد اسمه فى الكتاب الأسود الذى نشره «مكرم عبيد باشا». تقرب إليها هو والسيدة زوجته. بل وجعلت زوجته من نفسها أشبه بوصيفة للأميرة آمال الأطرش تتولى عنها استقبال ضيوفها وتنظم لها حفلاتها وتلازمها فى غدوها ورواحها..

وأخيرا فاتحها التاجر المالى الكبير فى موضوع تكوين شركة بينها وبينه برأس مال قدره مائة ألف جنيه.. على أن لا تدفع هى شيئا ما لأنه سيتولى هو عنها دفع نصيبها فى رأس المال! وطلب منها فى مقابل هذا أن تتوسط له عند الجنرال كاترو فى مسائل معينة.. وهى مسائل تجارية بحتة ذات قيمة مالية كبيرة.

مع أنني استعنت بالكتمان
والحذر إلا أن خبر وجودى فى الجبل
وخبر «نشاطى» السياسى ومقابلاتى لبعض أمراء
وزعماء البادية وصل إلى مسامع السلطات
الفرنسية وعيون المحور



قالت: ولم يخطر ببالي وقد رأيت من آيات صداقته وصداقة زوجته لي ما رأيت أنه يضحك علي. وتوسطت فعلا له عند كاترو وقضيت له حاجته.

ثم ابتسمت وهي تقول:

- ولكنه لم يكتب عقد الشركة حتى اليوم! بل انقطع هو والسيدة زوجته عن زيارتي!

الأميرة آمال الأطرش!

وفي المساء أقامت أسمهان أو الأميرة آمال الأطرش حفلة استقبال في الصالون الكبير الملحق «بجناحها الملكي!» في فندق الملك داود.

وكان بين المدعوين بعض كبار الضباط البريطانيين والأعيان وقناصل الدول الأجنبية في القدس ومعهم السيدات قريناتهم.

ورأيت الإسراف الذي ما بعده إسراف في الطعام والشراب.

وقدمتني هي إلى مدعويها على أنني «صديق عزيز من مصر».

ولكنني آثرت أن أنزوي في أحد أركان الصالون وأتفرج وأبتسم بيني وبين نفسي!

هذا هو الجو الذي تحبه أسمهان.. جو الفخفخة حتى ولو كان مزيفا لا صدق فيه!

الجميع ينادونها بلقب «برنسس» ويعاملونها على أنها أميرة.. وهي تتحرك بينهم وتتحدث إلى هذا وذاك.. ثم تتنقل وتشمل بعطفها هذا وذاك!

تماما كما تتصرف أية أميرة في مثل هذه الحفلة!

وقبيل منتصف الليل نهضت الأميرة آمال الأطرش واقفة إيذانا بانتهاء السهرة!! وإيذانا لضيوفها بالانصراف.

ونهض المدعوون والمدعوات، وأقبلوا يستأذنونها في الانصراف ويشكرونها.. إلى آخره!

تماما كما يحدث في أي بلاط صغير!!

هذا هو الجو الذي كانت تتنفس فيه آمال الأطرش ملء رئتيها وتحب أن تعيش دائما فيه.. المسكينة!!

ولا عجب إذا كانت جملة حسابها الأسبوعي أو «فاتورة» فندق الملك داود وحدها كانت لا تنقص عن أربعمائة جنيه..

أربعمائة جنيه في الأسبوع الواحد وللفندق فقط؟!

وأقمت في القدس خمسة أيام تحدثنا فيها كثيرا. وقلت لها في صباح اليوم الخامس إنني سأعود غدا إلى مصر.

قالت: وأنا أيضا سأعود إلى بيروت. ولكن هل سبق لك أن زرت تل أبيب؟

قلت: كلا..

قالت: لا يليق إذن أن تغادر فلسطين قبل أن ترى تل أبيب. كما أنني أريد أن أشتري من هناك بعض الأشياء.

ولما كنت سأعود إلى مصر بالقطار من محطة اللد وهي قريبة جدا من تل أبيب قد اتفقنا على أن نمضي غدا إلى تل أبيب ونمضي بقية النهار والليلة فيها.. وأن أستقل القطار في الصباح إلى مصر.. وأن تترك هي للسيدة أمينة البارودي مهمة إعداد الحقائب على أن تلحق بها في تل أبيب بالسيارة ومن هناك، وبعد سفري، تسافران إلى بيروت عن طريق حيفا والناقورة

وذهبنا إلى تل أبيب.

والأثر الذي تركته هذه المدينة أنها أشبه بالمدن التي تشيدها ستوديوهات السينما في هوليوود ليلتقطوا فيها حوادث فيلم سينمائي معين فإذا ما انتهوا من التقاط المناظر.. هدموا المدينة وما فيها!

أي أنها مدينة ولكنها لا توحي إلى النفس بشعور الثبات والاستقرار!

ونزلنا في فندق «جان ريمون» الذي اختطفت منه ذات مرة عصابة «أرجون زفاي ليومي» بعض الضباط البريطانيين.

وقضينا السهرة في مقهى يقع تحت الفندق المذكور على شاطئ البحر.

وأقبل رئيس خدم المقهى يحيي «الأميرة» باحترام كبير ويمشي بين يديها إلى المائدة المحجوزة خصيصا لها.

ولعل احترام الرجل لم يكن لها ولا للقب الإمارة بقدر ما كان لسخائها المفرط في البقشيش! فقد طلبت آمال من رئيس أوركسترا المقهى أن يعزف قطعة معينة.. ولبى الرجل طلبها.

ونفحته «الأميرة» عشرة جنيهات!

وفي الصباح وضعت حقيبتي في سيارة التاكسي التي كانت ستحملني إلى محطة اللد..

ووقفت آمال تودعني وقالت:

- هل تذكر تاريخ مولدي؟

قلت: في شهر نوفمبر أليس كذلك؟

وكنا يومها ٢١ أكتوبر.

قالت: نعم، ٢٥ نوفمبر. وأنتظر منك أن تمضيه معي في القدس. هل تعدني أو أضطر لإجراء عملية جراحية أخرى لكي تحضر؟

قلت: أعدك.. ولا داعي للعمليات الجراحية!

ووصلت إلى القاهرة عند منتصف الليل ووجدت برقية رقيقة منها تذكرني فيها بوعدي أن أحتفل معها بعيد مولدها القادم!! ■

كتاب الزاوية

قصائد من المغرب العربي (٥)

سيدة

ذات مرة

في بداية ربيع إغريقي جميل

قابلت امرأة جميلة-

لم تقل من أنت- ما اسمك- من أي بلد؟

شربنا شاياً في المقهى

وذهبنا- المرقص

قلت لها- ذلك المساء!

أرغب أن أدعوك باسم السيدة (نعم)

قالت أرغب أن أسميك السيد (عابر)

بعد شهر ودّعتُها دون أسف على شيء

للآن وبعد ربع قرن لم أر السيدة (نعم)

وللآن وبعد ربع قرن لم تر هي السيد (عابر)

أما أنا-

فقد عبرت (نَعَم) مرة واحدة

وعبرتني- مرة- واحدة أيضاً

هذا يكفي صعلوكاً متمرداً مثلي!

علي الفزاني

بنغازي

Gilbert Garcin

الشَّاهِد!

ديديه جالينى

إعداد وترجمة: ايناس فؤاد

بترتيب مع
photosapiens

«شخص اختزل عشرة آلاف تذكار فى سبعين عاماً، بطريقة ما تشعر أنه يملك غرفة فى رأسه.. بها تبنى الأفكار وتجتمع كـ الركام فتنبثق فجأة».

تشرح العبارة السابقة المصور جلبر جارسى الذى يبدو أنه قد قرر الانتفاع كلياً من تقاعده وإعادة ترتيب غرف راسه... بوجه الأب الهادئ، وبجمجمته البسيطة غير المزخرفة... بهيئة خالية كلياً من الاهتمام تلك الهيئة التى يبدو عليها صاحب مصنع سبعيني... بربطة عنق محكمة على قميص قطنى رمادى مخطط وبسروال داكن وخف أسود اللون...

بحطام ما تبقى من القطع البلاستيكية الخاصة بلعبة طفله، وبقطع مبان صغيرة الحجم ودقيقة... محاطة بصمغ، بمقص صغير وبكاميرا



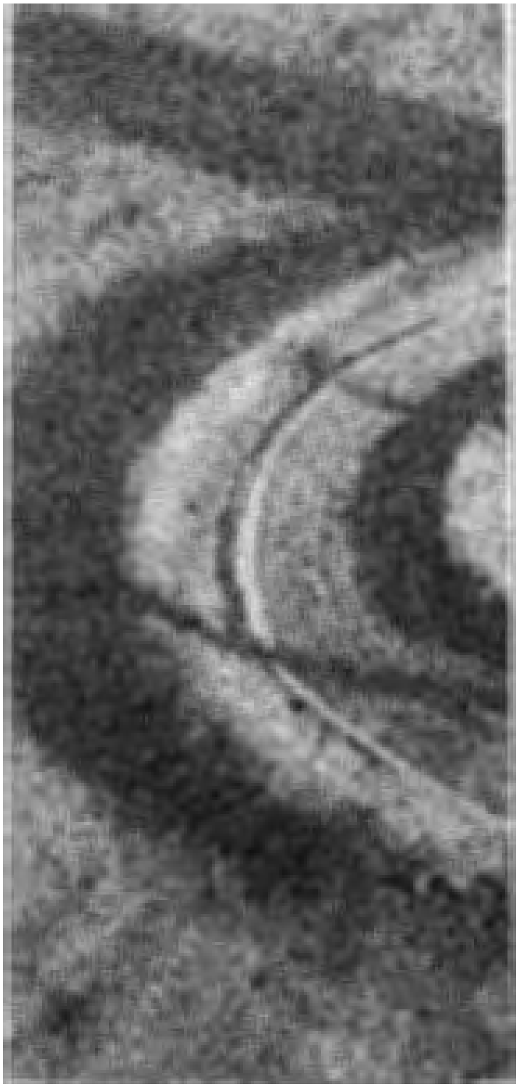
يمكنه أن يخلق منها أساسيات لنماذج صغيرة، وتحت إضاءة مصطنعة (صناعية) لتقترب أكثر من الحقيقة وتبدو طبيعية أكثر، تخلق الصور الفوتوغرافية، التي يوما بعد يوم تلعب الأدوار المختلفة لمسرحه الداخلي الصغير. وبتسخير البورتريه الشخصي له واستنساخه في أعماله بدون أن يعظم من صورته أو نموذجه كرجل العالم!، فهو يقدم نفسه في أعماله بأكثر الصور سريالية. على سبيل المثال تقديم سيسفوس (النموذج الإغريقي) يقوم بدفع صخرة ضخمة، أو بتقديم رجل مثير للشفقة يستند خلف بندول ضخم، يتمثل ذلك في أعماله: «الركض خلف الوقت» و«الأنانية»، كما لو كان يمارس القفزات الإنجليزية مع نفسه (يقفز فوق نفسه) حتى يضمحل (يغيب عن الأنظار)، أو في عمله المسمى بـ«الطاووس» الذي يستعرض فيها ذيلا طويلا من الريش الذي يمثل صورته الذاتية عن نفسه.

«يبدو أننا جميعاً في عرض (تمثيلية)، أليس كذلك» علق جليبر جارسي بتلك الجملة بنبرة خبيثة ذلك الرجل المهذب الذي يعالج السخف والسخرية الذاتية بحماس سذج، وبنكهة سيريالية واضحة وبحدس عميز بأسلوبه المطعم بحماسة متشكولك.

«أدون الملاحظات ومن ثم اكدسها، أتركها تنضج ومن ثم أقرر أي من اللوحات سأنفذ» التعليق بهذه العبارة جاء متزامنا مع تفريغ محتويات جيبه. قصاصات ورقية صغيرة لخصت أفكار عقله المستقبلية! عادة ما يقضي قرابة ٣ أيام لتحضير الديكور لكل مشهد، على إعدام أي فجوة أو فراغ بين ما تخيله وبين الصورة النهائية المنتجة. لكن بعد أن أصبحت أكثر خبرة، غالبا اقترف الضئيل من الأخطاء فقط... فانفصال الأفكار عن التعبير عادة ما يرتبط بفن الفوتوغرافيا، ظهر ذلك بشكل جوهري في مارسينيا وازال في الثمانينيات. في ذلك الوقت عمل جليبر جارسي مع المصور Pascal Dolémieux الذي تخصص في الخداع البصري، أسسه في الأسرار الساحرة للمناظر الطبيعية الجوهرية المبنية بأطاشر



العمل مستمر Work on progress



The mill ablivion الطاحونة

ويضع عصى كبريت مع مكعبات سكر.

عند ذلك الحين، وهو يؤلف أعمالاً تحوى حبكة أدبية بروح ساخرة وبها نكهة فكاهية. حتى أنه لا يتردد أن يسخر من نفسه أو منا جميعاً.

استفاد جلبر جارسى من الحكم والأقوال المأثورة مثل: «اعرف حدودك» و«كن سيد نفسك» أو «لا تدر فى الحلقات المفرغة» فى أن يستخدمها بشكل فائض لا فى وصفه لسيرته الذاتية بشكل عبثى فقط، بل فى وصفه لفلسفة الكوميديا البشرية أجمع.

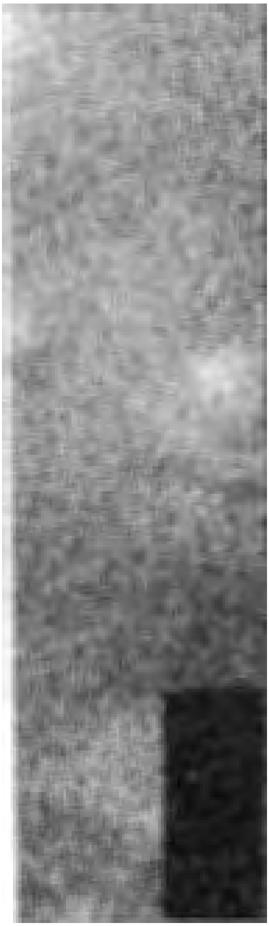
لا يسعنا أن ننسى فكرته الأخيرة: أن تنفى كل الهياكل والصور الخاصة بالمصورين الآخرين فى أكثر أماكن العالم النائية، أماكن يتعذر الوصول إليها، تلك هى الطريقة التى تعتلى بها، أن تكون فى كل مكان فى اللحظة ذاتها حتى فى أعمال الآخرين.

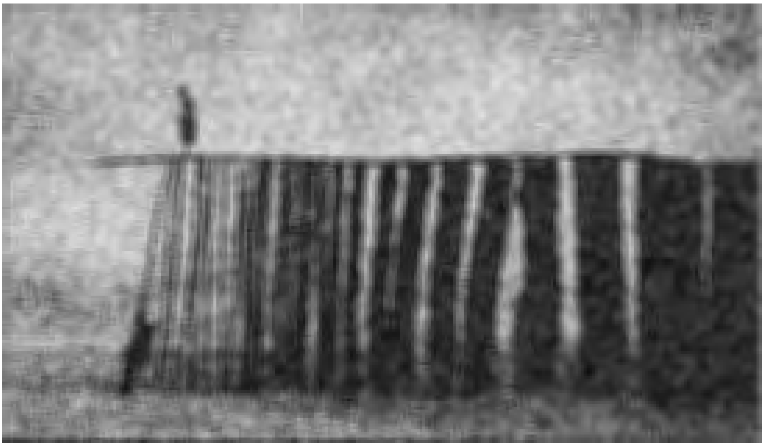
أصبح gilbert garcin محط انظار بشكل ملحوظ مؤخرا. خاصة بعد معرضه فى أغسطس ٢٠٠٥ تحت عنوان «how to explain»، ثم أصبح فنانا مشهورا بعد أن صدر له هذا الكتاب «الشاهد» فى العام ذاته ليعرف الجمهور بأسلوب جديد لفنان «أبيض الشعر».

فقد أتاحت له الصور أن يتميز ويحقق ازدهاراً وتطيغياً فى وقت خيالي، ففى الوقت الذى حقق فيه Jacques Lartigue نجاحاً حين التقط أول صوره وهو طفل فى السادسة، بدأ جارسى طريق نجاحه كمصور حين كان فى سن الـ ٦٤.

ولد جلبر جارسى فى عام ١٩٢٩ فى La Ciotat، وعاش فى Marseille. وبعد تقاعده من العمل فى عام ١٩٩٣ اقتحم مجال التصوير الفوتوغرافي. خلال تلك السنين تم نشر ٤ كتب والكثير من الأعمال الأخرى فى الكثير من المعارض الدولية وسهرجانات الصور على مستوى أوروبا. حوالى ٣٣٠ من الصور بالأبيض والأسود. صور تحوى رجلا يرتدى معطفا بسيطا يستند فى كل صورة، صور تتميز بالفخر بجو من السريالية التى تسود على معظم أعماله.

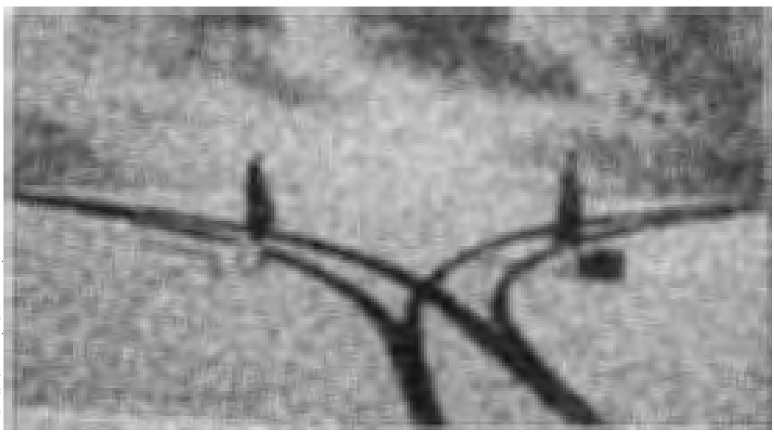
شهد جلبر جارسى أحلامه تحقق ذاتها. فقد شخص عواقف معينة يستحيل أن توصف أو تتجسد بوسيلة أخرى سوى الفوتوغرافيا، تخيل رجلا عجوزا بأجنحة تنين يعتلى قمة صخرة، على وشك أن يحلق بينما تقف خلفه سيدة تمسك فى يدها حبلا ضخما مثبتا





preseverence

divergences



في قدمه بإحكام: تبدو الصورة واضحة وبسيطة في أسطورة «رحلة ايكاروس» أجنحة ضخمة غير تقليدية وبحبل متصل برجله. أو على الشاطئ حيث يقف الرجل العجوز الملتزم دائما بارتداء المعطف مع زوجته التي ترتدي معطفا أيضا. يلعبان الكرة بقنفذ البحر الضخم، معلق في الهواء... من منهم سيلتقطه من الهواء؟ صورة توضح أسطورة «التبادل».

في الوقت الذي ذكر فيه Mc Solard نفسه كشخصية ثانوية في أعماله من الأغاني، استخدم gibert garcin نفسه كشخصية أساسية في صوره، بل في كل صورة من صوره. قد تجد في بعض الصور زوجته، فهو يستخدمها فقط إذا أراد أن يصف في الصورة العلاقة بالآخر... وفي أحيان قليلة فقط ترى صورة كلب.

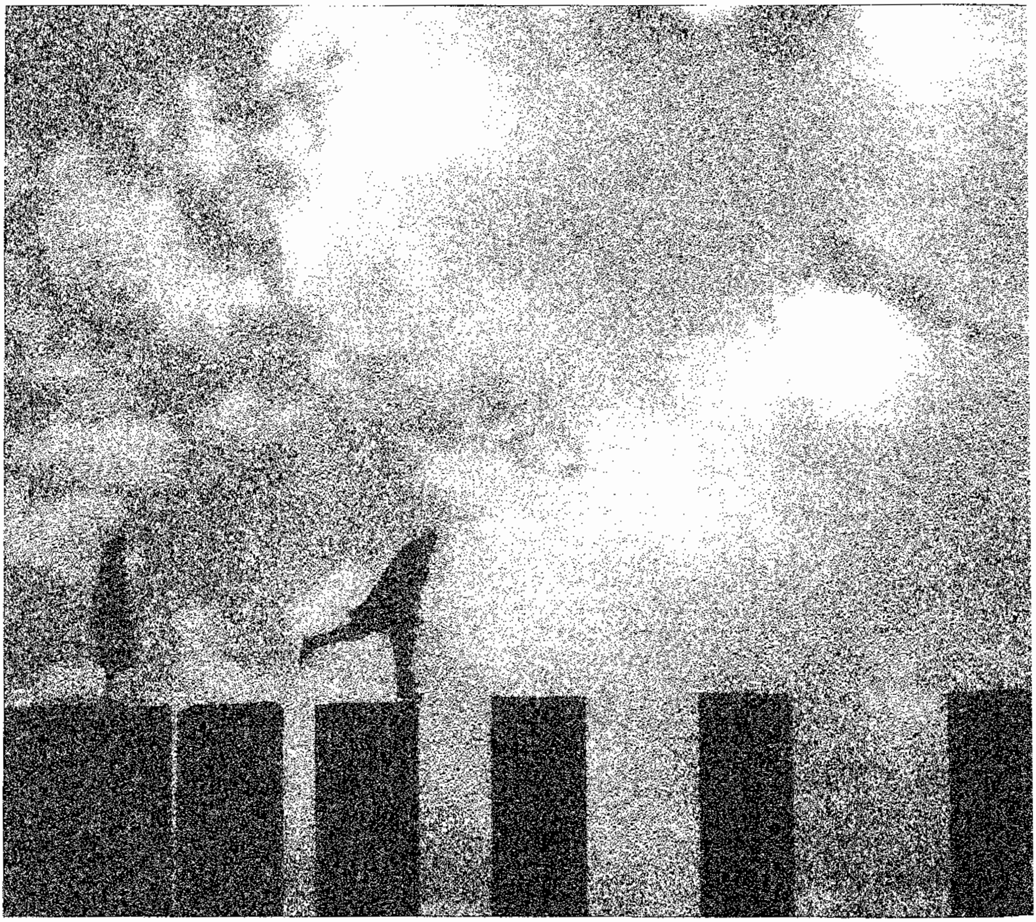
قد تشعر في معظم أعماله بنرجسية واضحة، فهو يجسد الممثل. والمخرج المسرحي والمصور أيضاً. ويفسر هذا أيضا أحد أعماله حيث جسد صورته الشخصية في تمثال تصفي بقاعدة من الرخام. كما صور نفسه في نموذج ميدالية. معلق من أعلى رأسه بحبال على بكرات محاط بأعمدة.

يبدو في أعماله الـ ٢٥ الأولى كـ Mr. Hulot (أشهر شخصيات المخرج Jacques Tati) بقصة الشعر نفسها، وبنفس لون الرداء. ومن ثم ظهرت الشخصية المعروفة بالمعطف في أعماله من عام ١٩٩٥ حيث تزامن ذلك مع الأعمال الأكثر جدية، حينما صور بعض الأعمال الميثولوجية والأسطورية مثل: ايكاروس وسيسفوس. قد يبدو ذلك واضحاً في إحدى صوره تحت عنوان «طاحونة النسيان» حيث صور نفسه في شخص يدفع بطاحونة تسير وتمسح خطواته على الرمال. قد تجده أيضاً في الكثير من أعماله يستخدم لوحاً وأعمالا فنية مشهورة لأشهر الفنانين مثل: Hopper, Fontana, Courbet, Leonardo da Vinci، أو أنه يستخدم بعضا من العناصر من اللوحات المعروفة مثل: Angelus لـ Jean-François Millet ومثل: Robert Motherwell, Paul Klee.

منعت أعمال gilbert garcin من النشر، خاصة في المجلات التي تهتم بالشباب وبالعبادة لعدة أسباب: فهي أولاً تعتبر ضد التيار، ففي الوقت الذي ترى فيه الصور بسيطة وتحتوي على رجل عجوز وسيدة بشكل تقليدي تراه كل يوم، إلا أنها تحمل وراءها رسالة بشكل عزلي ساخر لكنه يصل للمشاهد بشكل واقعي ومبسط. كما أن جميع أعماله تخرج بالأبيض والأسود فقط في الوقت الذي تنتشر فيه الصور بالألوان وبتقنيات رقمية، كما لا يستخدم جلبر جارسي أي تقنيات رقمية في صوره مثل الفوتوشوب، بل على النقيض إذ تجده يستخدم قطعا خشبية صغيرة أو بقايا بلاستيكية رخيصة أو قطع صلصال ليصمم صوره.

لصوره وقع ساحر وخاص، يتمثل في مشاهد صغيرة تعبر عن الفن، الحياة، الموت، الحب ومرور الوقت. صوره تمثل حالة من الهدوء والاسترخاء والمازوخية. كل تلك الصور في كتاب من مئات الصفحات يغرقك في عالم ينبثق منه السحر النادر. ▪

The driver ambition



على مدى السنوات الخمس التى قضاها
فى أوروبا دعمت قناعته التى بدأ بها وهى «أن خلاص مصر ورقى مصر ومستقبل مصر رهن
التمكن من مقومات هذه الحضارة»

بحثا عن السندباد

السيد أمين شلبي

■■ الباحث فى حياة وفكر حسين فوزى (١٩٠٠-٣٠ أغسطس ١٩٨٨) يستطيع أن يسجل بدايات ومكونات حياته الفكرية وقناعاته الثقافية عن الحضارة والثقافة والفن والعلم والتى ستظل تلازمه طوال حياته ويدافع عنها بإيمان وحرارة. يستطيع أن يسجل هذه البدايات فى هذا اليوم من نوفمبر عام ١٩٢٥ حين ركب حسين فوزى الباخرة «الجنرال متزنجيه» من ميناء الإسكندرية متوجها إلى «مدرسة الحضارة العظمى فى الغرب» باحثا ومأخوذا «لا بمسكه وقناه، ولابريق أصدافه بل بدرره ولآلئه»(١) وهو يرد الفضل فى هذا التوجه وهذا الاكتشاف إلى والديه، وأساتذته، وأصدقائه بل إلى حكومة بلده. فقد نربى فى البيت والمدرسة على حب الوطن. ورأى أساتذته يدافعون عن العلم ويدفعون جيله إلى تفضيله وكانوا جميعا، والداه وأساتذته وأصدقاؤه، لايعرفون إلا مصدرا واحدا للعلم هو أوروبا وحضارة أوروبا، لذلك أحب أوروبا وحضارتها، أما حكومة بلاده فقد كانت تعنى كل العناية بأوروبا وتتخير من تتوسم فيهم اليقظة والإخلاص لتوفدهم إلى أوروبا لتلقى العلم؛ وقد كان حسين فوزى واحدا من هؤلاء.

وعلى مدى السنوات الخمس التى قضاها فى أوروبا دعمت قناعته التى بدأ بها وهى «أن خلاص مصر ورقى مصر ومستقبل مصر رهن التمكن من مقومات هذه الحضارة»، وإذا كانت سنوات بعثته وإقامته فى الغرب قد أكدت إيمانه الذى «لاتزعزعه الزعازع» بهذه الحضارة حيث أتاحت له أن يعرفها فى مقوماتها الحقة من فكر وعلم وأدب وفن وعرف كيف تعمل هذه المقومات عملها فى تقدم الأمم، فقد جاءت النكبة التى أصابت أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية لكى تزيد إيمانه بحيوية هذه الحضارة والأصول والمصادر الحية التى تعتمد عليها، وهى الحيوية التى مكنتها من أن تنهض من كبوتها، وتجدد دماءها وتستخدم فى هذا الدواء الشافى وهو مقومات حضارتها: الفكر والعلم والأدب والفن، ذلك أنه قد أتيح لحسين فوزى عقب إقامته الأولى فيها للتحصيل والدراسة أن يعود للغرب عقب الحرب الثانية مباشرة لكى يرى مراكزها الرئيسية فى لندن وباريس وبرلين وهى تنهض من الحرب، وفى لندن، أولندرا التى حل فيها صيف عام ١٩٤٦ تملكه شعور الإعجاب المتناهى بعاصمة الدولة التى «انقذت العالم من أعظم الشرور التى حاقت به فى تاريخه الطويل. وهو فى هذا يتعدى الشعور الوطنى إلى الشعور الإنسانى إذ سواء عنده «أن يكون دفاع الإنجليزى عن بلاده وحضارته وإمبراطوريته مادام هذا الدفاع فى ذاته ذودا عن الحضارة الإنسانية، ومن المخابئ رأى الشعب الإنجليزى الحريص على تراثه المتذوق للموسيقى يملأ قاعة «رويال البرت هول» والمعارض والمسارح ودور الكتب والمحاضرات، وهى المشاهد التى أكدت له سر رقى الشعوب، «فهو ليس بالزبد والمدفع وإنما فكر الفيلسوف، ومعمل العالم، وريشة المصور، وقلم الكاتب والموسيقى» أما فرنسا أو «أمنا فرنسا» و«مربيتنا فرنسا» التى لن ينساها «قبل أن أنسى نفسى» فقد توقع فى زيارته لها بعد الحرب أن يراها غافلة عن نفسها الذليلة فى ظل الصليب المعقوف تنسج لنفسها لبوسا من البطولة الزائفة والجعجعة الفارغة إلا أنه وجد الفرنسيين يواجهون الحقائق المرة بشجاعة ويعترفون فى أحاديثهم وحياتهم بسنوات الضعة والانكسار، الأمر الذى جعله يقول «لم أر أمة حية بتاريخها مثل فرنسا تصل حاضرها بماضيها دائما، وصفحاتها السود ماثلة لعيونها إلى جانب الصفحات البيضاء، ومادامت الأمة حية بتاريخها فلن تموت»، كذلك توقع أن يرى فرنسا بعد الحرب مرحة بتحريرها فحسب ولكنه وجدها «مطأطئة الرأس واجمة تبحث فى شعاب نفسها عن طريق الخلاص من أسباب نكبتها تسائل التاريخ والاقتصاد والعلم عن منهج جديد فى حياتها، كما توقع أن يرى فرنسا مهدمة مقبرة قذرة تقتحمها العين إلا أنه رأى «شعبا جريحا يضمد جراحه، أنيقا يرتق ثيابه، نشيطا فى البناء متحفزا إلى النهوض من كبوته»، ومثلما فعل فى لندن، دخل المعارض والمسارح وارتاد المكتبات العامة وبيوت النشر والمعامل ودور الحكم وطالع الصحف الأدبية والسياسية وكان الدرس الذى استخلصه فى باريس كذلك «أن الشعوب تعيش بالخبز والزبد وحدهما ولاتموت بالحديد والنار فحسب» كما استخلص المعنى نفسه فيما يتعلق بسر رقى الشعوب، فى فكر الفيلسوف ومعمل العالم، وريشة المصور وقلم الكاتب والموسيقى، ومثلما فعل إمام التنوير رفاعة الطهطاوى منذ أكثر من قرن عندما حل فى باريس وراح يتأمل تفاصيل حياتها بناء وبشرا وعلاقات ونظم حكم وطرائق حياة وكيف يسلك أهلها ويتصرفون، ويورهم فى جدهم ولهوهم، كذلك فعل حسين فوزى خلال سنواته فى باريس دارسا ثم زائرا حيث رأى فى هذه المدينة عالما بأكمله فهى مدينة الحدائق والمتاحف ومدينة الأزياء ومدينة اللهو البرىء والخبيث ومدينة الأكل الطيب والشراب المرىء، وهى كغيرها من المدن مدينة الخير والشر، ويسخر حسين فوزى ممن لايرون ولايعرفون من باريس إلا ملاهيها ووجهها العابث وأزياءها، فباريس الحقيقة عنده هى فى أهلها الذين يعرفون كيف يعملون وكيف يستريحون، وفى مكتباتها ومتاحفها وآثارها وهى قبل كل شىء فى دور العلم والسوربون والكولينج دى فرانس، ومعهد باستير ومتحف التاريخ الطبيعى، وهذه هى «حصون العلم وصوامعه» التى لا يصل إلى من يعيش فيها أصوات الملاهى. وتذكره صوامع العلم وحصونه بأكاديمية أفلاطون فى أثينا وبركليس، ويربطها بالديمقراطية الفرنسية، فى تقديرها لرجل العلم ورجل التعليم. ويلخص حسين فوزى كلمة باريس عنده، وعند كل رجل علم وفن وأدب أو فلسفة: بأنها باريس العلماء والفنانين والفلاسفة والمفكرين.

غير أن رؤية حسين فوزى لباريس على النحو الذى لا تجعله يميزها عن سائر البلدان، فهو يدرك أن لكل بلد متحضر ميراثه ومتاحفه ومكتباته وما تنطق به أبنيته من تاريخ وآثار من جمال، وهذه الرؤية هى التى جعلته يدرك مكانة عاصمة بلاده - مصر المحروسة - التى «يحق لها أن تتيه بما احتوته مبانيها من آثار الحضارات القديمة والحديثة، ورغم تراثها التالد من آثارها المصرية والفرعونية والقبطية والإسلامية، إلا أنه لم يثن عزمها عن ملاحقة الحضارة العصرية بجامعتها وأكاديميتها وقاعات المحاضرات والمسارح والمدارس والمكتبات، وهو ما يجعلها مهيأة لأن تصبح يوما «عاصمة من العواصم الكبرى فى العالم».

ولاتكتمل رؤيتنا لارتباط حسين فوزى بالحضارة والثقافة الغربية ومقوماتها، إلا بالتعرف على جانب مهم من تكوينه واهتماماته الثقافية والفنية وهو الموسيقى، والواقع أن الاهتمام الموسيقى عند حسين فوزى قد نشأ مع الاهتمام المبكر بممارسة الموسيقى، الأمر الذى أثار سخرية معارفه وأصدقائه، وقد كان طبيعيا أن يزداد ويتعمق ارتباطه بالموسيقى أو ما يسميها بـ «موسيقى



د. حسين مؤنس

الحضارة أو «الموسيقى العظمى» مع عمق ارتباطه بالحضارة والثقافة الغربية. فعلى الرغم من معرفته واهتمامه المبكر بالموسيقى والموسيقيين المصريين من أمثال سلامة حجازي وكامل الخلعي وداود حسني وسيد درويش ومعرفته لهم معرفة شخصية ورؤيته لهم «كقوى دفينة لو أتيح لها الأرض الصالحة لكانوا فخرا للإنسانية جمعاء» إلا أن فهمه واستيعابه للموسيقى بعد رحلته للغرب ذهب أبعد من الحدود التي وقفت عندها الموسيقى الشرقية أو ما يسميها «موسيقى الطرب» وجعلته ينجذب إلى الموسيقى الأوروبية كما تطورت منذ القرن الثاني عشر الميلادي وعند أعلامها من أمثال باخ وهندل وهايدن وموزارت وبتهوفن إلى شوبرت وشومان وبرامز وفاجنر وبرليوز. ولا يتناول حسين فوزي الموسيقى منعزلة عن الفنون الأخرى من أدب وتصوير وعمارة ولا عن فهمه للفن كجزء لا ينفصل عن كيان الأمة والعقل والشعور.

وقد ظل حسين فوزي على اقتناع بأنه قد آن للسامع المصري المثقف أن ينصرف عن فكرة الاستماع للطرب وحده إذا طمع في تذوق الأعمال الموسيقية الكبرى التي لم تعد وقفا على شعب متحضر دون الآخر ولكنه كان يدرك أنه لاستيعاب هذه الموسيقى لابد أن يتهيأ له الاستعداد النفسي والثقافي الكامل لسماع سيمفونية لموزارت أو قداس لباخ.

لذلك لم يكن غريبا أن يكرس حسين فوزي جانبا كبيرا من وقته لتقديم الأعمال الموسيقية الكبرى وأعلامها للمستمع المصري من خلال البرنامج الثاني في الفترة من ١٩٥٧ من بدايته حتى عام ١٩٦٦، ثلاثمائة حديث عن أعمال تسعين من أعلام الموسيقى وعن كافة سيمفونيات بيتهوفن وشومان وبرامز وأهم سيمفونيات هايدن وموزارت وشوبرت ومندلسون وكونشرتات موزار وبيتهوفن وشومان وبارمز وجميع رباعيات بيتهوفن ومعظم رباعيات هايدن وموزار، وكان يفعل هذا باعتباره واجبا قوميا وهو تقريب موسيقى الحضارة إلى بني قومه. وقد تصور أنه إذا استطاع أن ينفذ إلى وجدان فئة قليلة من المثقفين فسيكبرون على مدى السنين حتى يجيء اليوم الذي يدرك فيه الجمهور الواعي الفارق بين موسيقى الطرب وموسيقى الحضارة. وحينما يتمكن الجيل الطالع من الموسيقيين المصريين أن يضع اسم مصر في قائمة الأمم التي ترعى الموسيقى الراقية في الشرق والغرب[2]. وكان يقوى هذا الاعتقاد فيه ما عبر عنه فؤاد زكريا من أنه لا يتشكك في أن لدينا تراثا موسيقيا قيما وأن دراسة هذا التراث هي أهم ما يحض عليه، ومثل هذه الدراسة لابد أن تنتهي إلى

آن للسامع المصري المثقف أن ينصرف
عن فكرة الاستماع للطرب وحده إذا طمع في تذوق
الأعمال الموسيقية الكبرى



أن هذه الموسيقى القديمة لاتزال حية في الشعب، ولذلك فإن من المهم تسجيلها والاحتفاظ بها لكي تصبح بعد ذلك مصدر وحي ومادة أولية للموسيقى المتطورة التي تؤلف في عصرنا على القواعد والصيغ والأشكال المتطورة[3].

ومع افتتان حسين فوزي بالغرب وحضارته المعاصرة ومقوماتها ومظاهرها كما شاهدها وعاشها في عواصمه الرئيسية، فإن من الطبيعي أن يبحث عن مصادر هذه الحضارة وأصولها التي تطورت عليها منذ القرن الرابع عشر وازدهارها في القرنين ١٥، ١٦ وفيما عرف بعصر النهضة أو الرينيسانس. وفي تتبعه لهذا العصر يحرص حسين فوزي أن يضعه في سياق اهتماماته التاريخية واهتماماته بالحضارات المختلفة حيث يتوقف فيها عند ما يسميه «حقبات اليقظة» التي تدفع الإنسان في مراقي الحضارة دفعا بالفكر والإحساس، وقد يحققها بالحرب أو بالسلام، بالعنف أو بالخير ... ولهذا كان ما يعنيه هو «يقظة الشعب» أيا كان مصدرها وروافدها وأسبابها يستوي في هذا ما نقلته بالحروب الصليبية من الحضارة الإسلامية إلى الغرب، وما استفاده الشرق الأوسط منها، واكتسبه الغرب من الروم ومن العرب ومن الهند، وما نقلته الفتوح الإسلامية إلى صقلية وشبه جزيرة أيبيريا، إلى أوروبا أو ما خرج من شرور الغزو الفرنسي بقيادة نابليون.

في هذا السياق يتوقف حسين فوزي لكي يتحدث عن حضارة الرينيسانس أو ما يوصف بعصر النهضة أو عصر الإحياء وهي الحضارة التي نشأت في الدويلات الإيطالية فكانت نتاجا عجيبا عن مسيحية العصر الوسيط ومن العودة إلى حضارة الإغريق وإحياء حضارة الرومان ومما استألفته من الحضارة الإسلامية. وفي تحليله لحضارة الرينيسانس ومقوماتها وأفكارها يركز على الفرد ونموه لأن عنوان هذه الحضارة كان «هو الإنسان متفتح العقل والشخصية»، الذي يطرق مجالات المعرفة وما أنجزه في الفكر والفن والعلم والأدب. ولأنه يدرس هذه الحضارة في اتصالها بالحضارات الأخرى. فإن حضارة الرينيسانس تذكره بالحضارة العربية وهي في أوجها. ويتجه فكره إلى شخصياتها وأعلامها مثل ابن رشد وابن سينا وابن الهيثم وابن خلدون، وكانت شخصيات موسوعية رغم التخصص التخصصية في باب من أبواب المعرفة إلا أن اتساع ذهنها وامتداد بصرها وصلها بشتى فنون المعرفة وآدابها، لذلك وجد حسين فوزي في عصر الإحياء في أوروبا ظاهرة حضارية تشبه ما حدث في عصر ازدهار الحضارة العربية سواء في عهد المأمون أو بعده في حضارة الأندلس. وعلى هذا. فإذا كان عصر الرينيسانس يعني «الميلاد من جديد» وما يمثله من انفتاح الإنسان على نفسه لتحليل ظواهرها وباطنها، وتشوقه إلى استطلاع الكون واكتشافه. إذا كان هذا هو جوهر عصر الإحياء، فإنه لا يقتصر على حضارة واحدة أو عصر واحد وإنما يشمل كل حضارة ازدهرت وتيقظ فيها الروح والعقل[4].

غير أنه رغم حديثه عن حضارة الرينيسانس وقيمها ومبادئها، فإنه ينبه في تحليله لها إلى أنها لم تكن «جنة أرضية» فهي لم تكن كذلك حيث تميز الرينيسانس بمصاحبة الشر والخير، وجمع بين صدق الإيمان والعقيدة في صورة الراهب «سافونا رولا» وجرائم أسرة بورجيا السفاحة. فالرينيسانس كان بحرا من المتناقضات: من البساطة والتعقيد، ومن الطهارة وحب الجمال إلى الشهية المنحرفة.

ولكن ما الذي حققه عصر الرينيسانس وما الذي يمثله في تقدير حسين فوزي؟ يلخص هذا في اكتشاف العالم شرقا وغربا. وتحرير الفكر وإصلاح العقيدة. وهو العصر الذي شجع على استخلاص بعض اللغات الأوروبية من ربقة اللاتينية. واستطاع الرينيسانس التقدير بما نسميه اليوم التكنولوجيا حيث وهب الإنسان الغربي القدرة على الانفتاح والاكتشاف، وأن يستخرج من الحديد الزهر والصلب. وأن يخترع الأسلحة النارية ويضبط الوقت بمحركات دقيقة وينسخ الكتب بالمطابع، وهو العصر الذي أخرج أهل العصور الوسطى من الظلام إلى النور وخلص الفرد من ضغوط الجماعة وتفضيله تفتح الدين على الدنيا وما بها من جمال. غير أن هذا التفتح لا يعني اتهام عصر النهضة باللا دينية فما حدث أن المسيحية قد أحست بالحاجة إلى التجديد والتفتح على الحقائق اليومية في يسر لا عسر لكي يشعر الناس بحق أجسادهم والإعجاب بالجمال الحسي في شكل وصورة. ولكن ما يميز عصر الإحياء بحق هو تضاؤل نفوذ رجال الكنيسة الذين لم يعودوا يرهبون رعاياهم بأن إرادة المرء وذكاءه يؤديان به حتما إلى الخطيئة وهو ما أتاح ظهور قدرات الإنسان وإمكاناته، وانطلقت مواهب الرجال والنساء حرة في كل مجال، وأصبح الفرد يشعر بقوة وبأنه صانع قدره حر في عقله وروحه لا تحكمه إلا الفضيلة «ايفرتو» وهي العبارة التي كانت تعني في هذا العصر الرجولة الحقة، فمن يملك الفضيلة يعرف بما يمنعه من داخله في الفن والأدب، والسياسة وحسن استخدام ما يتاح له من فرص.

ويتساءل حسين فوزي عن من نهضوا بحركة الإحياء الأوروبي، وبنوا دعائمها في شتى مجالات الحياة والفكر والفن والثقافة؟ إنهم النخبة، غير أنه يجب التنبيه إلى أن مفهوم النخبة لم يكن يعني الأرستقراطية التي تقوم على الأصل والميلاد والبيئة الخاصة، فرجال عصر الإحياء لم يكونوا وفقا لهذه المعايير، وعلى العكس، فإن هذا العصر كان عصر «الجنتلمان» الذي يقوم تميزه ووجوده على أساس من المواجهة الواسعة لشتى الأمور، وفي هذا الجو أصبح العلمانيون ليسوا أقل منزلة من رجال الدين ولا من الفرسان كما كان الحال في العصور الوسطى.

ومثلما فعلت رحلة سلامة موسى من لندن حين قضى عشرين يوما في طنجة عاد بعدها أكثر اعتقادا وإيمانا بالغرب وحضارته وأكثر ابتعادا عن الشرق، وطراز ثقافته، كذلك فعلت رحلة حسين فوزي إلى الهند عام ١٩٣٨ حيث سجل بوضوح في صدر كتابه الذي وصف فيه هذه الرحلة

وجد حسين فوزى فى عصر الإحياء فى أوروبا ظاهرة حضارية تشبه ما حدث فى عصر ازدهـــار الحضــــارة العربيـــة



درجت على حب الغرب والإعجاب بحضارة الغرب، وقضيت أهم أدوار التكوين من عمرى فى أوروبا فتمكنت أواصر حبى، وتقوت دعائم إعجابى، فما ذهبت إلى الشرق وعدت إلى بلادى وقد استحال الحب والإعجاب إلى الإيمان بكل ما هو غربى»[٢]. غير أن هذه الخبرة إزاء الشرق لم تحجب إعجابه بعقائدى وأمثاله من القادة الروحيين وبكل فكرة تطهر البشرية من الحماقة، ومع هذا فهو يفضل «وبلا تردد» حضارة كالحضارة اليونانية أو ربيبتها حضارة أوروبا بعد تخلصها من نير القرون الوسطى. لماذا؟ لأنها عند حسين فوزى حضارة وسط بين الروحية والمادية ولأنها حضارة تنادى بإطلاق العقل البشرى من عقاله للتفكير غير مقيد فتسجع بفلسفة ودراسة الطبيعة فى كل أطوارها وأوضاعها ولأنها «حضارة تقوم على الجمال وعبادة الجمال ولأنها تسعى إلى المساواة الاجتماعية وتهيئ للفرد فى الجماعة سبيل المعرفة لتمكنه من أن يصبح عنصرا حيا فى بناء العالم، يساهم فى تقدمه وينعم بثمار هذا التقدم» كذلك فإن إعجابه بالحضارة الأوروبية لا يعنى أنها بلغت المثل العليا ومع ذلك فإن إعجابه يتركز على ظاهرة واحدة فى هذه الحضارة: التفكير الحر فهو «الصمام الدائم» الذى تملك به الحضارة إصلاح ذاتها بذاتها.

وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية وعبر قرنين من تاريخها قد صنعت حضارتها وخصائصها المتميزة والتى يمكن أن تجعلها فى ذاتها حضارة متميزة، فإنها وفى نهاية الأمر، وبحكم الروافد البشرية والانتماءات الثقافية والدينية التى تكونت منها، تعتبر امتدادا للخصائص والمقومات الحضارية الأوروبية وبشكل أصبح من المتعارف عليه أن الولايات المتحدة هى جزء من «الحضارة الغربية» المعاصرة، بهذا المعنى يمكن أن نفهم ترحيب حسين فوزى حين دعى عام ١٩٧٤ لزيارة الولايات المتحدة والتى لابد قد ارتبطت عنده بأكثر ما يجذبه ويحترمه فى الحضارة الغربية الأم: دور الأوبرا، المكتبات والمتاحف وحرية الفكر والعقيدة ومراكز العلم والبحث.

ويسجل حسين فوزى الإطار العام لما تركته فيه رحلته الأمريكية عن الولايات المتحدة وحضارتها باعتبارها «مشكلا إنسانيا واجتماعيا» وهو فى تسجيله لرحلته يحاول معالجة وتفسير هذا الشكل وبداءة يقرر حسين فوزى أننا من غير شك حيال شعب عظيم حقا: متفسح الرؤية هائل فى إنجازاته المادية والأدبية والفنية والفكرية، ويؤيد احكامه تلك بما قابله فى جولاته الثقافية والعلمية والفنية بما تصدره أمريكا من كتب وموسوعات علمية ومسجلات أوركستراتها السيمفونية وما شاهده فى أوبرا المتروبوليتان، وقاعة كارنيجى. وكذلك على المستوى الإنسانى وانطباعاته عن خلال ما لاقاه وعرفه من زملاء العلم والاجتماع: وصفاتهم الاجتماعية التى تمتاز بالود والصراحة مع بعض الاجتراء والاعتزاز بالنفس وما طبقته المغامرات فى اتجاه الغرب الأمريكى من عنف وسرعة المبادرة والأثرة وحب التفوق على الآخرين»[٣].

ويفصل حسين فوزى للخصائص التى اكتسبها الشعب الأمريكى من خلال تجربته التاريخية ونموه الحديث، وتأثير الفضاء المتوحش بغاباته وصحاريه وجباله وأنهاره، والتقاء القاهر بين خليط الشعوب والأجناس وأثر ذلك فى تعديل الثقافات والمؤسسات الموروثة بحيث جعل تحقيق الاتحاد الأمريكى أعظم التجارب طموحا والتى جمعت بين الخير والشر والعنف والروح العملية والمثالية بين الشعوب المهاجرة، ومثل هذا الخليط هو الذى أنتج الحرية الدينية والسماحة بين عناصره المختلفة والمساواة الاجتماعية والفرص الاقتصادية المتاحة والديمقراطية السياسية.

أما ما يتوقف عنده بوضوح بعد أن زار الجامعات ومعاملها وما تحتويه مكتباتها من مجلدات فهو «التعليم الذى يعتبره نقطة البداية فى التجربة الأمريكية و«أعجوبة من أعاجيب هذا الشعب الحديث».

غير أنه إلى جانب هذه الإنجازات هنالك وخاصة نتيجة الاندفاع فى طريق الآلية وتطبيقاتها التكنولوجية، وما نشأ عن ذلك من مشكلات اجتماعية خاصة مجتمع الرفاهية، القائم على تضخم الصناعة والاستهلاك.

وفى خلوته مع نفسه خاصة بعد أن زار جامعة شيكاغو ليشهد افتتاح معرض توت عنخ آمون، اختلط لديه الشعور بالسعادة بما وصفه «بالحزن الكظيم» والذى نشأ من مقارنته لما رآه فى تلك البلاد من ثراء ونشاط محموم ونظام وقدرة على استخدام الثروة بعد استجلابها بالجهد والعرق والكفاح من قاع الفقر، بما حدث فى مصر والتى كانت فى طريقها السليم فى الحضارة العالمية.

فى حواراته مع فؤاد دوارة، وردوده على من انتقدوه بأنه، فضلا عن ارتباطه العميق بالغرب وحضارته، مارا بأصوله البعيدة التى ينتمى بها إلى الشركس والترك، فقد أثرت فيه وأقامت مسافة بينه وبين الشخصية المصرية فى أبعادها الكاملة: ينفى حسين فوزى هذا النظر ويؤكد ارتباطه العميق بالبيئة المصرية ووسطه الاجتماعى وأنه رغم حياته الطويلة فى الخارج وتأثره بالوسط الأوروبى الحضارى ذى النماذج الحضارية الرفيعة، ورغم زواجه من فرنسية من الطبقة البرجوازية العليا، فإن هذا كله لم يبعده عن وسطه وأصوله وحرصه على أن يعيش يومين فى الأسبوع مع والدته وإخوته، بيئة قريبة من البيئة التى نشأ بها حيث نشأ على مقربة خطوات من باب سيدنا الحسين الذى تسمى باسمه.. وحيث لا يتصور أن من قضى طفولته وشبابه حتى الخامسة والعشرين يمكن أن يتحول عن أصوله.

والواقع أننا نستطيع أن نصدق دفاع حسين فوزى عن نفسه، وتأكيده لانتمائه ليس فقط للبيئة التى نشأ فيها، وإنما لانتمائه بالمعنى الواسع لمصر ولشعبها وحبه لها وهو الانتماء والحب الذى جعله يتمنى أن يرى بلاده على نموذج التقدم والعلم والنظام الذى رآه وعايشه فى الغرب. ونستطيع أن نلمس هذا حتى فى أشد لحظات إعجابه وتسجيله لظاهر التقدم الحضارى الشامل فى الغرب حيث يقترن هذا الإعجاب بتمنيه أن يتحقق هذا التقدم لبلاده وشعبه الذى يحزنه ما يعانيه، فهو منذ أن غاب عن بلاده عام ١٩٢٥ ولمدة خمسة أعوام عاش انقاعها مع أهل الغرب «بعقلية أوروبية وقلب مصرى»، وخلال هذا ظل على إيمانه بوطنه وشعب بلاده «أومن بوطنى وشعب بلادى، المؤلف من ملايين المحرومين من الصحة والتعليم ومن الرفاهية الجسمانية والعقلية».

ونستطيع أيضا أن نصدق حسين فوزى وعمق انتمائه لمصر وشعبها من اعتزازه الحار بالحضارة المصرية وتراثها والتاريخ المصرى وهو الاعتزاز الذى جعله يخصص عملا فريدا ويعنى به «سندباد مصرى» والذى يتجلى فيه ارتباطه بتاريخ مصر والحياة المصرية منذ نشأتها وإحساسه بالوحدة الكامنة خلف الحضارات التى تعاقبت عليه وهى الوحدة المتماسكة التى جعلته يشعر بأنه «ابن أعرق الشعوب طرا» وفخره بأنه «واحد من آحادهم». وهو يرى أن معجزة الشعب المصرى ليست فى الحضارة التى وهبها للعالم فحسب وإنما فى أن يظل الشعب حيا متمكن الشخصية لا يفنى فى غزاته ومستغليه، وهو شعب زارع صانع حضارة سواء حكمه محب للعلم، تواقة للفن أو مغامر، شعب يفرض الحضارة على حكامه فرضا، ويؤكد حسين فوزى أن الشعب المصرى بهذه الخصائص وهذا التماسك قد انتصر دائما على قاتليه ولو بعد حين: إذا لم يستطع حكامه أن يدلعوا عليه طويلا، بل هو الذى خدعهم فى نفسه وعالج ذلتهم وظلمهم، ظل يحتفظ بنفسه مدى ستة آلاف سنة من خلال أعز ما يملك «وهو إنسانيته المتحضرة، وشخصيته المتكاملة». وعنده أن مصر لم تفن فى غزاتها بل إن غزاتها هم الذين فنوا فيها، والفناء الذى يقصده هو فناء الشعوب الغازية فى الشعب المصرى وهضم التربة المصرية لكل الأجناس الغريبة. وهو لا يعتبر الحضارة المصرية ادعاء على غرار «تلك حضارتنا تدل علينا» بل إنه يقول بصراحة إن حضارة مصر القديمة ليست باقية فينا حتى اليوم «فهى غير باقية وانتهى الأمر...» ولكن ما يجب أن يهتم به المصريون هو أن يعيدوا هذه الحضارة إلى الحياة فى نفوسهم بمحاولة فهمها ودراسة حكمتها وعلمها وفنها، جنبا إلى جنب مع دراسة الحضارة الغربية والأوروبية فى حكمتها وعلمها وفنها، وهى

يكرر أن دراسة هذه الحضارة ليست من قبيل التفاخر أو الفطرسة أو «نحن أول من ...» وإنما من قبيل أن يظل تاريخ الخمسة آلاف عام حيا في نفوس المصريين وأن يظلوا على اتصال وجداني بهذا التاريخ لأن التاريخ قوة هائلة على التنبيه والإحياء.

ولا يتحرج حسين فوزي من أن مصر قد عانت وذاقت حكم الأجنبي من ملل ونحل، وهي «الوحيدة من بلاد الله التي كانت لخلق الله جميعا» وما يحميه من هذا الحرج هو أن مصر خرجت من هذه المحن محتفظة بشخصيتها وطبائعها مقبلة دائما على صناعتها الواحدة، صناعة الحضارة رغم كل شيء وتحت حكم كل إنسان وضد كل إنسان. وكما سبق أن لاحظنا أن حسين فوزي في معايشته للحضارة الغربية وخاصة مقوماتها الثقافية والفنية واحترامها لرموزها، كان دائم التفكير والارتباط بأصول حضارته المصرية وتراثها وتمجيده لها، يبدو هذا بوضوح فيما يسجله عند زيارته المنتظمة لمتحف اللوفر في باريس، وللأقسام المصرية في متاحف لندن وبرلين، أنه كان في موقع يبحث عن الروح الأول مصدر الحضارة المصرية التي عاشت منذ خمسين قرنا ثم ماتت ولكن الروح ظلت باقية تحت الثرى، وكان سؤاله الدائم هو: كيف يصل الماضي والحاضر، بين بناة حضارة من أروع حضارات الأرض، وبين بني قومه الذين يترددون بين الشرق والغرب باحثين «عن أنفسهم في كل مكان، إلا حيث هم حقا في أرضهم الكريمة بيوت آبائهم الأقدمين وخلال هذه الجولات كان السؤال الذي يلح عليه باستمرار هو ماذا تبقى في نفسه من أثر حضارة أجداده؟ وكان هذا السؤال.. يجعله يعود بمخيلته إلى عهد طفولته وأول زيارة للمتحف المصري حين كان أول شعور له هو شعور الرهبة التي لم يكن مصدرها الخوف من المومياوات وإنما كان مصدرها الأسلوب وطريقة التعبير في المعمار والنحت والرهبة أمام «العيون المزججة على غطاء التوابيت، والعيون المرسومة إلى جانب الكتابات العجيبة» وفي المتحف المصري كان يحس «أصواتا رهيبة تخرج من أعماق هذه التوابيت وصور تلك التماثيل يأمرون بالوقوف أو الركوع أو السجود حيث أتيت».. مثل هذه الصورة وتمثل الشعب المصري والحضارة التي صنعته: هي التي جعلته وهو في قلب الحضارة الغربية ومظاهرها التي توحي بالانبهار، يفعل ما فعله يحيى حقي وهو يحتمي بهذا الرصيد الحضاري من أن تقتلعه أو تكتسحه أو تزيف من ذاكرته ووعيه أصوله الحضارية والثقافية، وهي التي جعلت حسين فوزي يستخلص بشكل حاسم «حضارة أجدادي حضارة كاملة ومن أقدم الحضارات عاشت قرونا

كان «عظيم المجد وعظيم الأخطاء»
ويدرج أمجاده تحت بند الأدب والفن والإبداع،
أما الأخطاء فهي بحور السياسة



وتركت آثارها في باطن الأرض منذ ألف سنة، وأنا حريص على أن أحتفظ بهذا التراث من زر القميص ورباط الحذاء وأصبع القفاز إلى قدرة الفول ومومياء القردة والهرة كمستندات تاريخية ومعاهدات أنثولوجية إلى جانب أعمالهم الخالدة في فن المثال المعماري والكاتب والرسام»، وكأنه يريد أن يطرد أي شعور بالدونية إزاء مظاهر الحضارة الغربية، فإنه يؤكد مكانة الفنان المصري الذي «بلغ في الخلق مبلغا يضعه إلى جانب أعظم الفنانين في القرن الخامس قبل الميلاد وفي القرن الخامس عشر في إيطاليا، وقد تنوع وتنقل بين العمل الرسمي والفن المنزلي، كما مر بعصور الرقة والأناقة حيث تجد في أعماله ما يقربها إلى القرن الثامن عشر في فرنسا وما يذكر بالفن الإيحائي في أواخر القرن التاسع عشر».

وفي استشرافه لمداخل مصر إلى الحضارة الأوروبية كان عليه أن يسجل بداية تطور الفكر المصري في هذا الاتجاه وأن يرى هذه البداية وظاهرتها الكبرى في الشيخ رفاعة الطهطاوي وأن يعتبره حقا باعث النهضة المصرية، فقد عاد رفاعة الطهطاوي إلى وطنه عام ١٨٣١ بعد احتكاكه ومراقبته للحضارة الغربية ونظمها زاخر النفس بمعادن جديدة متحفزا لإصلاح المجتمع المصري ولتعليم الشعب وتنبيه أذهانه، ولكي يدرس وينشئ المدارس ويصنع روادا للجيل الصاعد، وراح يستعرض كتب الثقافة الغربية ويترجم وتخرج على يديه جيل من المترجمين يفعلون معه ومن بعده هذه الكنوز، ومضى يكتب ويخطب وينشر المجلدات والصحف ويبسط العلوم ويعالج شئون التربية والسياسة والاقتصاد ويحاول هدم الآراء الفاسدة ويبشر بنور التقدم. فرحلة رفاعة عند حسين فوزي كانت تحديدا أول اتصال روحي بالغرب وهو الاتصال الذي أخصب عقول أهل مصر وذلك عندما تفتحت عينا رفاعة على بلاد الإفرنج، وشعر الفتى الصعيدي بمكانه من الدنيا والتاريخ وأدرك روعة الدور الذي ينتظره في بلاده بعد أوبته.

ولا يفصل حسين فوزي دور رفاعة الطهطاوي الرائد في بعث النهضة المصرية عن دور البعثات العسكرية والهندسية والعلمية والطبية التي صاحبته وأعقبته. ورغم أن هدف محمد علي من هذه البعثات كي يتعلموا حرفا ومهنا تصل بشئون الحرب إلا أنها تركت في أعضائها أثرا عميقا ووضعت أقدامهم على أول درجات السلم الحضاري، ومثلما وهبت هذه البعثات مصر رفاعة الطهطاوي وهبتها أيضا علي مبارك، ومحمود الفلكي ونخبة من الحكماء، وإلى هؤلاء وإلى «كتيبة الفلاحين الذين أوفدوا إلى فرنسا» في القرن التاسع عشر ونتيجة تأثرهم العميق بما شاهدوه من آثار الحضارة الغربية، يرد حسين فوزي الفضل لما تعلمته مصر وحولها عن غفلتها.

في ضوء هذا الخط الفكري الثابت، الذي التزم به حسين فوزي من إيمان مطلق بالغرب وحضارته وبالعوامل والقوى التي كانت وراء نهضته وبالتالي دعوته لبني قومه إلى تبني هذا النموذج في مجموعه وليس في جانب واحد منه إلا إذا أرادوا النهوض والتقدم: في ضوء هذا كان من المتوقع أن يتعرض حسين فوزي للنقد فيما يتعلق بالمدى الذي ذهب إليه في إيمانه بالغرب والذي وصل، في تقرير بعض النقاد «إلى حد الهوس» وفي تأثير هذا على عدد من توجهاته الفكرية والسياسية. وبداءة لا ينكر هذا النقد أو يشكك في حب حسين فوزي لمصر فهو كما عبر الأستاذ رجاء النقاش «عاشق لمصر بكل ما تحتمله كلمة العشق من معنى فهو يحب مصر وتاريخها وشعبها وفنها حبا قائما على الفهم والتذوق والدراسة الواسعة، فمصر كانت دائما في ذاكرة حسين فوزي كلما كتب حرفا». أما ما يؤخذ عليه فهو أن تأثره بالثقافة الغربية قد انعكس على لغته وجملها تتسم بالبطء والصعوبة واستخدامه التعبيرات الأجنبية، كما كانت صلته بالثقافة العربية في مصادرها الكبرى ضعيفة وذلك بتأثير إيمانه وارتباطه بالثقافة الغربية، وبفعل هذا التأثير كان شديد التجاهل لانتماء مصر العربي مفضلا عليه الانتماء إلى حضارة مصر القديمة، وتحت تأثير اقتناعه المطلق بالحضارة الغربية لم يفرق بينها وبين التاريخ الغربي وممارساته وسياساته تجاه مصر والعرب.

ويعتبر رأي آخر أن حسين فوزي كان «عظيم المجد وعظيم الأخطاء» ويدرج أمجاده تحت بند الأدب والفن والإبداع، أما الأخطاء فهي بحور السياسة والتي يقف رمزا عليها زيارته لإسرائيل. والواقع أن زيارة حسين فوزي لإسرائيل نستطيع أن نراها إذا ما وضعت في السياق العام لفكر حسين فوزي واعتقاداته الفكرية التي ترتكز على الإيمان بالحضارة الغربية ونماذجها وكل ما تمثله. فقد تصور حسين فوزي أن إسرائيل هي امتداد وتطبيق لهذا النموذج، وأن العلاقة معها إنما تتصل بما يدعو إليه من الأخذ والتعلم من الغرب وحضارته وأدواته، وقد تغلبت هنا نزعته العقلية وقناعاته الغربية على النزعة القومية والعاطفية، ومثلما فرق حسين فوزي بين الغرب كحضارة وكنموذج للتقدم، وبين الغرب وتاريخه وممارساته السياسية، كذلك لم يلتفت حسين فوزي إلى إسرائيل وبكل ما تمثله للعرب كمشروع استعماري استيطاني عنصري، له أصوله أيضا في الحضارة الغربية الحديثة، وإنما اتجه إليها فيما تصوره عنها كنموذج للمجتمع الغربي المتقدم. ❊

الهوامش

(١) حسين فوزي «سندباد إلى الغرب» دار المعارف. ط ثالثة ص ٢٨٢

(٢) حسين فوزي «سندباد في رحلة الحياة» دار المعارف/ اقرأ عدد ٣٠٦ يونيو ١٩٦٨.

(٣) فؤاد دوارة «عشرة أدباء يتحدثون» ص ١٠٣، وراجع أيضا عبد الحميد توفيق (كي «د. حسين فوزي ومسيره» مجلة القاهرة عدد ٨٩، ١٩٨٨.

(٤) حسين فوزي «تأملات في عصر الرينيسانس» دار المعارف ص ٦-١١.

(٥) حسين فوزي «سندباد مصري» جولات في المحيط الهندي» مطبعة الاعتماد في القاهرة ١٩٣٨.

(٦) حسين فوزي «سندباد إلى العالم الجديد» دار المعارف ص ٥-٦.



«الشفاعة»

قسم آخر

محمد راتب النابلسي

.....

الأشياء وتر، وشفع.. الوتر منفرد.. الشفع مزدوج معنى الشفاعة لا يلتقي اثنان.. لا يلتقي اثنان.. لا يتنافسان.. اثنان لا يؤذي واحد الآخر.. أي حركة نحو الآخر إيجابية أو سلبية نوع من الشفاعة.

لذلك الآية الأصل في هذا الموضوع قول الله -عز وجل- ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾..

آية الكرسي، وهي أعظم آيات القرآن.. ﴿ الله لا إله إلا هو﴾ يعني لا مسير في الكون إلا هو.. لا معطي، ولا مانع، ولا خافض، ولا رافع، ولا معز، ولا مذل هذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ عنده في ملكه.. يعني في ملك الله في السماوات والأرض.. في الكون لا يمكن أن يتصل كائن بكائن.. أن ينفع كائن كائنا.. أن يؤذي كائنا ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ هذه الآية تعد أصلا في قانون الشفاعة.. فكل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

...

كلنا يعلم أن لله أمرا تكليفيا، وإن لله أمرا تكوينيا.. فالأمر التكويني ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ هذه الآية دقيقة جدا.. التي يمكن أن تنفي الحقد، والألم، والألم الشديد كل وقع أراده الله؛ لأنه لا يليق أن يقع في ملكه ما لا يريد، ولا معنى أنه أراد أنه أمر أو رضي.. لكن سمح فقط لحكمة بالغة دامغة عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾ كأمر تكويني ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾.

أما كأمر تكليفي متى يسمح لي أن أشفع لإنسان؟ متى يسمح لي أن ألتقي مع إنسان؟ متى يسمح لي أن أتعامل مع إنسان؟

هنا موضوع قانون الشفاعة كأمر تكليفي.

أما كأمر تكويني كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

...

الآية الأولى في الأمر التكليفي ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها﴾ يعني أنت وفقت بين زوجين ثمار هذا الزواج في صحيفتك.. عمل صالح.. وفقت بين شريكين، أن تدل انسانا على طريق الهدي، أي علاقة مع الآخر من دون استثناء للذي سبب هذه العلاقة الإيجابية أجر عند الله كبير.

ولذلك يقول النبي -عليه الصلاة والسلام- مخاطبا الإمام علي (رضي الله عنه) «يا علي لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس.. خير لك من حمر النعم.. خير لك من الدنيا وما فيها» يعني وفقت بين اثنين.. دللت إنسانا على خير الدال على الخير كفاعله.. حذرت إنسانا من شر فابتعد عن هذا الشر.. وفقت بين زوجين.. دللت إنسانا على زوجة صالحة مؤمنة طاهرة.

فهذا الزواج المبارك الميمون كل نتائجه الإيجابية في صحيفة هذا الذي كان سبب هذا الزواج.

لذلك أفضل شفاعة أن تشفع بين اثنين في نكاح.. أفضل شفاعة أن توفق بين أم وولدها.. بين أخ وأخيه.. بين شريك وشريكه.. بين مسلم ومسلم.. هذه أفضل شفاعة كأمر تكليفي، ولكن بالمقابل هناك إيجابيات، وهناك سلبيات، ﴿ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها﴾ أي يتحمل إثما.. دللت إنسانا على معصية فانغمس بها، ومات عاصيا لله.. بعيدا عن ربه.. استحق عذاب النار.. فهذا الذي دله على هذه المعصية.. سبب شقاء كبير.

لذلك ماذا فعل نوبل الذي اخترع البارود؟ جعل كل ثروته من أجل عمل إنساني؛ لأنه أدرك أن هذا البارود سوف يسبب للبشرية متاعب لا تنتهي.

لذلك ﴿ ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتا﴾

...

قضية الشفاعة قضية هامة جدا.. فالمؤمن لحرصه على طاعة الله، ولحبه للخير، ولحرصه الذي لا حدود له على خير البشرية لا يقبل أن يكون سببا لحصول مشكلة.. ولا يقبل أن يبني مجده على أنقاض الآخرين.. ولا يقبل أن يبني حياته على موتهم.. وعزه على ذلهم.. وأمنه على خوفهم.. وغناه على فقرهم.. كل شفاعاته حسنة.. لا يدل إلا على الخير لا على الشر.

لذلك مثلا إذا أفسد إنسان فتاة فكل أخطائها، وكل مستقبلها المظلم في صحيفة الذي أفسدها.. أن الله -عز وجل- يحاسب كل إنسان عن آثار عمله، وهذا في قوله تعالى: ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾.

إذا الأمر التكليفي المهم في موضوع الشفاعة أن هناك شفاعة حسنة لمن سببها، ولمن كان وسيطا بها.. هذا له نصيب منها.. له نصيب من الأجر.

هي إذن حقيقة بالدين رائعة.. هذه تجارة مع الله.. أي عمل صالح دللت الناس عليه أو روجته في المجتمع، بمعنى أن أي عمل خيري: دار أيتام أو مأوى للعجزة، أو جمعية خيرية، أو أي عمل تقوم به ينطوي على شفاعة بين اثنين في صحيفتك إلى أبد الآبدين. وهذا من فضل الله -عز وجل- ومن كرمه. هذه الشفاعة الحسنة لصاحبها نصيب منها.. لكن على الناحية الأخرى أن كل عمل سيئ، وأن كل إضرار بالناس، وأن كل ترويج لمعصية، وأن كل زواج بني على الفساد، وأن كل كسب غير مشروع، وأن كل ضلالة راجت بين الناس، فكل الآثار السلبية التي نتجت عن هذا الترويج، وعن هذه الدلالة في صحيفة من سببها، ومن دل عليها إلى يوم القيامة. وتلك هي الشفاعة السيئة.

يقول الله -عز وجل-: ﴿ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿٢٤﴾ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ الكلمة الطيبة تطير في الهواء.. تطير في الآفاق.. قد ينتفع بها أناس كثيرون، والكلمة الخبيثة بالمقابل أيضا تطير في الهواء.. الضلالات تنتشر عبر وسائل الإعلام.. الضلالات تنتشر عبر المطبوعات.. عبر المقابلات.. عبر الندوات.. كل من روج هذه الضلالات، وأشاعها بين الناس فانعكست فسادا، وانحرافا، ومعصية، أصحابها هم مسئولون عن أعمالهم، وعن نتائج أعمالهم، وهذا تؤكده الآية الكريمة ﴿إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾. ■

خطوة إلى الأمام.. خطوتان نحو الوراء

نذير جزماتي

** لم تسر المجتمعات البشرية مجتمعة في خط مستقيم واحد نحو الأمام، بل إن الذي حدث أن بعض المجتمعات تقدمت إلى الأمام في الوقت الذي تراجعت بعض المجتمعات إلى الوراء، وبقي بعضها الآخر يراوح في مكانه، ولعبت الحروب التي تهدف إلى استيلاء المهاجمين على إنجازات قوم أو أقوام أخرى، دوراً في تعريف هذا أو ذاك على اكتشافات أو اختراعات الطرف الآخر. وبقيت أقوام في حالة تخلف شديد بسبب العوائق الطبيعية كالجبال العالية أو الأنهار أو البحار أو الصحاري التي وقفت سداً منيعاً في وجه الحضارة التي بلغها الآخرون هنا وهناك، مثل مجموعات هندية أمريكية في أمريكا الوسطى كقبائل النيتكا والبايا وغيرها التي كانت في مرحلة المشاعية البدائية عندما اكتشف الهوندوراس عام ١٦٠٢، وكانت تعيش بالقرب منها حضارة المايا التي بلغت في مدينة كوبان الحالية أوج مجدها. ولازالت توجد مجتمعات مشاعية بدائية حتى اليوم في حوض الأمازون في البرازيل.

ومع أن البرجوازية جرت وتجر «إلى تيار المدنية كل الأمم، حتى أشدها همجية، تبعاً لسرعة تحسين جميع أدوات الإنتاج، وتسهيل وسائل المواصلات إلى ما لا حد له، حسب ما ورد في «بيان الحزب الشيوعي» لكارل ماركس وفردريك إنجلز في الفصل الأول بعنوان «البرجوازيون والبروليتاريون»، ومع أن «رخص منتجاتها هو في يدها بمثابة مدفعية ضخمة تقتحم وتخرق كل ما هنالك من أسوار صينية»، حسب ما ورد في المصدر نفسه، فقد بقيت أقوام هنا وأقوام هناك متأخرة ومتخلفة عن غيرها، في الوقت الذي أحرزت شعوب غيرها تقدماً كبيراً تم التعبير عنه أحياناً بتمتع هذه الأمة أو تلك بعهدها الذهبي وعلى سبيل المثال أقيمت أنظمة اشتراكية أو شبه اشتراكية في الصين القديمة ومصر القديمة وروما القديمة أيام ديقلديانوس. وطرحت أفكار اشتراكية رفيعة الطراز في بلاد اليونان من قبل فيثاغورس، ومن قبل سقراط على لسان أفلاطون، وفي الصين على لسان كونفوشيوس وموتي من بعده. وقدم لنا أرسطوفان في مسرحية الأكلزيازويسي Ecclesiazusac عام ٣٩٢ ق.م السيدة براكساغورا التي ألقت خطبة قالت فيها: «أريد أن يكون لكل الناس نصيب في كل شيء، وأن يكون المُلك مشاعاً، فلن يكون بعد اليوم أغنياء أو فقراء، ولن نرى بعد الآن رجلاً واحداً يجني محصول مساحات واسعة من الأرض وإلى جانبه رجل آخر لا يجد منها ما يتسع لدفنه.. وسأعمل على ألا يكون في الحياة إلا ظروف واحدة يشترك فيها جميع الناس على السواء.. وسأبدأ بأن أجعل الأرض والماء وكل ما هو ملك خاص مشاعاً بين الناس أجمعين.. وستكون النساء ملكاً مشتركاً للرجال»[1].



وبعد أن انتقلت البشرية كلها تقريباً من المشاعية البدائية إلى عهد الرق إلى النظام الإقطاعي، عادت في بعض بقاع الدنيا إلى عهد الرق بعد اكتشاف القارة الأمريكية وبروز الحاجة الشديدة إلى الأيدي العاملة التي استحضرت من أفريقيا. وقد ابتلعت ملايين الناس من العرق الأفريقي زراعة جزر الهند الغربية التي هي مهد لثروات أسطورية على مدار عدة قرون، حسب ما كتب كارل ماركس في «رأس المال»[1]. وجزر الهند الغربية الواقعة في البحر الكاريبي لا تشكل، كما هو معروف، واحداً من ألف من القارة الأمريكية..

وعندما خفت الحاجة إلى هذا الرقيق، صدرت القوانين بمنعه من قبل الدول الاستعمارية وعلى رأسها بريطانيا العظمى صاحبة الإمبراطورية التي لم تكن تغيب عنها الشمس. ومع ذلك بقيت بقعة هنا وبقعة هناك يمارس فيها استرقاق البشر مثل موريتانيا التي لم يمض عام على منع الاسترقاق فيها رسمياً. وكتب الأستاذ محمد إبراهيم نقد عن فترة العودة إلى عهد الرق في كتابه بعنوان «علاقات الرق في المجتمع السوداني»[2].

ومثلما كانت مرحلة عودة مرحلة الرق مؤقتة وناشزة في القرنين السادس عشر والسابع عشر وصدرت قوانين منعه بدءاً من القرن الثامن عشر، فقد كانت «ثورة أكتوبر الاشتراكية» في عام ١٩١٧ في غير زمانها وفي غير مكانها. وسبق لكل من كارل ماركس وفريدريك إنجلز أن كتبا في هذا الصدد: «إن الشرط الأول لنجاح الثورة الشيوعية هو تطور المنظومة الرأسمالية التام الشامل، الذي سيتيح للبروليتاريين أن يتملكوا جملة قوى الإنتاج الواصلة إلى أعلى درجات تطورها وأن يصيروا بتطبيقها رجالاً كليين، وأن يعطوا الشيوعية طابعاً كلياً - كونياً يستجيب للطابع الذي اتخذته الرأسمالية.

«فطالما لم يتطور الإنتاج الرأسمالي حتى النقطة التي يصير فيها التزاحم نافلاً، سيكون بالنسبة للبروليتاريا، اضطلاعاً بمهمة مستحيلة أن تريد استبدال المنظومة الرأسمالية بمنظومة اشتراكية. فإذا ما نشبت الثورة الشيوعية قبل تمام تطور النظام الرأسمالي، لن يكون لها سوى طابع محلي محدود، وتنتهي إلى فشل محتوم. وبما أن منظومة الإنتاج الرأسمالي ستواصل نموها وتطورها، وبما أن الرأسمالية ستزاحم البلد الشيوعي مزاحمة منتصرة، فإن هذا

ترحب «بوجهات نظر» بما يرد لها من «آراء»، وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أنها مثلها مثل المقالات ذاتها لاتعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو هيئة تحريرها

البلد سيغرق في البؤس، الأمر الذي ستكون عاقبته دمار الشيوعية والرجوع إلى وضع الأشياء القديم[1].

وإذا كان ما يسمى مرحلة «بناء الاشتراكية» في الاتحاد السوفيتي وفي باقي بلدان «المعسكر الاشتراكي» في أوروبا الشرقية، وغير أوروبا الشرقية في آسيا وأمريكا، خروجاً عن الخط العام لحركة تقدم البشرية، وقفزة إلى المجهول، وتمت العودة بأقل الخسائر الممكنة إلى المكان الطبيعي الذي ينبغي أن تشغله روسيا وغير روسيا، فإن كثيراً من الأمور بحاجة إلى إعادة النظر فيها، بدءاً من الحزب وطبيعته، وانتهاء بالثورة وطبيعتها وقواها المحركة وضرورتها .. إلخ.. وإذا كان الأمر كذلك فإن المهام المرتبطة بإقامة الحزب المذكور وإعداده... إلخ.. موكولة بالدرجة الأولى والأخيرة إلى بروليتاريا البلدان الثمانية المتقدمة صناعيا وتكنولوجيا وفي طليعتها الولايات المتحدة الأمريكية، وإلى بورجوازييها الذين يخونون طبقتهم ويلتحقون بالبروليتاريا مثلما فعل الثوريون بدءاً من ماركس وليس انتهاء بتروتسكي.

والمطلوب من الشيوعيين في بلدان العالم أن يدركوا بأن الاشتراكية أو الشيوعية لا يمكن أن تختصر الطريق إلى بلدانهم قبل أن تنتصر البروليتاريا في البلدان المتقدمة صناعيا وتكنولوجيا وعلى رأسها البلدان الثمانية المذكورة. وتقدم البروليتاريا المنتصرة في تلك البلدان المساعدة للبلدان المتخلفة للحاق بركب البشرية المتقدم، من دون فرض السعادة على أحد حسب قول فريدريك إنجلز. وإذا أردنا أن نساعد في تحقيق المهام ذات الطبيعة الاشتراكية أو الشيوعية، فإن ذلك يتحقق بتقديم ما يمكن تقديمه للبروليتاريا ولأحزابها في البلدان الرأسمالية المشار إليها، حسب ما طلب لينين من «صان يات صن» وحزبه أن يفعلا. وكان الرجل قد اقترح في بدء العقد الثاني من القرن العشرين شراء الآلات من أمريكا وبناء الاشتراكية في الصين.

أما متابعتنا السير وفق الطريق الذي كان متبعاً أيام وجود الاتحاد السوفيتي، فإن أقل ما يقال فيه أنه شكل من أشكال الجمود العقائدي إن لم نقل إنه كسل وخمول وبلادة ذهنية. فلقد كان هدفنا قبل حدوث ما حدث أن نعد أحزابنا وشعوبنا لاستلام السلطة وبناء الاشتراكية بقوة المساعدات من المعسكر الاشتراكي وعلى رأسه الاتحاد السوفيتي، أما اليوم فقد تغير كل شيء. ومع ذلك لازلنا نسير على نفس الطريق دون أدنى تغيير.. ويشكل ذلك أحد الأسباب الرئيسية لابتعاد الرفاق والأصدقاء عنا.. وبالتالي، هل الشيوعية دين ونحن رجال دين لا نغير ولا نبدل شيئا.. وإلا اتهمنا بالكفر والهرطقة؟

وإذا نحينا جانباً المفهوم الفلسفي للجديد الذي لا يلبث أن يتقادم ويصبح قديما، فإن ماركس وإنجلز كتبا في مقدمة الطبعة الألمانية لـ «بيان الحزب الشيوعي» أي بعد خمس وعشرين سنة على صدوره عام ١٨٤٨ أن هذا البرنامج قد شاخ في بعض نقاطه، نظراً للرقي العظيم في الصناعة الكبرى خلال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة وما رافق هذا الرقي من تقدم الطبقة العاملة في تنظيمها الحزبي، ونظراً للتجارب الواقعية التي تركتها ثورة شباط/ فبراير أولاً، ثم على الخصوص كومونة باريس حين كانت السلطة السياسية لأول مرة بين أيدي البروليتاريا لمدة شهرين.

وكتب إنجلز في مقدمة الطبعة الإنجليزية للبيان المذكور في عام ١٨٨٨ «أن «البيان» نفسه يوضح أن تطبيق هذه المبادئ يتعلق دائما وفي كل مكان بالظروف والأوضاع التاريخية في وقت معين. فلا تعلق أهمية قائمة بذاتها على التدابير الثورية المذكورة في نهاية الفصل الثاني». وإذا كان الأمر كذلك، فإن كل ما كتب من قبل ماركس وإنجلز ولينين وغيرهم بحاجة إلى مراجعة بعين ناقدة ومجددة وإلا عفا عليها الزمن بعد أن تحولت في فترة معينة إلى كتب مقدسة.. ويجب ألا يغيب عن البال أن الانتقال من تشكيلة اقتصادية اجتماعية إلى أخرى قد تم من دون أية توصيات أو تعليمات، بل بقوة تقدم القوى المنتجة ومن ضمنها العقول الحيارة هنا وهناك. والماركسية - اللينينية تلعب دوراً مماثلاً في زمن أحرزت قوى الإنتاج تقدماً كبيراً جداً.

ومن جهة أخرى، فإن قيام الأحزاب السياسية نفسه مرتبط بمرحلة معينة من حياة البشرية، أي مرحلة الرأسمالية.

أما الأحزاب التي قامت قبلئذ فلم تستطع أن تخرج من دائرة المذاهب أو الطوائف في مرحلة الإقطاع، أو على الأقل في مرحلة سيادة العلاقات السابقة على الرأسمالية مثل العلاقات القبلية والعشائرية والعائلية الكبيرة.. إلخ، التي يسميها القوميون العرب المرحلة ما قبل الوطنية.. وسادت هذه العلاقات في المؤسسات السياسية الحزبية وغير الحزبية..

وإذا كانت مهمة بناء الاشتراكية ليست مطروحة على جدول أعمالنا إلى أمد طويل باعتبارنا لسنا من مواطني أحد البلدان الثمانية على أقل تقدير، فيجب البحث عن برنامج سياسي يتفق ومستوى التطور الذي بلغته بلادنا، والمهام المطروحة للارتقاء بمستوى التطور المذكور إلى درجة أعلى، ومحاربة العودة إلى الوراء التي جرت في أكثر من ظرف، وفي أكثر من مجال، ومحاربة المراوحة في المكان.

وفي المقابل، لم يكن كل ما كتبه فوكوياما نافلاً، إن كان في مقالته أو في كتابه عن «نهاية التاريخ» معتبراً أن هزيمة الاتحاد السوفيتي وأيديولوجيته الماركسية تفتح الباب واسعا أمام الرأسمالية، لتصبح هي «دين الإنسانية» إلى أبد الآبدين. وبهذا يلتقي، ولو جزئيا، مع ماركس وإنجلز في الاستشهاد الذي ذكرته قبل قليل. ويتضمن هذا الرأي أفكاراً علمية دقيقة للينين وردت في كتاب «خطتا الاشتراكية الديمقراطية في الثورة الديمقراطية» عام ١٩٠٦ مثل مطالبته بفتح أبواب ونوافذ روسيا على مصاريعها لدخول النظام الرأسمالي العالمي، لأنه لا سبيل إلى الاشتراكية إلا من خلال النظام الرأسمالي، وليس بتجاهله أو بتجاوزه حسب ما كان يطرح الشعبيون. وما كان صحيحا ودقيقا بالنسبة إلى روسيا في أوائل القرن العشرين، لازال صحيحاً بالنسبة للبلدان المتخلفة (النامية) ومن ضمنها بلادنا.

لم يكن كل ما كتبه فوكوياما نافلاً، إن كان في مقالته أو في كتابه عن «نهاية التاريخ»

هوامش:

(١) تامر جزماتي، الاشتراكية والشيوعية من ٥٠٠ ق. م إلى ما قبل ماركس، دار الكنوز الأدبية، بيروت ٢٠٠٠، ص ١٧.

(٢) كارل ماركس، رأس المال، م١، ق١، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٥، ص ٣٨٣.

(٣) محمد إبراهيم نقد، علاقات الرق في المجتمع السوداني، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٩٥.

(٤) أوغست كورنو، ماركس وإنجلز، حياتهما وأعمالهما الفكرية، دار الحقيقة، بيروت ١٩٧٦، م ٣، ص ١٩٧.

أمجد محمد سعيد

هل شممت رائحة التبغ الطازج.. أو رائحة الزيتون؟ هل تعرف قرى الشام واللاذقية..؟ إذن لا بد أنك قرأت «حكايات من قرية سَرْبيّون» ثلاثية سهيل خليل؛ الأديب السوري الذى غيّبه الموت قبل أسابيع عن أربعة وستين عاما؛ حرص - رغم إغواء العاصمة - أن يقضى ربع القرن الأخير منها قريبا من قريته «سربيون» التى عشقها وعاشها... ثم أذاب هذا العشق وهذا «العيش» حبرا فى ثلاثيته.

المحرر

حكايات من «سربيون»



** تنعقد أواصر القربى، بين الكائن والمكان، وتتفتح كل صباح: نافذة جديدة، من ذاكرة مليئة بالأحداث والصور والشخصيات، لتنسج الخيوط غير المرئية، بين حركة الإنسان وخطواته، وبين نمو خفى فى شكل المكان، وتأثيثه، بين تاريخية الوقت، وبين جغرافية القلب والذاكرة.

إنها علاقة جدلية تتأسس لا شعوريا، يوما بعد يوم، وساعة إثر ساعة، بينما ينحت فنان مجهول، مستتر فى أعماق النفس، ليجعل الفضاءات اللا نهائية، نيرانا تشتعل فى وعى الكائن، ويتحول إلى سيزيف، يحمل (مكانه) أينما حل وارتحل.

وحين يبدأ التطابق والتنافر، بين الكائن والمكان، مثل إشكالية العمق اللا محدود، لحب أسطورى بين عاشق وعاشقة، تتفجر بين لحظة وأخرى، عناصر التآلف والتباعد، عناصر الوثوق والشك، للواحد بالآخر، فى حركة لا نهائية، ولا فكاك منها، إلا بانتهاء أحدهما، والغياب القسرى للآخر.

المكان لدى مؤلف (حكايات من قرية سربيون) السورى سهيل خليل: هو ذلك القيد الذهبى الجميل، الذى تلقاه غير مختار، وهو الحتمية التاريخية لتكوين إنسان، يسمع نداءات البيت الأول، والدرب الأول، والشجرة الأولى، والنبع الأول، والصداقات الأولى، يشعر بدفء النار الأولى، والكأس الأولى.. فهل هو يحكى حكاياته، عن الكائن نفسه، أم أنه يسرد قصص المكان ؟ وهل هو حين يستعيد فلانا، يتذكر الحدث، أم صورة الحدث وإطاره، أم إشكالياته؟، إنها علاقات متشابكة: تشكل فى النهاية، إمكانية محتملة تستوعبها اللغة الأدبية، لتقدم الماضى على شكل دمعة حارة، أو بصورة نداء مأساوي، أو عبر سخرية مرة حزينة سوداء.

ضمن هذا التصور، فإن اللغة ستكون الحقل المغناطيسي، لكى تفجر العلاقة بين الكائن والمكان، وهل يمكن أن تعبر اللغة عن حالة خاصة بالمؤلف، إذا لم تكن اللغة عنده، تعرف أنها تعبر عنه بالذات، وليس عن أى شخص آخر.

وإذا كان هناك من يأخذ قصة (موت المؤلف) على محمل الجد، فكيف ستفرق اللغة بين المؤلف، أو الكاتب نفسه، وبين الشخص الآخر، الذى يعيش هو الآخر فى بيت قريب، فى القرية نفسها، سربيون، على جبال اللاذقية.

ستكون الإضافة هى التجربة الإنسانية بالطبع، وإذن: هى هذا الخليط العجيب، بين الكائن الإنساني، وبين الطبيعة، وبين اللغة، ولكل (خلطة) نتاج، وطعم، ورائحة، ولون، وإلا لكنا أصبحنا جميعا، ماء نبع يجري، بلا ذاكرة إلى موج البحر الشاسع.

والآن، إذ أقترب أكثر من نصوص (حكايات من قرية سربيون)، فى جزئها الثاني، أستطيع أن أقول إنها تجربة سهيل خليل الفريدة مع المكان، ولكنها ليست الفرادة نفسها، لتجربة آخرين مع المكان نفسه، ممن يعيشون فى قريته، لو تصادف أن كتب أحدهم عن القرية ذاتها، إنها تجربته هو، وإنها لجميلة حقا، إذ استطاع أن يحقق إنجازه الإبداعى المختلف، بعيدا عن نمطية الأشكال الأدبية المعروفة، وقريبا من رائحة أصابعه ذاتها، تلك التى تحسست بدايات انبثاقه من رحم المكان، الذى إن لم يكن قد أنجبه كطفل، فى قرية سربيون، لكان أنجبه كغصن شجرة زيتون، أو عشبة على حافات الطريق الجبلى، المؤدى إلى بيته، أو ربما كطير اصطاده أحد أصدقائه، يوما ما، واستمتع بشيه، وأكله، على مائدة شراب.

وإذا كان التراب فى قرية سربيون هو الأصل فيها، كما فى أية بقعة من العالم، فإن كل تلك الأجيال التى جاءت، وذهبت، إنما هى نتاج هذه الأرض، وسنعرف مشروعية أن يوصى أحدهم، بدفنه جنب أمه أو أبيه، أو فى قريته، أو مدينته، أو وطنه، ذلك أن التراب الذى تكون منه الدماغ، هو



الوحي بالوصية، وهو إن لم يتحدث باللغة الصوتية، فإنه يتحدث بلغة أخرى، ذات استشعار، عن قرب شديد، إنها الكتابة على رقيم من دم وجينات.

لكل عمل أدبي، عالمه، ولكل كاتب، أسلوبه، والعمل الأدبي يستحضر، وسائل التعبير عن نفسه، وكذلك وسائل التعامل معه نقديا، والتعرف على ملامحه وأبعاده، ومقترباته. فكتاب سهيل خليل، الذي يضم عشرات الحكايات، التي تذكرها عن حياة قريته، وسكانها، وطبيعتها، وعن علاقته بكل ذلك المحيط، أو التي استنبطها عبر كيميائية العلاقة، والمزاوجة بين الحقيقة والتوقع، بين الممكن والخيال، تمثل لنا شكلا خاصا، حرا، من الكتابة القصصية أو الذكريات الشخصية، أو ما يقترب من المقال الصحفي، ولكنه في كل الأحوال يخلق لنفسه، وسطا إبداعيا ينمو فيه، ويؤكد حضوره الفني، ويؤطر تجربته الإنسانية، التي سيخرج كل قارئ لها، بانطباع مختلف عن الآخر، فالنص هو نص القارئ، مثلما هو نص الكاتب، والقارئ الذي يطلع على طبيعة شخصية المؤلف، هو غير القارئ الذي يجهل حتى موقع القرية، لكن العمل الأدبي الناجح هو الذي يترك أثره لدى كل هؤلاء.

نعود إلى الحكايات نفسها، إذ إن لها مواصفات عامة، تجمعها، وهي، تكاد تكون مكشوفة وواضحة، فغالبيتها العظمى قصيرة مكثفة، مبتعدة عن الإسهاب، والتطويل، والاستطراد، وتدخل إلى موضوعها دخولا مباشرا وسريعا، وقد استفاد الكاتب من تكنيكه هذا، في تكثيف الحكايات، بإلباس الحكاية نمطا سرديا، يقفز على الوصف غير الضروري، وباستكمال توظيف المشهد، وتحقيق أكبر قدر من الانشداد، يصل إلى نهايته، بضرورة تحمل المدلول المعين، الذي يعبر عن حكمة أو سخرية أو احتجاج أو اقتراح أو موقف وما أشبه، من الأمثولات التي يرغب الكاتب، في إيصالها إلى المتلقي.

أما لغة الكاتب فقد كانت مزيجا من اللغة اليومية المباشرة أو الصحفية، ومن اللغة الأدبية الزاخرة بالاستعارات والكنايات والمحسنات اللفظية، ولغته الفصحى لغة راقية حيث باعه الطويل في ممارستها صحفيا وإذاعيا، وقد استخدم الكاتب جملا ومفردات شعبية وأمثلة دارجة، وقد اعتمد وسائل أخرى لتجسيد فكرته، مثل الحوار والاسترجاع، والاستشهاد بأقوال الآخرين.

وتبدو شخصية الراوي واضحة في هذه الحكايات، فهو يخاطب القارئ، أو يتحدث عن نفسه، والحكايات توشك أن تكون لقطات تذكارية للمؤلف، تشكل بمجموعها لوحة بانورامية تجسد المشهد برمته.

إن كتابة سهيل خليل عفوية، مقصودة في الوقت ذاته، مشاكسة وودودة، ساخرة سخرية سوداء، وحزينة حزنا لا يخلو من شعاع أمل، وأعتقد أن المؤلف لا يخطط كثيرا عند استخدام الحدث، قبل إدراجه كحكاية على بياض الورق، إنها تأتيه مباشرة فيسطرها بعد أن طرقت ذاكرته، وأجد أن فيه، بعض ملل، وكآبة، وسخرية من الواقع، تجعل عالمه الكتابي خاصا وجميلا. ※

سطور من الرواية

...واقول من القلب شكراً يا سربيون، شكراً لسربيون التي سأظل أكتب عنها وليس لي فضل في ذلك، لأن سربيون هي أمي، سربيون هي عيوني ونبض قلبي ولون دمي، فماذا أكتب عن الزواريب التي أحبت أقدامي صغيراً، ماذا أكتب عن خيم الريحان والمواقد، ماذا أكتب عن العجائز الطيبين الذين كانوا عطر الأرض ولون البحر، وأشعر الآن أنني ضعيف ضعيف، إنها سربيون التي أعشق، هي الدروب البيضاء والحواكير، وشجيرات التين ودوالي العنب، سربيون هي امرأة تضع يدها على خدها بانتظار أولادها الذين رحلوا، وهي ذكريات الزوج الذي مات وهو يبحث عن لقمة الزقوم، سربيون هي سراج الزيت الذي يبعث بضوئه الشحيح، سربيون هي موال عتابا حزين وأنة مريض، أذكرك الآن أيتها القرية التي أحب ولا يمكن لي أن أنساك، وهل يمكن للمرء أن ينسى سنوات الطفولة العذبة، كنت طفلاً في سربيون أجوب الزواريب والدروب البيضاء، كنت حالم العينين، كنت أمتص حليب العمر من ضرع بقرتنا عطيرة، كنت سعيداً بسواميك بيتنا الأربعة، كنت سعيداً بغناء أمي ومواويل أبي، كانت أمي تغني للذين هجروا الحاكورة والدوارة، وكان أبي يشدو بمواويل عتابا عن أصدقاء عمره الجميل الذين رحلوا. وكانوا كثيرين، وكان أبي يبكي أحيانا عندما يتذكر الأيام القاسية التي عاشها في مغارة بيت الوادي، وكانت تلك المغارة مأوى لعدد كبير من أهل قريتنا حين يسوقون قطيع أبقارهم إلى سهل «حريصون». ولم يكن في ذلك السهل شجرة واحدة، إلا بلوطة نهر السن، كانوا يجتمعون تحتها لتناول طعامهم، وكان الطعام.. لم يكن طعاماً بل كان خبز شعير وذرة، وعاشوا ونموا رغم أن الحياة ضنينة، قال أبي ذات صباح: كنت أطلب من أمي أن تلف لي «عضوضة» زيت.. فتقول لي: لفها.. ومن يراك يظن أنك تأكل عضوضة زيت، وتمر الأيام مات أبي وماتت أمي، ومات العديد من عجائز قريتنا الطيبين، وظهر الجيل الجديد من أطفال «السيريلاك» واختفت القنابيز البيضاء والسراويل، وصرت أرى سراويل «الجينز» والشباب بسوالفهم الطويلة، وبدأت السيارات الفارهة تتهادى على طريق قريتنا، كانت سيارات بلا قلوب، ولم يبق في قريتنا رجل يملك قلباً.. أجلس الآن وحيداً أضع يدي على خدي، واستعيد صورة قلبي الذي تركته على التلال...!! »

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

Abecedario completo del codice albeldense

أبجديات المخطوطات القديمة الكاملة لالبيلدينسي

Camacho Marote, Valle Navas, Sanchesz Emiliano
50 pp. euro 30
Ediciones Emilianenses
2008



مخطوطات البيلدينسي أو بيخيلانو مكتوبة بحروف قوطية لعام ٩٧٦، حيث إنها تضم مجموعة لمجالس إسبانية وأجنبية وقوانين قوطية، وتشريعات مدنية مستخدمة بإسبانيا حتى القرن الثالث عشر.

ثم طبعت بعد ذلك في دير سان ميلان دي كوجويا (لعام ٩٦٢) ولكن مع المزيد من التغيرات والتزيينات.

يتكون كتاب «الأبجديات» من ٢٣ حرفا أبجديا في فترة المخطوطات القديمة لإلبادينسي وبخيلانو، وتسعة أرقام هندية عربية، سجلت لأول مرة في هذه المخطوطات القديمة حيث إنها مكتوبة من اليمين إلى الشمال وصورة ذاتية للناسخ بيخيلا Vigila.

Largas noches con Flavia

ليال طويلة مع فلافيا

Amir Valle 224 pp. euro 15
Almuzara. 2008



لقد تم ذبح ثلاثة أشخاص إسبانيين في هافانا كعقاب، حيث إن تجار المخدرات الأقوياء اعتبروا أن من الغباء أن يضعوا أعمالهم التجارية المربحة في خطر.

فجمع كل من الرجل المسن Alex Varge مع قائد البوليس Alain Bec كل قوتهم لحماية الناجية الوحيدة : فلافيا، فتاة جميلة من مدريد، معرضة أيضا للموت في أي لحظة إن وقعت في أيدي هؤلاء الأشرار المجرمين ورئيسهم الكبير حيث إنه له علاقات وثيقة مع السلطات العامة والمحلية بالجزيرة.

الأسلوب الفظ الذي يستخدمه أمير بايي، يجعلنا نشعر بقسوة غير عادية في هذه الرواية التي تكشف عن أسوأ جانب لمجتمع يحكمه كاسترو. فالكلاسيكية السوداء للرواية تصحبها الصورة القاسية لمجتمع كوبا في بداية الألفية والأشكال الجديدة للإجرام التي ابتليت بها.

أمير بايي شأنه كشأن غيره من الأساتذة المبجلين، يعرف أن يوظف تسلسل الأحداث التاريخية ليصوغ بشكل روائي، القصة الخيالية القائمة على وقائع حقيقية، حيث إنها جديرة لتكون أفضل أنواع الرواية الواقعية التقليدية.

NUDO DE SANGRE

عقدة الدماء

SANCHEZ VIDAL, AGUSTIN
500 pp. $ 34.88
ESPASA-CALPE, S.A. 2008



تتحدث هذه الأسطورة أنه بعد ثلاثة عقود حاول الإنكيون مقاومة وحشية الإسبانيين في مدينة بيلكابامبا «Vilcabamba» المدينة المفقودة التي خسرها الإنكيون دون أن يدري أحد عن المكان الذي يخفون فيه كنوزهم «ذهب بيرو». ولكن الطمع الإسباني ظل يبحث عن طريقة للقضاء على حياتهم الغنية والمترفة.

طور المؤلف سانشو بيدال عقدة القصة التي مابين التاريخ والأسطورة إلى قصة حب بين الإسباني سيباستيان دي فونيسكا «Sebastian de Fonesca» والأميرة الهندية «أومينا» «Umina» : التي من أصل إنكي حيث تقع أحداثها في القرن الثالث عشر. فالكثير من الغموض الذي يحوم حول عائلة سيباستيان العريقة والتعقيد الذي يقصة الحب يرجحان أن هناك شيئا غامضا بين أسلاف عائلتي سيباستيان والأميرة الهندية. ولكن لا أحد يعرف لأي مدى ستتطور هذه الرواية «عقدة الدماء». فهي رواية مسلية وسهلة القراءة وممتعة.

فقد حازت هذه الرواية جائزة «بريمابيرا» «Primavera» ليس لجودتها ولكن أيضاً لأنها استطاعت أن تجذب الكثير من القراء كما إنها الرواية الوحيدة في هذا البلد التي حازت جائزة «Herralde de Angramma».

Los Incas أو الإنكيون هم أهل بيرو الأصليين.

LA PIEDRA REDONDA

الحجرة المستديرة

Manuel F. Ramos
EDICIONES ATLANTIS
262 pp. $ 55.23



تعتبر «المائدة المستديرة» كوميديا سوداء، تحكي لنا عن المستقبل البعيد والحاضر في آن واحد.

فقصتها عادية تتحدث عن تحول رجل شجاع إلى رجل ذليل، فيصبح كبش فداء لصراع السلطة، مما يعطي مساحة لأحداث خيالية وطريفة.

فالرواية رغم أنها تتحدث عن القرن التاسع والأربعين، إلا أن بها الكثير من حاضرنا: كالفرقة الغنائية Operacion Triunfo، والوزارات غير المفهومة، الفساد، الصراع على السلطة وقيم ضائعة، وتحكم التكنولوجيا في المجتمع ..... إلخ.

المؤلف يجعل القارئ يواجه عالما مختلفا بدون موسيقى ولا كتب ولا ثقافة ولا مجرمين إلى أن يدخل البطل في المشهد حيث يتحول من شجاع إلى ذليل في وقت قصير. وعند افتتاح صندوق الباندورا وإخراج الحجرة المستديرة التي به إلى النور، تدخل الكثير من المواقف الغريبة والاغتيالات وسلسلة من الحماقات في الأحداث لهدف واحد فقط ألا وهو تسليتنا، حيث تجعلنا ننسى همومنا التي بنا جميعاً.

ملحوظة:

- «الباندورا» هي امرأة أسطورية بعصر اليونان، ساعدت الآلهة، فوهبوا لها الكثير من الميزات الشريرة التي تنفرد بها، فتميزت بالجمال والشر، فصندوق باندورا يطلق كل الشرور الإنسانية عند فتحه، تاركاً أملاً واحدا عند إغلاقه.

Diez poetas, diez músicos

عشرة موسيقيين وعشرة شعراء

Clara Janès Luis Alberto de Cuenca
Eli Galán 136 pp. euro 18
Calambur, 2008



ليس من الغريب أن يقوم مؤلفون موسيقيون بتأليف موسيقى لأشعار الشعراء من جيل ٢٧ في عصرهم.

حيث إن في العقود الأخيرة عاشت الموسيقى والشعر جنباً إلى جنب . فهذا الكتاب والأسطوانة من أجل إشادة الالتقاء بين الموسيقى والشعر، عن خلال الشعراء المبجلين والوعود الجديدة التي بين الموسيقيين والشعراء، حيث إن كل مؤلف موسيقي يأخذ سبعة أشعار لنفس الكاتب ويختار من بينهم للتلحين.

لقد قدمت الحفلة الموسيقية لأول مرة في كلية الفنون الجميلة بمدريد . يرفق بهذا الكتاب، إسطوانة CD ويحتويان على كل من النصوص الشعرية والحانها الموسيقية.

الشعراء حسب الظهور في هذا الكتاب : ماريا فيكتوريا أتينثيا، أنطونيو كوليناس، لويس البيرتو دي كوينكا، إيليا جالان، أنطونيو جوميثيدا، فيليكس جراندي، كلارا خانيس، خوسية خيمينيث لوثانو، فلنيس بيريث ساكيو وديجو بالبيردي دي بيانا.

ومن الموسيقيين : رامون بارثي، زاليمة دي لا كروث، كارلوس كروث دي كاسترو، كونسويلو دييث وجاكوب دوران لوريجا، كارلوس جالان، توماس ماركو، كلاوديا بريتو، خوان مانويل رويث، ومبرسيدس زافالا.

AL-ANDALUS DE LA INVASION AL CALIFATO DE CORDOBA (HISTORIA DE ESP A ͂NA TERCER MILENIO)

إلى غزو الأندلس إلى خليفة قرطبة (تاريخ الألفية الثالثة لإسبانيا)

SALVATIERRA CUENCA, VICENTE y CANTO GARCIA, ALBERTO
268 pp. euro 18.50
EDITORIAL SINTESIS, S.A 2008



ما بين ٧١١ و٧١٩ م. غزى العرب والبربر مملكة القوط في إسبانيا وحطموها، لتكون بداية لبناء الأندلس. فهذا الكتاب يحلل بعض البيانات السياسية والاجتماعية والثقافية والمادية منذ بداية الأندلس مروراً إلى أصعب أزمة التي حلت ببداية القرن الحادي عشر والتي فيها وصلت سياسة المسلمين إلى أوجها بشبة الجزيرة الإسبانية . بالإضافة إلى آخر التطورات والأبحاث والنظريات حول أوضاع المسلمين بالأندلس.

٭

Siete Cuentos imposibles
سبع قصص مستحيلة

Argüello Javier
176 pp. $ 77.22
Barcelana



السبع قصص خيالية ونوع جديد ونموذجي، فهذا نوع أبتدعه كل من Poe, Maupassant, Borges, Cortazar.

يمتاز أسلوب هذه القصة بالوضوح والدقة والفعالية، فيحكي المؤلف لنا عن قصص مزعجة وصاخبة مثل قصة الرجل الذي يعتقد أنه يكتب قصة في حين أن هذا الرجل في الحقيقة ليس إلا شخصا من قصة أخرى تقع في شبكة قصص أخرى خيالية، أو القصة قبل الأخيرة التي تعتبر من أروع القصص السبع حيث تحكي عن كاتب ينفي نفسه خارج زمنه ويسافر للمستقبل ليتحقق من دخوله بالفعل في القصص الأدبية، فهي قصة داخل قصة أخرى، حيث يبتعد فيها الكاتب عن القصص الكلاسيكية ليغزو حياة الشاب المسافر للندن والذي يتقابل معه ليتحقق من خلوده.

حاز Argüello Javier على جائزة Paula عن إحدى قصصه في شيلي، كما كرمه كتاب مثل Enrique Vib Matus و Ignacio Martine de Pisón كدليل على إنه من الشباب الموهوبين العباقرة والمؤثرين في الأدب الإسباني المعاصر حيث إنه يتمتع بموهبة خاصة وخيال واسع مما يجعل حياته المهنية بلا شك باهرة النجاح.

٭

El navegante Dormido
البحار النائم

Abilio Estavez
384 pp, euro 19



في أكتوبر ١٩٧٧ ببيت قديم وكبير من خشب حيث يقع بالقرب من بلاج هافانا، فسيدات هذا البيت الذين من عائلة Godínez، يقومون بغلق الأبواب والشبابيك بإحكام مستعدين لمواجهة إعصار مدمر .

فهذا المنزل المصنوع من القش بالنسبة للساكنين فيه كأنه إرث غير متوقع من الدكتور Samuel Reefy، فالجميع الذين كانوا يتعايشون لخدمته امتد عمرهم لعدة أجيال، كالخادمة العجوز Mamma التي هربت من العبودية و Andrea أندريا الصامتة بسبب فقدان بعض من أبنائها، ورئيسة الجنائنية بالترشيا Patricia التي تعتني بالحيوانات الأليفة و olivero المهموم بحياته الماضية، ميمو Mimo عازف الجاز والشباب الذي يلعن المدينة ويرى الشمال كأنه أرض الميعاد .

جميعهم واقفون في انتظار شيء ما سيحدث سواء كان مزعجا أو مفيدا، فهذه الحياة المليئة بالأسرار والأحداث المؤلمة والمأساوية وأحداث ماضية تخرج للنور عند مرور الإعصار بها .

يأتي شاب لديه ٣٠ عاما يدعى Valera باليرا، ليروي أحداث أيام أكتوبر من ابتعاده إلى الجانب الغربي لنيويورك، متأمل الثلج المغطى في Hudson ، فيتذكر كيف كان يرى ابن عمه Jafet خافيت المليء بالشباب والحيوية، يستمتع بالهدوء وبضحة بقارب Myflower، قبل هبوب العاصفة للهروب عن الجزيرة الشمال .

هذه الرواية التراجيدية يدعمها إيقاع سردي كما إنها دعاية رائعة للأشخاص الذين جسدوا جزءا من تاريخ كوبا .

تعتبر هذه الرواية تشل أدب أمريكا اللاتينية، فهي أقوى ثلاثة روايات للروائيين مهمين بأدب أمريكا اللاتينية.

٭

El paseo Millionario
فسحة المليونير

Roberto Tejeio
$ 26.30
Madrid, 2008



ستحدث الرواية عن فترة ٢٠٠٧ بكولومبيا، حيث فسحة المليونير هو لقب كولومبي معروف يعني الخطف السريع، ولكنه تحول لمعنى آخر وهو الخطف غير المعتاد أي الخطف على المدى الطويل، فيحكي عن رجل أعمال إسباني مشهور يدعى خابيي أريثو تم اختطافه في حي Bogota بكولومبيا حيث بغرفة مغلقة النوافذ التي تم فيها تكبيله بأسفل السرير، رئيسة العصابة لهذا الاختطاف تدعى Yerma، وهدفها هو الحصول على فدية والخام خابيي أريثو .

ولكي تحقق ما تتمناه استغلت بإغراء دكاوهة الخارق وبدون احساس منها بالذنب لإغواء Jaime وصديقته Nuria، التي حاولت أن تعمل كل ما يلزم للتحرر منها .

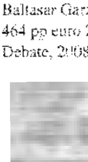
وظف الكاتب الشخصيات بمهارة، في حس دقيق للإيقاع السردي .

أعطانا الكاتب روبيرتو تيخيو رواية بها مشيرة لتغزو الدراما الحالية، كالمختطفين الأجانب الذين أحيانا يسجنون لمدة سنوات أو أن يتم بيعهم في الأسواق كالبضائع.

٭

La Línea del horizonte Una Cronica Intima de Nuestro tiempo
خط الأفق «التأريخ الداخلي لعصرنا»

Baltasar Garzn
464 pp euro 25.9
Debate, 2008



ما هي العدالة الاجتماعية وكيف تنشأ ؟ وكيف نستطيع الدفاع عن الحقوق الإنسانية ونضمن احترام حقوق الضحايا الذين عاشوا بمرحلة هشة منتقلين إلى مرحلة الديموقراطية؟ و ما هو المستقبل التي تنتظره أمريكا اللاتينية ؟

ما بين ٢٠٠٥ ، ٢٠٠٦ قام بالتاسنر بمرحلة استكشافية عندما كان يعمل مدرسا بجامعة نيويورك حيث إنها الفترة التي بها طرح هذه الأسئلة وأسئلة أكبر للعالم من خلال دورة مناقشات شارك فيها من جميع أنحاء العالم بدءا من Kissinger, Ernesto Zedillo حتى Felipe Gonzalez, John Kerry, Antonio Mo?oz Molina, Rose Diez, Jose Saramargo, Zapatero.

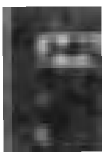
فهذا عمل قائم على حوار به كثير من الذكريات ونوادر الأشخاص .

ينظر القاضي جارثون في أهم القضايا مثل الإرهاب والأمن ومستقبل الاتصالات والاقتصاد ومستقبل أمريكا اللاتينية.

٭

TERRITORIOS EN RED: PRACTICAS CULTURALES Y ANALISIS DEL DISCURSO
الأقاليم في شبكة: الممارسات الثقافية والتحاليل الخطابية.

Susana y Diaz. Andrea Gon
256 pp. $ 28.36
EDITORIAL BIBLIOTECA NUEVA, S.L., 2008



رواية الأقاليم في شبكة تتكلم عن الممارسات الثقافية والتحاليل الخطابية التي تبحث عن فكرة الدور الذي يمكن أن تلعبه الإنسانية في القرن الحادي والعشرين عندما تكون الحالة خطيرة حيث تجتمع بها النظم الإنسانية في مجتمع يهيمن عليه التقدم التكنولوجي بشكل متزايد، في مواجهة الأشياء القديمة غير المؤهلة لما بعد الحداثة، والتي تقوم على أنها نسب متنوعة ليس لها أهمية، يؤيد الكتاب نظريات ما بعد التقدم التي تشير لشيء مختلف وليس بعد، بمعنى أنها تشير لحالة أخرى من منظور قراءة التنمية الثقافية، فيطرح الكتاب أنه عند صياغة مفردات نظرية الخطاب، يصبح الفكرة في تحاليل العلاقات (اللاوعي) التي يدعم فيها الخطاب بالقوة ويفتح بها المساحة اللازمة لتطوير خيارات (الوعي) الاختراع والتغيير. يحتوي الكتاب على إسهامات كل من : Carlos Hernández Sacristán, Maria Grazia Profeti, Gustav Siebenmann, Julio Calvo, Emilio Manzotti, Beatriz y Elena Gallardo, Ver?nica Moreno Campos, Santos Zunzunegui, Elena Lápez Riera, Federica Rossi y Gabriel Sevilla Llisterri.

٭

Desert Songs: A Woman Explorer in Egypt and Sudan
أغاني الصحراء: امرأة مستكشفة في مصر والسودان

Arita Baaijens

أريتا باجينز

American University in Cairo Press, 2008, 144pp., $39.95



تخلت باجينز عن مهنتها كمتخصصة بيئية منذ قرابة عشرين عاماً، وراحت منذ وقتها تسبر صحراوات مصر والسودان بصحبة قافلة صغيرة من الجمال. تروي باجينز في «أغاني الصحراء» قصة ولعها بالصحراء، مكان تضمر له كل الحب والخشية. قد يلفي القارئ الكتاب في أحد جوانبه قصيدة غنائية منظومة في حب الجمال والمشاهد الخلابة والآفاق والبدو والاستكشاف، بيد أنه من جانب آخر قصة عن رحلة داخلية، شعيرة من شعائر البلوغ، إذ يدور الكتاب حول مغامرة عالم تمهده كي تغامر بالولوج إلى المجهول حيث تكتشف قوتك الحقيقية. ما مدى قوتك عند غياب البدائل؟ أين تكمن حدودك؟ تنطلق باجينز في رحلة لاكتشاف الذات في ممرات جسدية قاسية بغية العثور على الأجوبة. إن التجربة تغيرها إلى الأبد.

أريتا باجينز مؤلفة ومصورة وزميلة في الجمعية الجغرافية الملكية. نشرت عدة كتب حول رحلاتها في الصحراء. وبين الرحلة والأخرى تعيش في أمستردام بهولندا.

❀

The Golden Chariot
العربة الذهبية

Salwa Bakr
translated by Dinah Manistry

سلوى بكر
ترجمة: داينا مانستري

American University in Cairo Press, 2008, 208pp., $17.95



تعقد عزيزة العزم على خلق عربة ذهبية لتحملها من زنزانتها في سجن النساء إلى الجنة حيث ستتحقق كل أمانيها وأحلامها. وبينما راحت تتأمل فيمن ستأخذهن معها، تسرد قصص حيوات زميلاتها السجينات وتحدد في قرارة نفسها من تستحق منهن الركوب معها مجاناً لبلوغ الفردوس. إن تعليقات عزيزة الصريحة القاسية حول صديقاتها وجرائمهن المتباينة - بما فيها القتل والسرقة وتجارة المخدرات - تنسج تلك الحكايات نسجاً لتستحيل الرواية إلى ما هو أشبه «بألف ليلة وليلة» معاصرة.

تتخذ رواية بكر نبرة تتلون بالسخرية والتشاؤم حين تجتمع عدة نساء من خلفيات مختلفة، بعضهن بريئات والبعض الآخر مذنبات، في جناح واحد بالسجن. وهنا يصور قلم بكر الحياة في عمق الثقافة المصرية معجباً بمرونتها في مواجهة الفقر وعدم المساواة، وبريبة لا ريب فيها في سقط المتاع المستورد، يتضارب الاستهلاك الغربي مع الثقافة الوطنية. إن بكر تفتح في هذه الرواية باباً سحرياً يسعنا من خلاله أن نبصر خلل مجتمع يطاله التغيير، وإلى ما وراء قصص الجريمة، نلمح توقاً واشتياقاً إلى حياة أفضل ومشاكل تواجه أفراداً يعجزون عن تحقيق أحلامهم بوسائل شريفة.

أصدرت سلوى بكر سبعة مجلدات من القصص القصيرة (من بينها «كيد الرجال»، دار نشر الجامعة الأمريكية في القاهرة، ١٩٩٧) وسبع روايات (من بينها «البشموري»، دار نشر الجامعة الأمريكية في القاهرة، ٢٠٠٧) ومسرحية واحدة. ترجمت أعمالها إلى تسع لغات.

تخرجت داينا مانستري من قسم اللغة العربية بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية عام ١٩٨٩ وحازت شهادة الدكتوراه عام ١٩٩٣ بأطروحة عن رواية «امرأة في مصر». درست الترجمة من العربية إلى الإنجليزية في جامعة تونس وتعمل حالياً أمينة مكتبة للمجموعات العامة بمعهد الدراسات الإسماعيلية بلندن.

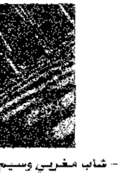
❀

The Final Bet
الرهان الأخير

Abdelilah Hamdouchi
Translated by Jonathan Smolin

عبد الإله الحمدوشي
ترجمة: جوناثان سمولين

American University in Cairo Press, 2008, 156pp., $17.95



يعود عثمان - شاب مغربي وسيم - إلى بيته ليكتشف أن صوفيا - زوجته الفرنسية العجوز - مقتولة بوحشية في غرفة نومهما. تلقى عثمان تعليماً عالياً، ومع ذلك أصبح عاطلاً لا سبيل إلى توظيفه. كابد عسراً يائساً قبل أن يلتقي بصوفيا التي دللته بالسيارات الفارهة والملابس الغالية وحرية استعمال قصرها الكائن في أكثر الأحياء أناقة بالدار البيضاء. غير أنه لم يطق الحياة مع امرأة تكبره بأربعين عاماً؛ فقبل مقتل زوجته سعى إلى العزاء بإقامة علاقة ساخنة مع مدربة إيروبيكس جذابة، نعيمة. ما لبث رجال الشرطة المغاربة أن سلطوا شكوكهم على عثمان باعتباره المتهم الرئيسي في جريمة قتل زوجته. لكن هل هو مذنب؟ هل قتل زوجته طمعاً في الأموال والعشيقة؟ أم أنه رجل بريء ورطته الظروف وشرطة تترع بالحماسة المفرطة والوحشية. وعلى الرغم من بساطة الرواية، وكذلك سذاجتها مقارنة بحكايات الجريمة الأمريكية والأوروبية، سوف تجعلها ظروفها مثيرة لخيال القراء. إن رواية الحمدوشي هي أول رواية بوليسية تترجم إلى الإنجليزية ليصل الحمدوشي إلى مرتبة ياسمينة خضراء وهينينج مانكيل جالباً الرواية العربية المعاصرة إلى ساحة الأدب البوليسي العالمية.

عبد الإله الحمدوشي واحد من أوائل كتاب الرواية البوليسية باللغة العربية. ألف ثماني روايات وفاز بالعديد من الجوائز عن سيناريوهات كتبها للتلفزيون والسينما المغربية. أنتج التلفزيون المغربي كل رواياته البوليسية بما فيها «الرهان الأخير». يعيش الحمدوشي في الرباط بالمغرب.

جوناثان سمولين أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية دارتموث.

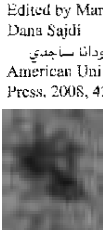
❀

Transforming Loss into Beauty: Essays on Arabic Literature and Culture in Honor of Magda al-Nowaihi
تحويل الخسارة إلى جمال: مقالات في الأدب والثقافة العربية تكريماً لماجدة النويهي

Edited by Marlé Hammond and Dana Sajdi

تحرير: مارليه هاموند ودانا ساجدي

American University in Cairo Press, 2008, 432pp., $34.95



يتضمن المساهمون في هذا العمل الشامل التحليلي معلمين للراحلة ماجدة النويهي وزملاءها وأصدقاءها وطلابها. كانت النويهي عالمة باحثة في دراسات الشرق الأوسط، وقد ألهمت اهتماماتها المتنوعة وطاقاتها المتشعبة العديد من الزملاء. يكرس الكتاب جزءه الأول للمرثاة العربية، موضوع عمل لم تتمكن النويهي من إنهائه. كما يشمل محاضرة عن المرثاة ألقتها النويهي دون أن تنشر في كتاب. يتبحر مساهمو الكتاب هذا الشكل الشعري في سياقاته الكلاسيكية والمعاصرة من عدة زوايا من بينها النسوية المنحازة للنوع الأدبي ليصير هذا المجلد واحداً من أشمل المصادر الإنجليزية حول المرثاة العربية. يصور الجزء الثاني من الكتاب مقالات تتعلق باهتمامات النويهي الأخرى ولا سيما الرواية العربية المعاصرة ووضعيتها المهمشة في الأدب. تتناول المقالات شتى المؤلفين من أمثال توفيق الحكيم ولطيفة الزيات وبن سالم حميش وصنع الله إبراهيم.

يتسم الكتاب «تحويل الخسارة إلى جمال» برحابة المدى ودقة البحث، وهو بذلك تقدمة ملائمة لباحثة أصيلة. يشمل الباحثون روجر آلان ودينا أمين ومايكل بيرد وجوناثان بي. ديكتر وألجزاندر إي. إلينسون ومارليه هاموند وميرفت حاتم وولفهارت هاينريكس وريتشارد جاكموند وليتال ليفي ومارا نامان ودانا ساجدي وكريستوفر ستون. ثمة جائزة باسم ماجدة النويهي لطلاب الدراسات الجندرية تمنح منذ عام ٢٠٠٣ لمكافأة رسائل المتفوقين من خريجي الجامعة الأمريكية في القاهرة.

حصلت مارليه هاموند على شهادة الدكتوراه من جامعة كولومبيا، وقد عملت زميلة باحثة في الشعر العربي والنقد الشعري المقارن بكلية سانت جون بأكسفورد من عام ٢٠٠٢ وحتى عام ٢٠٠٦. أما دانا ساجدي فقد تلقت شهادة الدكتوراه من جامعة كولومبيا، وهي الآن زميلة في كلية العلوم الإنسانية ببرلين. حررت كتاب «التوليب العثماني، القهوة العثمانية: وقت الفراغ وأسلوب الحياة في القرن الثامن عشر».

❀

The Sage of Seville: Ibn Zuhr, His Time, and His Medical Legacy
حكيم أشبيلية: ابن زُهر عصره وإرثه الطبي

Henry Azar

هنري عازار

American University in Cairo Press, 2008, 204pp., $27.50



يقدم عازار سرداً لحياة أشد الأطباء تأثيراً في أسبانيا المسلمة خلال العصور الوسطى، ابن زُهر، أهم أطباء أسبانيا

أثناء القرن الثاني عشر. اعتزت عائلته بتخريج ستة أجيال من الأطباء كما تضمنت قابلات وقضاة وشعراء ووزراء. يمثل كتابه «كتاب التيسير» خلاصة واقية لعلم المداواة. وقد تمت ترجمته إلى اللاتينية والعبرية: أعتبرت نسخته اللاتينية تتمة لكتاب «الكليات» وهو كتاب نظري للفيلسوف والطبيب ابن رشد. استعان الطبيب والحاخام موسى بن ميمون باستشهادات مطولة من مؤلفات ابن زهر وعده «فريداً بين أطباء عصره وواحداً من الحكماء العظماء». بيد أن ابن زهر لم يكن مجرد مراقب حاد الحواس لمرضاه ومركباً بارعاً للأدوية. ففي ثنايا حكاياته الجافة تضيع ذكريات لا تخلو من صراحة وآراء حول شتى المواضيع الاجتماعية. يمكن كذلك مقارنة وصفاته الطبية بأشكال الطب البديل الحالية.

إن مقاربات ابن زهر الكلية لعلم الطب بالإضافة إلى مقالاته التلقائية الموجزة تجعلانه واحداً من أكثر الأطباء تجديداً في كل العصور. وهنا يكشف هذا الوصف الفريد من نوعه لإرث ابن زهر النقاب عن طبيعة الرجل وأهميته في عالمه وصلته الوثيقة بعصرنا الحالي. ففي مقابل ثقافة عصرية لرعاية طبية غالباً ما تتسم بالتجرد والبيروقراطية والغلاء، يصبح مثال ابن زهر كحكيم لعصره ودوره كقسيس شاف مصدراً لإلهام القراء.

تخرج هنري عازار من كلية الطب بالجامعة الأمريكية في بيروت ونال شهادة الدكتوراه في التاريخ من جامعة نورث كارولينا، وهو الآن أستاذ فخري في علم الأمراض بجامعة ساوث فلوريدا.

✽

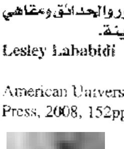
Cairo's Street Stories: Exploring the City's Statues, Squares, Bridges, Gardens, and Sidewalk Cafés

قصص شوارع القاهرة: سبر التماثيل والميادين والجسور والحدائق ومقاهي الأرصفة في المدينة.

Lesley Lababidi

ليزلي لبابيدي

American University in Cairo Press, 2008, 152pp.. $24.95



كان اسماعيل باشا خديو مصر أول من تبنى العادة الأوروبية التي تقضي بنصب التماثيل الضخمة أمام أعين العامة كرسالة رمزية بالهيمنة المتواصلة لسلالة أسرة محمد علي الحاكمة، السلالة التي ينتمي إليها. لكن تواكب مستهل القرن العشرين مع بزوغ نجم النحات محمود مختار مما أكسب هذا الفن العلني قبولاً جماهيرياً. والآن تنهض التماثيل أو تركب الأحصنة أو تتخذ مجالسها في شوارع القاهرة وميادينها وحدائقها. ويضيف كل تمثال قطعة إلى خليط تاريخي معقد يمتد ليتمل شخصيات وأحداثاً شكلت المدينة ومصر بأكملها منذ عام ١٨٠٥ إلى عام ١٩٧٠. وهنا تقدم لبابيدي المقيمة في القاهرة منظوراً فريداً عن التاريخ المصري من خلال التطلع إلى ما يربو على ثلاثين تمثالاً ومنحوتة تذكارية والقصص الكامنة وراءها. وفي غضون حكايات التماثيل تسبر تطور القاهرة وهويتها متعددة الأبعاد مثلما تتراءى في تشكل المساحات الفراغية بالمدينة وتغيرها خلال العقود. كما تسلط الضوء على العلاقة بين سكان القاهرة المعاصرين والمناظر الطبيعية والأحياء والقصور والمواقع الأثرية والمقاهي والجسور والحدائق في هذه المدينة العظيمة المجنونة، أم الدنيا. يستعين الكتاب بصور ملونة وصور أرشيفية ليزود القراء برؤية استثنائية تزخر بالحيوية لتاريخ صناع شوارع المدينة ومساحاتها المفتوحة والوسائل العديدة غير المتوقعة التي استخدمها بها سكانها الخلاقون.

ربت ليزلي لبابيدي ثلاثة أطفال في القاهرة كما ألفت كتاب «القاهرة: دليل الأسرة» وكتاب «لا صمت بعد اليوم: أصحاب الحاجات الخاصة في مصر»، وحررت آخر نسخة من كتاب «القاهرة: الدليل العملي».

✽

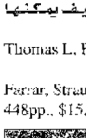
Hot, Flat, and Crowded: Why We Need a Green Revolution—and How It Can Renew America

ساخن ومسطح ومزدحم: لماذا نحتاج إلى ثورة خضراء - وكيف يمكنها تجديد أمريكا

Thomas L. Friedman

توماس إل. فريدمان

Farrar, Straus and Giroux, 2008. 448pp.. $15.37



لقد ساعد كتاب فريدمان «ساخن ومسطح ومزدحم» ملايين القراء على رؤية العالم بطريقة مختلفة. ففي هذا الكتاب الألمعي الجديد يتطلع فريدمان بعين نقية وإن لا يعوزها التحريض إلى اثنين من أكبر التحديات التي تواجهها أمريكا اليوم: فقدان أمريكا المدهش للتركيز والهدف القومي منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ والكارثة البيئية العالمية المؤثرة على كل المجريات بدءاً من الطعام إلى الوقود إلى الغابات. وهنا يرينا المؤلف في هذا الكتاب الرائد كيف يتصل حلا هاتين المعضلتين وكيف يسع الأمريكيون استعادة ثقة العالم وإنعاش أمريكا في ذات الوقت.

يشرح فريدمان قائلاً إن ظاهرة الاحتباس الحراري وأعداد السكان المتعاظمة والاتساع المذهل للطبقة الوسطى في العالم عن خلال العولمة أنتجت جميعها كوكباً ساخناً ومسطحاً ومزدحماً». فالأرض تتعرض بالفعل لمؤثرات تهدد بجعلها خطرة لا استقرار فيها. وبعد مرور بضعة أعوام، سوف يفوت الأوان لإصلاح الأرض - ما لم تتقدم الولايات المتحدة الآن وتترأس جهداً عالمياً لإحلال ممارسات مدمرة غير فعالة للحصول على الطاقة باستراتيجية لتوفير طاقة نظيفة إيجابية يطلق عليها فريدمان «الكود الأخضر». يؤكد فريدمان أن هذا تحد ضخم لكنه أيضاً فرصة عظيمة لا ينبغي أن تضيعها أمريكا. فالقيادة الأمريكية ليست فقط مفتاح شفاء الكرة الأرضية على حد قوله بل هي أفضل استراتيجية لتجديد أمريكا.

كذلك يوضح فريدمان للقارئ في فصول عملية مفعمة بالحيوية أن تلك الثورة الخضراء لا تشبه أياً من الثورات السابقة التي شهدها العالم. سوف تصبح أكبر المشاريع المجددة في تاريخ أمريكا - سوف تكون مهمة عصيبة، ليست باليسيرة. ستبدل كل شيء بدءاً مما تضعه في سيارتك وحتى ما تقرأه في فاتورة الكهرباء. إلا أن الفائدة العائدة على أمريكا لن تكون هواء نظيفاً فقط لا غير. فسوف يلهم المشروع الأمريكيين بالانخراط في شيء لم يعهدوه منذ زمن - تشييد الأمة - وذلك باستدعاء الذكاء والقدرة على الابتكار والجرأة من أجل صالح العالم.

إن «ساخن ومسطح ومزدحم» واحد من كتب فريدمان الكلاسيكية: لا يعرف الخوف، قاطع النبرة، مباشر الأسلوب، غني ببديهة تباغت القارئ حول إمكانية مواجهة التحدي والوعد بمستقبل أفضل.

توماس فريدمان مؤلف وصحفي شهير فاز بجائزة بوليتسر ثلاث مرات وسافر مئات الآلاف من الأميال ليغطي صراع الشرق الأوسط ونهاية الحرب الباردة والسياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية والأحوال الاقتصادية العالمية والتأثير الدولي للتهديد الإرهابي. يكتب عموداً سياسياً مرتين في الأسبوع بجريدة تايمز لينشر في سبعمائة جريدة أخرى حول العالم.

✽

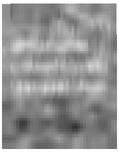
ChefMD's Big Book of Culinary Medicine: A Food Lover's Road Map to Losing Weight, Preventing Disease, and Getting Really Healthy

الكتاب الكبير للطاهي الطبيب حول طب المطبخ: خريطة طريق لمحب الطعام من أجل خسارة الوزن ومنع الأمراض وبلوغ الصحة الحقيقية

John La Puma and Rebecca Powell Marx

جون لا بوما وريبيكا باول ماركس

Crown, 2008, 320pp., $16.47



إن ما يمثله الدكتور أندرو ويل لطب الأعشاب والدكتور فيل لطب النفس التلفزيوني يقابله الدكتور جون لا بوما في مجال طب المطبخ. بعد سن الخامسة والثلاثين، وبعد تناول الكثير والكثير من الغذاء الأمريكي التقليدي، أصبح الدكتور لا بوما منتفخ الكرش! لذا قرر إجراء الأبحاث حول علم التغذية وقصد مدرسة للطهي لتعلم فنون الطبخ. فانتهى به الأمر إلى ابتكار مفهوم ثوري جديد «لطب المطبخ» - وصفات وأغذية ووجبات تمنع الأوضاع الصحية المتدهورة أو تتحكم فيها بدون التضحية بالمذاق اللذيذ.

الآن بإمكانك أنت الآخر تطبيق مبادئ طب المطبخ. ففي كتاب «الكتاب الكبير للطاهي الطبيب حول طب المطبخ» سوف تتعلم تجهيز كابينة مطبخك بكل ما هو مفيد واستخدام الطبيب الكامن داخلك وابتكار أطباق ستزودك بمنافع قد تنقذ حياتك في المستقبل ومذاق شهي بحق.

يقدم الدكتور لا بوما تفاصيل خطة مكونة من ثمانية أسابيع بهدف تحفيزك على تغيير حياتك. جرب المحار بالزعفران أو الجمبري، أو المكرونة بالمحار وجبن الماعز والريحان على طريقة أهل صقلية، أو السجق الحار الغني بلحم الفلفل الأحمر. كل من يحب الطعام ويرغب في الحصول على طاقة أكبر ويريد أن يعكس تاريخ عائلته الصحي أو يريد معرفة ما يمكن أكله ليظل معافى لا بد أن يطالع هذا الكتاب. فوصفاته ووجباته سهلة سريعة التحضير مخصصة لتختبر طعاماً شهياً وتنال طاقة وصحة تستمتع بها حياتك.

✽

رسالة البصائر في المصائر
جمال الغيطاني
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ٤٣٢ صفحة



تمثل المغامرة الإبداعية لجمال الغيطاني واحدة من أخصب المحاولات الأدبية التي قام بها عضو بارز من جيل الستينيات، وقد قام بها أديب جسور لم يقنع بتبني الأشكال الأدبية التي ورثها عن أسلافه، ولكنه بعد بداية تقليدية - وإن كانت لفتت الأنظار منذ وقت مبكر إلى موهبته، ونعني مجموعته القصصية: أوراق شاب عاش منذ ألف عام - ألقى بنفسه في محيط التجريب، الزاخر بالأخطار والتيارات العاصفة.

ستظل رسالة البصائر في المصائر من أبرز الأعمال الأدبية في الثمانينيات، التي أبرزت التحولات الكبرى في المجتمع المصري نتيجة الانفتاح الاقتصادي المشوه، وفي قطاع من المجتمع العربي نتيجة الثروة النفطية. بدأ الغيطاني الرواية بهذه العبارة الدالة «ما شاء الله كان»، ولكن تبقى حاشية لو فقدنا أسلوب المؤلف تتضمن سؤالا واحدا: ترى كيف الخروج مما نحن فيه؟ يؤكد الغيطاني بهذه الرواية أن الأدب العظيم، هو الذي يفجر من الأسئلة أكثر مما يقدم من الأجوبة.

■

تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس
خالد بن محمد مبارك القاسمي
القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٨، ١٦٥ صفحة



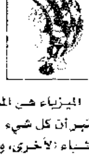
أقام المسلمون في الأندلس قرابة ثمانية قرون، شيدوا خلالها حضارة بقيت بعض آثارها قائمة إلى اليوم. وقد كانت القيمة الحقيقية لدولة المسلمين هناك، أنها قدمت نموذجا رفيعا للتسامح والتفاعل الثقافي المثمر، فلم يعرف تاريخ العرب هناك مذابح مثل تلك التي قام بها الغزاة الأوروبيون في إنطاكية والقدس وغيرهما، وتعترف مصادرهم بمذبحة راح ضحيتها ٧٠ ألف مسلم بينهم آلاف من النساء والأطفال في مدينة القدس، وحين دخل العرب الأندلس، كانوا قد هضموا ثقافات وحضارات الأمم السابقة وأضافوا إليها المبادئ التي كرسها الإسلام في نفوسهم، حتى إذا ما اندمجوا في هذه البلاد البعيدة الجديدة، راحوا يشيدون ويضربون بسهام علمهم وفنونهم في كل اتجاه، وأثبتت العالمة الألمانية زيجرد هونكة أن شمس العرب سطعت على أوروبا فأهدتها العلوم والمعارف وأسس الحضارة والتمدن، وكذلك أنصف هذه الحضارة أرنولد توينبي وجوستاف لوبون وآخرون، فماذا فعل الإسبان حين سقطت دولة العرب في الأندلس؟

حملات من الاضطهاد والقتل والوحشية قادها البابا الكاثوليكي نفسه ضد المسلمين، وهي التي عرفت في التاريخ الأوروبي بحملات التفتيش، حيث طُرد وشرد عدد كبير من المسلمين وأُجبر من بقي على التنصر، وشن الإسبان حرب إبادة شاملة ضد من بقي مستمسكًا بدينه حتى اضطروهم إلى الرحيل سيرا على الأقدام! عرف المسلمون هناك بالموريسكيين تمييزا لهم عمن سواهم، حرقت كتبهم علنا، وأجبر أطفالهم على تعلم أصول العقيدة المسيحية، وأقيمت الكنائس على أنقاض المساجد ودور العبادة الإسلامية، وحرموا من الدخول في النقابات والاتحادات العمالية، ومنعوا من ممارسة عشرات المهن التي اعتادوها.

هكذا رد الإسبان على تسامح العرب والمسلمين وعطاء الحضارة الإسلامية في الأندلس.

■

الميــزياء
حسن عجمي
بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٨، ١٥١ صفحة



الميزياء هي المذهب الفلسفي الذي يعتبر أن كل شيء يملك ميزة تميزه عن الأشياء الأخرى، وبفضل ميزاته يوجد ويتشكل، ويستند مبدأ الميزياء إلى قاعدة أساسية هي أن الشيء الذي يملك ميزات أكثر سيملك نجاحًا أكثر في البقاء والاستمرار، والميزة تختلف عن الصفة، فميزة الإنسان مثلاً أنه عاقل، لكن ما يفرق بين كل من يملكون هذه «الصفة» هي التمايز في استخدامها، أي أن الصفات تحكمها علاقات السببية، أما الميزات فتحكمها الأفضلية، وليس بالضرورة أن يتكون الشيء من ميزة واحدة، بل قد يتكون من ميزات عدة ومختلفة، والميزة تتبدل وتتطور، فمثلاً ميزة العقل كانت الحفاظ على النوع البشري في ظروف الصراع بين الإنسان والحيوان والطبيعة، لكن مع انتقال الإنسان إلى البيئة الاجتماعية تطورت ميزة العقل وتبدلت لتلبي احتياجات هذا الانتقال.

ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن لفظة فلسفية أخرى هي «التيمياء»، وهي التي تدرس الصفات المشتركة بين الأشياء المختلفة، فصفة البياض مثلاً قد يشترك فيها باب ونافذة ورجل وامرأة، والشيمياء هي التي تضطلع بهذه المهمة، وأما «الحيزياء» فالمبدأ الحاكم لها أنه يجوز للميزة أن تولد وتموت، لكن لا يجوز للشيء أن يوجد من دون ميزة، و«الحيزياء» هي المذهب الفلسفي الذي يعتبر أن كل شيء يتكون من حيزه، فأي شيء له حيز، ومن خلال حيزه فقط يتشكل.

في إطار عدد التعريفات لتلك المذاهب الفلسفية يتحدث المؤلف عن ميزات العقل وميزة الرياضيات والفيزياء وميزة الحقيقة وميزة الكون وميزة الدين وميزة الأخلاق وميزة الوعي والشعور وميزة البحث المعرفي وميزة الصناعة وميزة الكتابة وميزة الحرية وميزة الفوضى وغيرها، وكذلك عن شيمياء العقل والمادة والعلوم واللغة والبلاغة وغيرها.

■

أسرار التقدم والتأخر
طلح عبدالعزيز النقيلي
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨، ١٦٦ صفحة



يعيش المواطن العربي حالة مؤكدة من الإحباط واليأس، مردها هذا الشعور بأنه خارج العالم، وتأديا يطلق عليه أنه مواطن ينتمي إلى عالم نام، وهو يعرف أنها تسمية تخفي حقيقة تخلفه وتراجعه الحضاري والثقافي. فهل هذا التراجع والتخلف قدر لا فكاك منه، هل كتب عليه أن يعيش فيه إلى الأبد، هل هي مسألة مرتبطة بالجينات التي يتوارثها جيلا بعد جيل؟

المؤلف، وهو عالم أنثروبولوجيا قدير، ينفي تماما هذه الفكرة التي يسعى البعض للترويج لها من خلال أبواب خمسة: العرق والأعراق ويناقش من خلاله أصل الإنسان المعاصر ونشأة الأعراق وتصنيفها، منتقدا الآراء ذات الطبيعة الاستعلائية كما هو الحال في اعتبار نيتشه الإنسان الآري طويل القامة ذا الشعر الأصفر والجلد الأبيض والعيون الزرقاء هو السوبر مان الذي يجب أن تكون له السيادة على جميع البشر، فهي برأيه رؤية تعكس مشكلة ثقافية ولا ترتكز على أسس علمية بيولوجية.

ويناقش في الباب الثاني مفهوم اختلاف الثقافات من خلال عدة فصول: أسس البناء الثقافي في المجتمعات، اللغة والحياة، الفن والفنون، الدين، العلم والبحث العلمي، التكنولوجيا والتقنية، القيم والعادات والتقاليد.

ويتساءل في الباب الثالث: هل هناك خصوصية عرقية للثقافة؟ ويجيب بأن الكثير من المفكرين يتفقون على أن النتاج الثقافي لكل أمة يعكس تجاربها مع بيئتها الخاصة، وليس مرتبطا بالصفات الفيزيقية للبدن المميزة للأعراق، وينتهي إلى أن التكامل بين الثقافات هو المقدمة لمستقبل الإنسان الفكري، وهو الحقيقة الواحدة القابلة للتصديق، وأما التصارع والتصادم كما يمارسه الإنسان اليوم، فهو نشاط يعكس الطبيعة البيولوجية للإنسان، وسيطرتها أحيانا على تفكيره وتوظيف هذا الفكر في سبيل حفظ البقاء ولو على حساب الآخرين، وهو ما يعكس فقرا في الفكر وعودة إلى البدائية.

في الباب الرابع يطرح تصوراته لفكرة التقدم، منتقدا التصورات التي تربط ثقافة الشعوب بالمدخل المادي والمستوى الاقتصادي، وهي تصورات لا تعطي اهتماما كبيرا للجانب الروحي الذي يحدد أهداف الإنسان وغاياته، ويلبي احتياجاته المعنوية والنفسية.

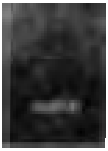
وفي الباب الأخير يتساءل من هو المصري، ومن هم العرب بيولوجيا، ويجيب من خلال شرح للروابط الثلاثة: اللغة والدين والعلاقة مع الغرب.

■

التربية والأيديولوجيا

شبل بدران

القاهرة: مركز المحروسة للنشر، ٢٠٠٨



يعالج المؤلف وهو واحد من خبراء التعليم في الوطن العربي، قضية بالغة الخطورة، وهي العلاقة بين النظام السياسي السائد، وبين التعليم كقيمة تربوية. فكيف يؤثر النظام بمكوناته المتناقضة والمتصارعة أحياناً، في العملية التعليمية، هل يوظفها لخدمة أغراضه، وتكريس الأوضاع السائدة، أم أنه حريص فعلاً على خلق نظام تعليمي قوي يرسخ قيم الحرية والديمقراطية، وثقافة حقوق الإنسان، ولماذا يلجأ إلى المنظمات الأجنبية لتمويل نظامه السياسي، وما الذي جرى في التعليم المصري منذ عام ١٩٨٥ وحتى عام ٢٠٠٧، وهي الفترة التي شهدت اضطراباً واضحاً في سير التعليم المصري، وخروج الجامعات المصرية من تصنيف الجامعات الأهم في العالم، هل الدور السياسي في إضعاف التعليم سبب في ذاته، أم أن انفصال التعليم عن الواقع، وعدم تحديد الهدف من العملية التعليمية، ماذا نريد بالضبط لخلق مواطن عصري، وعلى خلفية التعليم الذي تلقاه.

ولتوضيح فكرته قسم المؤلف كتابه إلى ثمانية فصول ليحيط بكل الأسباب والعلاقات المتشابكة بين التعليم والنظام السياسي، وكيف يعرس هذا النظام نوعاً من التربية يسهم في خلق مواطن مصري صالح من عدمه، فالإطار الذي يتحرك فيه النظام التعليمي وما يتخذ من سياسات واستراتيجيات وتوظيف للتعليم قد يجعل منه وسيلة لتحقيق أغراض أحد طرفين، طرف يجعله أداة لإعادة انتاج العلاقات القائمة من خلال مناهج تنتج نمط الشخصية المتكيف والمطيع والقانع والمنفصل، والمغيب الوعي، والمغترب، لكي ينسجم ويتسق مع أيديولوجية السلطة السياسية التي تسيطر على مقاليد الحكم، ويتخذ لذلك أساليب الترويض الفكري والإذعان والاستسلام والقهر وأحياناً ليضمن ما عرف بالوظيفة المحافظة للنظام التعليمي، ويصطنع في سبيل ذلك ما يراه مناسباً من أنواع المعارف ومتطلبات التفكير، وأنواع المقررات والامتحانات وغيرها من المناهج الرسمية، فضلاً عما يتخذه من مناهج وأساليب خفية مستترة ومتضمنة بين ثنايا العملية التعليمية والمناخ الدراسي.. والوقائع التي تدين نظام التعليم المصري في ذلك كثيرة وغير خافية واستدعى بعضها تدخل الرئيس شخصياً كما جرى مع الآلاء التي كتبت رأيها الشخصي في موضوع إنشاء في الامتحان، وكيف تزلزل المسئولون وحققوا معها، وما جرى مع التلميذ الذي كتب عبارة يشتم منها رائحة سياسية مثل جملة: شعب مظلوم وحاكم ظالم، وما جرى له ليس بعيداً عن الأذهان. وما خفي كان أعظم.

هل يعطينا تعليم كهذا مواطناً يصلح لأي شيء؟

وهل يمكن أن يكون التعليم، والقيم التربوية المتضمنة فيه نقيض ذلك: أي يحقق ما يصبو إليه الطرف الآخر سعياً للتحرر والإتقان والإبداع في سياق نظام سياسي اجتماعي ينشد دفع حركة التطوير المجتمعي، مؤكداً تنمية طاقات الفرد إلى أقصى ما يمكن أن تبلغه، ومستهدفاً تكوين الإنسان الواعي بذاته وبما حوله، وذلك بجعله كائناً فاعلاً قادراً على صناعة مجتمعه وتاريخه، وفي سبيل ذلك لا يتخذ من المعلومات المقررة إلا ما هو مادة لتنمية العقل الناقد والإرادة الفاعلة.

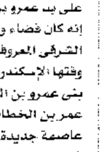
هذان الطرفان في النظر إلى العملية التعليمية شكلا صورتها فيما يزيد على خمسة وعشرين عاماً. يضاف إليهما ما تطلبه المنظمات الدولية من نوع محدد للتعليم المصري، تقدم بناء عليه معوناتها له. فكيف ستنتهي بنا الحال؟ د. شبل بدران يشخص المرض وكيفية علاجه في هذا الكتاب المهم الذي يأتي في سياق البحث عن نظام تعليم قوي للمجتمع المصري.

*

الفسطاط

خالد عزب

القاهرة: كتاب اليوم، ٢٠٠٨، ١٥١ صفحة



يبدأ المؤلف رحلة الفسطاط منذ النشأة، حين كان الفتح الإسلامي لمصر على يد عمرو بن العاص، ويقول المقريزي إنه كان فضاء ومزارع بين النيل والجبل الشرقي المعروف بجبل المقطم، وقد كانت وقتها الإسكندرية هي عاصمة مصر، ولكن بنى عمرو بن العاص الفسطاط بأمر من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين كي تكون عاصمة جديدة لمصر، وقد تضاربت الأقوال في سبب تسميتها بهذا الاسم، فمن بين الروايات التاريخية أن هذا الاسم مشتق من كلمة يونانية هي «فسطاطوم» أو كلمة عربية هي الفسطاط بمعنى «المدينة».

وكان أول ما فعله عمرو بن العاص هو بناء الجامع الذي أنشئت حوله المدينة وتحصينها، والمعروف حتى الآن بجامع عمرو بن العاص، وقد مرت مدينة الفسطاط بالعديد من مراحل التطور والنمو العمراني من العصر الأموي والعسكر والعباسيين، ثم دولة القطائع.

ثم يكمل بنا فصول الكتاب متحدثاً عن الازدهار الكبير الذي شهدته مدينة الفسطاط، والتي جعلتها قبلة لكل الذين يريدون مصر، ففيها جامع أحمد بن طولون، وهي ممر تجاري يستقبل البضائع، بالإضافة إلى وجود منشآت ذات طبيعة خاصة مثل دار الصناعة ومقياس النيل.

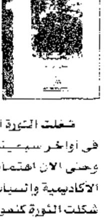
وإذ يتجول بنا الكتاب في شوارع المدينة القديمة وأزقتها وأسواقها بأبوابها المميزة، يرجع ويعدد لنا الآثار الباقية من المدينة الآن وأشهرها جامع عمرو بن العاص وكنيسة أبي سرجة والكنيسة المعلقة، ويؤكد المؤلف في نهاية الكتاب أن تاريخ الفسطاط وتراثها يشيران إلى ملامح مهمة من مسيرة حركة العمران للمدن الإسلامية، فالمدينة مثل حي على التطور العمراني والقدرة على البقاء.

*

الخبرة الإيرانية

الانتقال من الثورة إلى الدولة

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر



شغلت الثورة الإيرانية منذ اندلاعها في أواخر سبعينيات القرن العشرين وحتى الآن اهتمام العديد من الدوائر الأكاديمية والسياسية والإعلامية. فقد شكلت الثورة كنموذج جديد في السياسة والأيديولوجيا للبعض تحدياً على كل من المستوى السياسي والأيديولوجي، وشكلت للبعض الآخر نموذجاً وقدوة تحتذى. ومن ناحية أخرى، شكل النظام السياسي الإيراني الذي تشكلت لبناته الأولى منذ اليوم الأول لنجاح الثورة مادة خصبة لدراسات العلوم السياسية سواء في مجال نظام الحكم أو العلاقات الخارجية. فقد طرح النظام السياسي الإيراني خبرة جديدة للعلاقة بين الديني والسياسي، في وقت استقر فيه على الفصل بينهما انطلاقاً من أن هذا الفصل يسمح بنمو وتطور أفضل لكليهما بعيداً عن الآخر. وجاء النظام الإيراني ليرسم شكلاً جديداً لنظام سياسي يضع فيه الديني في قلب النظام، والفقيه على رأسه، ويرسم شكلاً متمايزاً للعلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكذلك الخارجية للمجتمع الإيراني. فقد اتخذت السياسات الخارجية للنظام الجديد منحى مختلفاً عن سياسات نظام الشاه، فبعد علاقات متمايزة واستراتيجية مع الولايات المتحدة الأمريكية والقوى التقليدية في المنطقة العربية جاء النظام الجديد حاملاً معه خطاباً راديكالياً هاجم فيه قوى الاستكبار وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، وتعهد - لفظياً - بالدفاع والتحالف مع قوى المستضعفين في الأرض.

*

الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة

جمال البنا

القاهرة - دار الشروق - ٢٠٠٨، ٤٠٨ صفحة



هذا الكتاب دراسة إسلامية، وثقافية اجتماعية، وسياسية: تبين أن موضوع الدولة أو الحكم في الإسلام لا يجوز أن يقتصر على الكتابات الإسلامية كما هو الدأب المألوف، فيعود الكاتب إلى ما كتبه الماوردي في الأحكام السلطانية، وابن تيمية في السياسة الشرعية، ويتصفح تاريخ الطبري، والبداية والنهاية. ويعود إلى الأحاديث صحيحها وسقيمها، ويعتبر أن دوره ينتهي عند هذا، إن ما فات هؤلاء الكتاب أن الحكم، إسلامياً أو غير إسلامي - هو الحكم، وأن له طبيعته الخاصة التي لا يمكن لأي صفة تعلق به أن تجرده منها، وإنما قصارى ما يمكن أن تصل إليه هو أن تضيف إليها أو تنقص منها بعض الصفات دون أن يؤدي هذا إلى تغيير طبيعتها.

وأدت دراسة الحكم منذ أن ظهر من أقدم العصور حتى العهد الحديث إلى المبدأ المحوري الذي حكم سياق وروح الكتاب، فكانت هذه الدراسة.

الأستاذ جمال البنا أحد كبار المفكرين الإسلاميين العقلانيين والذي لا يخاف في الحق لومة لائم حتى ولو تعارض ما وصل إليه في أبحاثه مع التفكير السائد، معتمداً دائماً على القرآن الكريم أولاً وأخيراً، وضبط السنة بضوابط القرآن، وعدم التقيد بما قد يكون قد وضعه الأسلاف من فنون واجتهادات ومذهبيات تأثروا فيها بروح عصرهم، وسيادة الجهالة واستبداد الحكام وصعوبات البحث والدرس

فانعكس ذلك على تفاسير القرآن وأحكام النقد وفنون الحديث وأقحم فيها مفاهيم دخيلة ومناقضة لروح الإسلام.

*

تطور النثر العربي في العصر الحديث

حلمي محمد القاعود

دار النشر الدولية - ٢٠٠٨



اللغة - أية لغة - تظل صورة للأمة التي تعبر عنها، ومقياساً تقاس به قوتها وحضارتها وثقافتها، والمثال الواضح على ذلك: لغتنا العربية، فقد نهضت منذ مطلع البعثة المحمدية، ووصلت إلى الذروة مع العصر العباسي، واحتضنت تراثاً ضخماً في شتى الفنون والعلوم، حتى جاء الاجتياح التتري الذي أسقط بغداد (عام ٦٥٦ هـ)، والزحف الصليبي الذي استولى على الشام والقدس (بدءاً من عام ١٠٩٥)، فتم تدمير معظم هذا التراث بمعرفة التتار أو سرقته بمعرفة الصليبيين. ولكن الأمة تماسكت وهزمت هؤلاء وأولاء، وحررت أرض الإسلام من قبضة الهمجية الغازية، وظهر كُتّاب الموسوعات الذين راحوا يسجلون ما استطاعوا من هذا التراث الضائع في كتبهم، أو في مخطوطاتهم التي ضمت جزءاً غير يسير من إنتاج القرائح العربية الإسلامية.

بيد أن الظروف السياسية والاجتماعية، لعبت دوراً كبيراً في الهبوط بمستوى الفكر والثقافة والأدب، ثم جاء تراجع التعليم، ليضع «اللغة» أو الكتابة الأدبية في زاوية ضيقة، أذهبت توهجها وسطوعها، ويلقي عليها بظلال معتمة تركتها تسبح في أغلال البديعيات المتكلفة، أو العاميات المبتذلة أو القضايا السطحية الهامشية، أو الشروح التي لا تضيف جديداً في الغالب..

هكذا كان شأن اللغة العربية، وشأن العرب والمسلمين، حتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، تقريباً، حيث أذن مؤذن اليقظة والنهضة، وبدأ عصر جديد فيه كثير من الآلام والآمال، عذابات تحت نير الهمجية الاستعمارية الصليبية، التي لا تمت لشريعة المسيح عليه السلام بسبب، وطموحات الاستقلال والتحرر من قبضة الغزاة والتخلف والاستبداد جميعاً!

وفي ظل ذلك الوضع، نشطت حركة أدبية جديدة في الشعر والنثر، وأسهمت عوامل مختلفة في تحريك المجتمعات العربية والإسلامية، خاصة في مصر والشام، نحو العلم والمعرفة، والأخذ بأساليب حياتية جديدة، تتناغم مع ما يجري في الغرب القوي من تطور وتحديث.

وفي هذه الدراسة صورة مركزة لتطور النثر العربي، تعتمد على «الإنتاج النثري» الذي ظهر في العصر الحديث منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي حتى فترة السبعينيات في القرن العشرين تقريباً؛ وكان من الطبيعي الاهتمام بأبرز الكُتّاب والنصوص، حتى يمكن للقارئ أن يستوعب حركة الأدب العربي الحديث، في شطره النثري الإبداعي، بصورة شاملة في خمسة فصول يسبقها تمهيدٌ، يتناول المرحلة التي سبقت العصر الحديث في أدبنا العربي، وفيها محاولة لتصحيح بعض الأفكار أو الأحكام التي سادت عن هذه المرحلة، وطبيعة الأدب الذي كان قائماً فيها.

في الفصل الأول دراسة للعوامل التي أدت للنهضة الأدبية الحديثة، ويتحدث الثاني عن المقال وتطوره الفني، وخصص الثالث للقصة القصيرة ورموزها وروادها الأوائل، وجاءت الرواية في الفصل الرابع، وأما الخامس فللمسرحية مع التركيز على مسرح توفيق الحكيم.

*

الأعمال الكاملة

نبيه أمين فارس

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٨ ، ١١٢٠ صفحة



يضم هذا الكتاب بين دفتيه الأعمال الكاملة للدكتور نبيه أمين فارس؛ وهي: الكتب الخمسة: «العرب الأحياء»، و«غيوم عربية»، و«من الزاوية العربية»، و«هذا العالم العربي»، و«دراسات عربية». كما يضم خمسة وأربعين بحثاً في مسائل وقضايا العرب، والإسلام، ولبنان، وأربعاً وعشرين مراجعة لكتب تراثية وحديثة، ومقدمات الكتب العشرة التي حررها، أو أسهم بترجمتها، أو قام بتحقيقها. إضافة إلى ما كتبه من مقالات صحفية عكست رؤاه الإنسانية والوطنية والقومية.

لقد صدر هذا النتاج الفني، والمتنوع، عن أكاديمي بامتياز، ومؤرخ محقق، وناقد سياسي ملتزم قضايا أمته، وقوميته حتى «الاحتراق»، فتبدت في أعماله، ولاسيما الجانب القومي منها، مفاهيم تأصيلية، واتجاهات في التنظير السياسي، مواقف تَنُمّ عن إدراك الأمور على حقيقتها، ووعي مجمل الأحداث التي شهدتها المنطقة العربية، والتحولات التي استجدت بفعل الانعتاق عن الإمبراطورية العثمانية، وما أفرزته الحروب والمعاهدات، عن بُعْدٍ، من معطيات سياسية واجتماعية واقتصادية أنهكت الوطن العربي، وجرّاته، إضافة إلى ما استُتبت من فساد وتخلّف ومنازعات طائفية ومذهبية، وحتى عصبية قبلية - عشائرية، ما جعل الصمود العربي حائراً بين النضال من أجل دحر المستعمر والإصلاح الداخلي لبنيان المجتمع.

وبقدر ما كان واقع الأمة جلياً في فكر المؤلف، كانت سُبُل التغيير واضحة، مُشرقة في قلبه وعقله وعزمه، فـ«لا حاجة للعربي أن يستسلم إلى اليأس، فشمس العروبة، لا محالة، مشرقة»، وهي العروبة العلمانية، حيث يشترك فيه العرب من مختلف أديانهم ومذاهبهم، وهي العقيدة المتأصلة في قيمة الفرد وكرامته، التي تستوحي فكرة الحرية وتنهج التطور والنمو.

وهي عروبة تتمثل في وحدة عربية «اتحادية» ترتكز على اللغة العربية والتربية التاريخية.

سِفْر فكري، يعكس قلق العربي وآماله، في آن، ويعلو برؤاه العلمية، والسياسية، والاجتماعية ليكون، بحق، مرجعاً ثميناً في المكتبة العربية.

من هنا، تبرز أهمية نشر هذه الأعمال الكاملة التي قام بها مركز دراسات الوحدة العربية، انطلاقاً من سياسة المركز العلمية بنشر أعمال رموز الفكر العربي المعاصر الوحدوي والقومي.

*

٤/١ جرام

عصام يوسف

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨، ٦٠٠ صفحة



أصدرت الدار المصرية اللبنانية الطبعة الثالثة من رواية عصام يوسف «٤/١ جرام»، وهي الرواية التي لاقت صدى كبيراً في الأوساط الأدبية، حتى إنها وضعت في قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في عام ٢٠٠٨، وهي رواية تعد خطوة مهمة في مجال الرواية التسجيلية، وقد قالت عنها الكاتبة سلوى اللوباني على موقع إيلاف: «لم أبك في حياتي أثناء قراءة رواية كما بكيت وأنا أقرأ رواية «٤/١ جرام».. رواية واقعية جداً.. رواية مؤلمة وحزينة، رواية تتحدث عن إدمان مجموعة من الشباب في العشرين من العمر. كل من عرف مدمناً عن قرب أعتقد أنه سيتفهم تماماً هذه الرواية بتفاصيلها الحقيقية إلى أبعد الحدود.. رواية تحمل من البعد الإنساني الكثير والكثير.. رواية تستطيع أن تصل إلى قلبك ومشاعرك.. أن تلمس الهم الإنساني الذي بداخلك. لغة الرواية بسيطة.. بعيدة عن أي تعقيدات.. اعتبرها رواية تسجيلية لقصة أو تجربة واقعية بحذافيرها ولا أبالغ إذا قلت بأدق حذافيرها.. حتى اللغة المستخدمة بين مجموعة الأصدقاء المدمنين نجح الكاتب أن ينقلها لنا كما هي دون أي تعديلات أو إضافات. وأقول إنها رواية يجب أن تؤخذ في الاعتبار من قبل الهيئات الحكومية والمنظمات ومن الأطباء أيضاً.. فهي على قدر من الأهمية ببعدها الاجتماعي وبعدها التاريخي. فهي تتحدث عن مأساة ضياع جيل من الشباب من خلال المخدرات ومازالت هذه المأساة مستمرة.. تساؤلات كثيرة تطرح هنا.. هل بالفعل من المهم علاج المدمن؟ أم الأهم إقفال جميع منافذ بيع المخدرات؟ أم إعدام تجار المخدرات دون حتى أي محاكمة؟ ومتى ستتوقف هذه التجارة القاتلة رأفة بشبابنا؟ هل نلوم الشباب؟ أم نلوم الأهل؟ هل بإمكان هذه الرواية الواقعية أن تكون حافزاً للشباب المدمن للعلاج؟ وأذكر هنا أن الطبعة الأولى قد نفدت خلال شهر من صدورها في مارس ٢٠٠٨ وتترجم حالياً إلى اللغة الإنجليزية وسيتم توزيعها خارج مصر وداخلها من خلال الدار المصرية اللبنانية.

أما المؤلف عصام يوسف فيقول عن روايته في حديث لـ«إيلاف» معه ولماذا قرر الآن كتابة مثل هذه الرواية أجاب: مرت فترة طويلة.. أكثر من ١٥ سنة على هذه التجربة.. هكذا تكون هناك مصداقية في الأحداث وفي الرسالة التي أريد أن أوصلها للمدمن أولاً.. وللأهل ثانياً وللحكومة ثالثاً.

الرواية تقع في ٦٠٠ صفحة وأرى أنها طويلة وقد كان بالإمكان حذف بعض من التفاصيل التي وردت فيها إلا أن الكاتب يجيب عن ذلك: بأنه كتب كل هذه التفاصيل لأن الرواية ليست موجهة فقط للمدمنين.. هناك تفاصيل يحتاج أن يعرفها المدمن.. وتفاصيل أخرى للدكتور النفسي.. وأخرى للأهل.. وأخرى للجيل الجديد من الشباب. وهذه كانت مشكلتي في الكتابة أنني أخاطب أكثر من جهة أو شخص.. أريد أن أوصل الصورة لكل الفئات.. والناس عادة تتحدث عن المشكلة ولا تتناول الحل.. أما أنا فتناولت الحل وهو الجزء الذي أخذ مني ٦ أشهر كتابة.. لأنه احتاج إلى البحث والقراءة عن العلاج وحتى أستطيع أن أصوغه بطريقة سهلة للجميع».

*

اسمهان.. تروى قصتها

محمد التابعي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨ ، ٢٨٤ صفحة



أسمهان هي واحدة من أساطير الغناء العربي الحديث، استطاعت رغم حياتها القصيرة (من١٩١٢ إلى ١٩٤٤) أن تتربع على عرش الأغنية، لكنها من ناحية أخرى احتفظت بموقع المطربة الأكثر إثارة للجدل: منذ لحظة ميلادها على ظهر السفينة التي هربت بوالدها سرا من تركيا، وحتى وفاتها المريبة في حادث سيارة مروع، ومرورا بعلاقاتها الخاصة وزواجها من أشهر الرجال في عالم الفن والصحافة والسياسة، متنقلة بين البلدان والجنسيات.

أما القصة الأكثر إثارة في حياة أسمهان فستظل دائما منف علاقاتها بالمخابرات الانجليزية والفرنسية وتوسطها السياسي بين كل منهما وبين أسرة الأطرش: فهل هذه إذن حقيقة تاريخية؟ وما الدوافع والملابسات التي تقف وراء الحكاية برمتها؟

تقرأ في هذا الكتاب سيرة الفنانة الكبيرة بكل هذه التفاصيل كما روتها بنفسها وكما عاشها معها «محمد التابعي» أمير الصحافة المصرية وأحد أهم روادها، والذي جمعته بأسمهان علاقة طويلة نتتبع خيوطها داخل الكتاب مكتشفين فصلا بعد آخر إجابات مقنعة وممتعة ومنصفة عن حياة الصوت الساحر الذي جمع بين طرب الشرق وحداثة الغرب.

❊

مدخل إلى علم اجتماع العلوم والمعارف العلمية

ميشال دوبرا

ترجمة: د. سعود المولى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨ ، ٥٤٣ صفحة



يقدم هذا الكتاب إلى القارئ المتخصص وغير المتخصص، على السواء، عرضاً شاملاً للجوانب الأكثر دلالة في علم اجتماع العلوم الذي شهد تقدماً كبيراً خلال العقود الماضية.

لقد ساهم علم اجتماع العلوم، إلى جانب تاريخ العلوم وفلسفتها، في إغناء معرفتنا بشروط اشتغال التجربة العلمية. فمن خلال تحليله أشكال الاتصال والتواصل بين العلماء الباحثين، ودور المعايير والقواعد المهنية، وكيفية إعداد المقالات العلمية للنشر، وحتى كيفية إجراء اختبار عملي داخل المختبرات، يقوم علماء الاجتماع بسبر أغوار الآليات الاجتماعية والمعرفية التي تفعل فعلها في بلورة الابتكارات العلمية وفي تعميمها. في هذا الكتاب صورة واضحة ودقيقة عن ذلك.

❊

وجع المصريين

خليل فاضل

منشورات خليل فاضل

القاهرة ـ ٢٠٠٨



هذا ليس نصاً أدبياً، وليس نصاً نفسياً اجتماعياً خالصاً، إنه نص له خصوصيته الشديدة، وله عموميته الرحبة المتسعة الضامة الملمة.. في هذا الكتاب كتب المؤلف عن عوالم بشرية تبدأ من الواقع تضيف إليه وتسرق منه. في هذا الكتاب يدعونا خليل فاضل للبحث عن الشمبانزي الاجتماعي الموجود فينا ومعنا، ذلك الذي يملك شبكة علاقات اجتماعية مع الناس في العشوائيات، القرى، الشركات، قاع المدينة، والهضاب المحيطة بالعاصمة، يسكن كالحيات في خبايا القرى الساحلية الشمالية، شمبانزي كون كياناً مستقلاً يمكن الاصطلاح عليه بالكيان (المبهظظ).. اصطلاح مناسب لثقافة (مشي حالك، البهظظة، الشرعشة والطعطعة). هكذا نحن المصريون نتطبع مع الواقع المر المعاش تدريجياً حتى نعتاده مثل الذي اعتاد رائحة العفن فزكمت أنفه ولم يعد قادراً على الشم.. إن قلم المؤلف قد انغمس بالفعل في جروح المجتمع وأوجاعه، سبر أغوار الحياة اليومية للمصريين، حتى يخيل لك وكأنك تعيش في بيوتهم مع زفراتهم وتنهيداتهم وفي عمق المسكوت عنه في علاقاتهم في (الشارع لنا)، يتعرض الكتاب لأطفال الشوارع، الفساد الأخلاقي، الخوف من الحميمية، التربص بالآخر، وفي (الأسرة وأحوالها) يناقش مشكلة الأب الحاضر الغائب.. اكتئاب المرأة المصرية.. المراهقة والمراهقون.. عواصف السنة الأولى زواج، قلة ممارسة الجنس وراء الخلافات الزوجية، ولماذا تخلع بعض النسوة أزواجهن؟.. كيف نخبر أطفالنا بالطلاق، الزواج العرفي.. طلاق الأقباط والعنوسة.. وفي (التعليم والتربية) يناقش العنف المدرسي.. بعبع الثانوية العامة.. الآثار النفسية للمدارس الأمريكية.. وفي (الصحة والعلاج) يتعرض إلى أوجاع أجساد المصريين.. انتشار أمراض القلب.. مفهوم «الجسدنة» و«النفسنة» احتياجنا إلى معلمين لفن الحياة أكثر من احتياجنا إلى أطباء.. أزمة التأمين الصحي.. بارونات الدواء.. الجنس ومشكلاته.. وفي (صحتنا النفسية) من الجنون إلى الانتحار.. نفسيتنا قضية أمن قومي.. معنى الجنون الاجتماعي.. لماذا ينتحر المصريون.. والمصريون والاكتئاب.. أما في (إدمان المخدرات)، فيناقش الكتاب الإدمان والناس في بر مصر، المخدرات، تجارتها.. العلاقة بين الخلل الأسري، والسلوك الإدماني، ولماذا ينتكس المدمنون.. وبسرعة؟

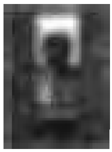
❊

ادعاءات اليهود حول الهيكل

عبدالله علي سمك

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٨،

١٥٠ صفحة



هل كف اليهود في أي وقت من الأوقات عن ادعاءاتهم حول المسلمين، والعرب واغتصاب تراثهم وآثارهم وكل ما يتعلق بتاريخهم؟ هل هدأت الحركات الصهيونية في محاولاتها المحمومة لتأسيس قواعد مزيفة للدولة اليهودية وللكيان المغتصب؟

التاريخ يقول لنا إن تلك المحاولات دائمة ودائبة تخفت حيناً وتستعر في أحيان أخرى، لكن علماء العرب والمسلمين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام تلك المحاولات، ولم يستسلموا أو يخضعوا أمام ذلك التحدي الخطير الذي يتعلق بدينهم وأوطانهم. والتاريخ يقول لنا أيضاً إن العلماء المسلمين خاضوا ذلك التحدي مسلحين بالعلم وبحقائق التاريخ والجغرافيا، وبالاكتشافات الأثرية ليدحضوا مزاعم أعدائهم الدائمين: اليهود.

أحد أولئك العلماء هو الدكتور عبدالله علي سمك الذي تسلح بعلمه وغاص في قلب التاريخ مستعيناً بالخرائط والصور القديمة ليخرج لنا بكتابه الجديد: ادعاءات اليهود حول الهيكل دارساً فيه أهم القضايا التي تتعلق بالمسجد الأقصى والمثارة حالياً، وادعاءات اليهود حول هدمه وتشييد هيكل سليمان على أنقاضه. فما حقيقة الهيكل المزعوم وما ادعاءات اليهود حوله؟ وهل لليهود حق في تدمير المسجد الأقصى وإعادة بناء ذلك الهيكل مكانه؟ جاء الكتاب الوثيقة في ثلاثة مباحث: الأول، حقيقة الهيكل، والثاني الادعاءات اليهودية حوله، والثالث، مناقشة تلك الادعاءات ومزاعم اليهود.

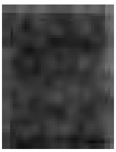
وقد زود المؤلف كتابه بملاحق توثيقية مثل: اقتباس الهيكل عن الطراز الفرعوني، وهيكل هيرودوس ورسم توضيحي للهيكل، وموقع القدس في خارطة فلسطين، وصور المسجد الأقصى على مر التاريخ، وكلها وثائق تكشف زيف هذه الادعاءات اليهودية ليضعها أمام القارئ المعاصر ليلم بأبعاد القضية الخطيرة التي يثيرها اليهود دائماً لإثبات حقهم في استعمار الأرض واغتصاب التاريخ. إنها وثيقة تاريخية تأتي في وقتها تماماً تعيد للعرب عامة وللمسلمين في كل مكان، وللفلسطينيين على وجه الخصوص الثقة في أنفسهم وفيما لديهم من كنوز، وتقول باختصار إن الحق عائد إلى أهله، فما ضاع حق وراءه مطالب.

❊

مجالس الشورى في عصر سلاطين المماليك

عثمان علي عطا

القاهرة: الدار الثقافية للنشر



يتناول البحث «مجالس الشورى في عصر سلاطين المماليك»، يقول المؤلف إن ما حفزه على تناوله بالدراسة ما رآه من تعرض الدولة المملوكية لكثير من الاتهامات التي وجهها إليها بعض الباحثين، وكان من أهمها: أنها دولة عسكرية استبدادية. وكان المستشرق الإنجليزي وليم موير أول من ادعى هذا من المستشرقين في كتابه «دولة المماليك في مصر»، وتابعه في ذلك بعض الباحثين العرب، منهم: «أنور زقلمة» في كتابه «المماليك في مصر»، زعم فيه أن سلاطين المماليك كانوا يعاملون الشعب المصري معاملة استبدادية، مما جعل الشعب المصري يعيش في خضوع واستكانة، وسلم بعض الباحثين بهذا الادعاء، ونظروا إليه على أنه حقيقة مسلمة لا مجال للشك فيها، ولم يحاول أحد منهم دراسة نظام

الشورى بخصائصه وقواعده الأساسية فى هذا العصر لاستجلاء حقيقة هذا الادعاء وتفنيده والرد عليه.

وفى المقابل كان هناك قليل من الباحثين أشاروا إلى وجود مجالس الشورى فى هذا العصر، ورأوا أن وجود هذه المجالس لم يكن ملزماً لسلاطين المماليك، وكان الرجوع إليها متروكاً لرغبة هؤلاء السلاطين وكان وجودها للاستئناس بها فقط لا للإلزام، ولهذا رأيت أنه من الواجب علىّ أن أجلى هذه المسألة بنظرة منصفة توضح حقيقة هذا الأمر، ووجدت نفسى مضطراً لمراجعة كثير من المصادر والمراجع التى تناولت الجوانب المختلفة لهذا العصر، وكذلك لما يكتنف هذا الموضوع من غموض شديد، وافتقار المكتبة التاريخية المملوكية - على الرغم من كثرة الدراسات بها - إلى دراسة جادة توضح موضوع مجالس الشورى، وتبين معالمه، وتظهر الجوانب الإيجابية فى نظام الحكم فى العصر المملوكى، لمواجهة النظرة السلبية التى حاول بعض الكتاب إلصاقها بالدولة المملوكية ونظمها.

وينقسم البحث إلى ستة فصول تعقبها خاتمة تتضمن أهم النتائج التى توصل إليها البحث.

فيتناول فى التمهيد تعريف الشورى لغة واصطلاحاً، ثم عرض لمبدأ الشورى فى الإسلام وتطبيقاته فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم فى عهد الخلفاء الراشدين، كما تعرض لبعض القضايا حول الشورى فى الفقه الإسلامى: وهل هى ملزمة للحاكم أم لا؟، ومجال الموضوعات التى يمكن إجراء الشورى فيها، والصفات التى يجب أن يتصف بها أهل الحل والعقد (أعضاء مجالس الشورى)، ثم تطبيقات الشورى فى مصر قبيل العصر المملوكى.

وخصص الفصل الأول للحديث عن الهيكل التنظيمى لمجالس الشورى فى هذا العصر.

أما الفصل الثانى، فقد اقتصر على تحليل مجالس الشورى السياسية، مثل: مجالس تولية الخلفاء العباسيين فى مصر، وكيفية اختيار الخليفة، والمجالس التى قامت باختيار السلاطين وتوليتهم، والمجالس التى قامت بعزل بعض السلاطين، وأسباب ذلك، وكيفية اختيار السلاطين.

واختص الفصل الثالث بالحديث عن «مجالس الشورى الإدارية والاقتصادية»، والمجالس الإدارية تنحصر فى مجالس اختيار الولاة والموظفين، ومجالس اختيار قضاة المذاهب الأربعة وتعيينهم، ومجالس محاسبة الموظفين الذين ثارت حولهم الشكوك وتورطوا فى اختلاس الأموال.

أما الفصل الرابع فيتناول «مجالس الشورى الدينية»، مثل: مجالس الدعاوى، والمجالس التى كانت تعقد لمناقشة المنازعات بين الأفراد حول العقارات أو الأوقاف، ومجالس الفتاوى الدينية التى عقدها سلاطين المماليك للاسترشاد بها فى بعض الموضوعات المهمة، ومنها - أيضاً - مجالس استئناف أحكام القضاة، ومجالس شورى المظالم التى كان يعقدها السلاطين لمناقشة الشكاوى التى يرفعها إليهم أفراد الشعب ضد الأمراء والموظفين.

ويعرض الفصل الخامس لمجالس الشورى الخاصة، ومجالس المناظرات الدينية ومجالس تعيين مدرسى المدارس الدينية ومناقشة مدى صلاحيتهم لهذه الوظيفة.

أما الفصل السادس: فهو «دراسة نقدية لمجالس الشورى فى العصر المملوكى»، واحتوى على دراسة نقدية توضح الإيجابيات التى نتجت عن مجالس الشورى، وأهم السلبيات التى شابتها عند التطبيق وأسبابها، كما تعرض للمجالس الصورية (الشكلية) والحقيقية، وقرارات المجالس ومدى إلزامها للحكام، وطرق سيطرة الحكام على قرارات المجالس، وموقف الحكام من أعضاء المجالس بعد عقدها.

※

العلماء والفرنسيس فى تاريخ الجبرتي

خالد زيادة

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٨، ١٤٤ صفحة



فى هذا الكتاب يثبت المؤلف مقولته بأن التاريخ الوطنى المصرى لمصر الحديثة قد مر من البوابة الإجبارية التى هى «تاريخ عجائب الآثار» للمؤرخ الشهير الجبرتي. ذلك أن مجلدات المؤلف المذكور سمحت بكتابة تاريخ اجتماعى لمصر المملوكية من خلال التفاصيل الكثيرة التى أوردها الجبرتى بخصوص الفئات الاجتماعية وأمراء المماليك ومشايخ الأزهر والحرفيين وعامة الشعب، ورغم تراجع الاهتمام بالجبرتى نسبياً بسبب تراجع كتابة التاريخ «الوطني» والانتقال إلى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى وبسبب اكتشاف مصادر جديدة تمثلت خصوصا بوثائق المحاكم الشرعية، فإن أهمية الكتاب فى أنه يرصد المجابهة بين التاريخ التقليدى والأزمنة الحديثة، ومدى استجابة المناهج التقليدية للأوضاع المتغيرة وحدود ذلك من خلال إعادة قراءة فى التراجم والأخبار على السواء.

تتألف الدراسة من مقدمة ومدخل إلى الجبرتي، ثم ثلاثة فصول بعناوين «التصوف والتاريخ - العلم والعلماء فى القرن الثامن عشر - القاهرة: بداية التغريب العمراني». وهو غنى بالوقائع والمراجع.

※

حقائق وشبهات حول تعدد الزوجات

عبدالله سمك

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨



صدر حديثاً عن الدار المصرية اللبنانية كتاب «تعدد الزوجات حقائق وشبهات»، من تأليف الداعية الإسلامى د. عبدالله سمك. والكتاب يعد الجزء الأول من سلسلة يعتزم المؤلف والدار إصدارها لتوضيح حقائق الإسلام السمح، ودحض الأباطيل التى تثار حوله والشبهات التى يروجها أعداؤه والقيام بالرد عليها بمنطق وسند نقلي، بما لا يخالف روح العصر.

ومن هذه الأباطيل والشبهات موضوع تعدد الزوجات، وهو الموضوع الذى يثار دائماً من قبل منظمات حقوق الإنسان، والمنظمات النسائية العالمية باعتباره تمييزاً ضد المرأة ودليلاً على رجعية الإسلام، وعدم مراعاته نفسية المرأة التى يتزوج عليها زوجها.

وفى هذا السياق حصر د. عبدالله سمك خمس شبهات تثار فى هذه المسألة: الأولى: أن تعدد الزوجات نظام بدائى شرعه الإسلام مراعاة لطبيعة العرب الشهوانية. الثانية: تعدد الزوجات أمر دنيوى لا ديني. الثالثة: نفى العدل بين الزوجات، دليل على امتناع التعدد بدليل قوله تعالى: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء». الرابعة: تعدد الزوجات ظلم للمرأة وإهدار لكرامتها وتمييز للرجل عنها، وسبب لفساد الأسرة وتشرد الأطفال. الخامسة: لو كان التعدد مباحاً ما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب كرم الله وجهه من الزواج على فاطمة رضى الله عنها.

ثم يذهب بعض هؤلاء المغرضين إلى أن تعدد الزوجات للرسول دليل على شهوانيته وحبه للنساء.

وهنا يقف المؤلف، بما عرف عنه من دامغ الحجة وناصع السند ليفند هذه الشبهات بعد أن حصر ملامحها شبهة فشبهة، مستخلصاً من خلال ذلك الحقائق التى ترد فى هذا الموضوع، ومختتماً الكتاب بسيرة أمهات المؤمنين، وذلك كله لا يتم استرسالاً أو انطباعاً، وإنما من خلال الرجوع إلى المصادر المعتبرة والمعتمدة فى بابها.

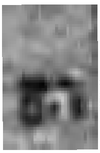
الكتاب يتلمس آفاق الدعوة المستنيرة إلى أن نحكم عقولنا وقلوبنا ولا نقف عند بوابة العقل المجرد وحده لتستبين الحقائق على وجهها الصحيح.

※

شاهد من المخابرات السورية ١٩٥٥ - ١٩٦٨

فوزى شعيبي

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٨، ٢٣٠ صفحة



فى هذا الكتاب يحدد فوزى شعيبى ضابط المخابرات السورى الذى تولى مهمات دقيقة فى بلاده ما بين عامى ١٩٥٥ و١٩٦٨ أربع محطات مفصلية فى تاريخ سوريا وحياته المهنية يفرد لها أربعة فصول تحمل العناوين الآتية: اللقاء الأول مع عبدالحميد السراج - قيام الوحدة بين مصر وسوريا - الانفصال - ثم العمل لإعادة الوحدة بين مصر وسوريا.

وخلال تلك الفصول يروى المؤلف عشرات الأحداث المصيرية التى شارك هو فى صنعها أو تولاها بنفسه أو كان شاهداً عليها.

هكذا يقع القارئ على الكثير من أسرار تلك المرحلة، حيث يصوب المؤلف بعض ما كُتب ويضيء على محطات مهمة أهمها «مؤامرة حلف بغداد» ونسف أنابيب محطات النفط فى سوريا فى عهد الرئيس شكرى القوتلى مروراً بتفاصيل شبكة تجسس مرجعيون وإعدام أعضائها إلى الوحدة بين مصر وسوريا وتداعياتها إلى مقتل فرج الله الحلو إلى الانفصال وصولاً إلى حرب ١٩٦٧ وتنحى الرئيس عبدالناصر عن الحكم ثم عودته عن الاستقالة وانتحار المشير عبدالحكيم عامر.

«شاهد من المخابرات السورية» ليس كتاب تاريخ فحسب، بل هو فعل إزاحة الستار عن الكثير من المعلومات والتفاصيل السياسية والأمنية والألغاز التى لاتزال تحيط بأحداث تلك الفترة من تاريخ سوريا والمنطقة على ما فيه من معلومات القول: «وشهد شاهد من أهلها».

※


أحدث إصدارات
دار الشروق

